

عُشْاقُ الْكِتَابِ

إِعْكَاد
عبدالرحمن يوسف الفرحان

إِنَّ الشَّاعِلَ بِالذَّفَاتِ وَالْمَحَا
أَصْلُ التَّعَبُّدِ وَالْيَزْ
بِرِوَالِكِتَابَةِ وَالذَّرَاسَةِ
هُدُ وَالرَّئَاسَةِ وَالسِّيَاسَةِ

بِإِذْنِ الشَّيْخِ الْإِسْلَامِيِّ



غداً أصير كتاباً يا هناءَ غدي مقلَّباً بين أنفاسٍ وأبصارِ
محبةً سمحة الأكنان تمنحني في كل ثانيةٍ آلاف أعمارِ

[توفيق يوسف عواد]

عشاق الكتب

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار البشائر الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٧٠٤٩٦٣ / ٠٠٩٦١١
e-mail: bashaer@cyberia.net.lb ص ب: ١٤ / ٥٩٥٥ بيروت - لبنان

كلمة شكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد: فاسم هذا الكتاب والحاث على جمعه، هو بإشارة من الأخ
الشيخ مُحَمَّد بن ناصر العجمي .

أشرت إليّ في تصنيف هذا فيا حسن الإشارة من همام
لعلمي أنّ ظنك فيّ صدق وأنك بي حفيّ ذو اهتمام
فلا زالت تدوم لك العطايا على رغم الأخصاء اللثام
والشيخ محمد هو من عشاق الكتب، قراءة وجمعاً وتأليفاً وتحقيقاً،
وهو يحرص أن يفيد إخوانه بالكتب والمخطوطات .

قال الشيخ المحقق العلامة شعيب الأرناؤوط محقق كتاب «الآداب
الشرعية - لابن مفلح»^(١): ولا بدّ لنا من تقديم خالص الشكر وأوفاه إلى
الأستاذ الفاضل محمد بن ناصر العجمي، المعروف في الأوساط العلمية
بخدمة السنّة النبوية، فإنه حفظه الله ورعاه لَمَّا ترامى إليه نبأ قيامنا بتحقيق هذا
الكتاب، سارعَ إلى تصوير ما تَجَمَّع لديه من النسخ الخطية - وأهل العلم
وحدهم يعلمون كم يعاني الباحث من صعوباتٍ مُضْنِيَةٍ في الاهتداء إلى

(١) الآداب الشرعية لمحمد بن مفلح المقدسي ص ٢٥، بيروت - مؤسسة الرسالة،

ط (٢)، ١٩٩٦ م.

أماكن وجود النسخ الخطية!، ثم في كيفية الحصول عليها! — وأرسلها إلينا هدية خالصة، إسهاماً منه في خدمة العلم وأهله، فنسأل المولى سبحانه أن يوفقه لما يحبّه ويرضاه، وأن يُجزّل له الأجر والثواب في الدنيا والآخرة. اهـ.

وقال الشيخ رمزي سعد الدين دمشقية: محقق كتاب «الفانيد في حلاوة الأسانيد — للسيوطي»^(١):

بحمد الله تعالى أولاً ثم بفضل سعي الأخ المحب الشيخ محمد بن ناصر العجمي تحصيل لهذه الرسالة أربع نسخ مخطوطة.

ثم قال في الهامش: وهذه عادته وفقه الله لما يحبه ويرضاه وجزاه عن العلم وأهله خيراً، يحرص أن يفيد إخوانه أو من يسمع أنه يقوم بتحقيق كتاب ما يتحافه بما تيسر عنده من مخطوطات ذلك الكتاب، حسبة لوجه الله تعالى، وقد يتجشّم لذلك الصّعب ويتكلف ما لا يطيق غيره تكلفه، فالله يكافئه على حسن صنيعه، ويجعله يوم القيامة في صحائفه. اهـ.

وقال الدكتور موفق بن عبد الله بن عبد القادر: محقق كتاب «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني»^(٢):

لم أقف لكتاب المنتخب إلا على نسخة فريدة في مكتبة أحمد الثالث في استانبول. ولا يفوتني في هذا المقام، أن أتقدم بجزيل الشكر إلى صديقي العزيز محمد بن ناصر العجمي الذي تكرّم بإرسال مصورته من المخطوطة عندما علّم برغبتي في تحقيق هذا الكتاب.

(١) ص ٧ من ضمن مجموعة: «لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام» الأولى،

بيروت — دار البشائر الإسلامية، ط (١)، ١٩٩٩ م.

(٢) ص ٩٩، الرياض — دار عالم الكتب، ط (١)، ١٩٩٦ م.

وقال الدكتور علي أبو زيد محقق كتاب «أعيان العصر وأعوان النصر - للصفدي»^(١):

ولا يفوتني في هذا المقام أن أسجل الشكر والامتنان للأخ الفاضل محمد بن ناصر العجمي، الذي قدّم لي بكل نفس رضيّة عددًا من الأجزاء المخطوطة للكتاب كانت في مكتبته، أثابه الله عنا كل خير.

فَذاكَ أَلَسْنُهُمْ لِسَانًا وَاحِدًا يُثْنِي بِمَا خَوَّلَتْ وَالْذُّنْيَا فَمُ

وكتبه

عَبْدُ الرَّحْمَنِ يُوسُفُ الْفَرَحَانُ

(١) ص ١٦، دمشق - دار الفكر، بيروت - دار الفكر المعاصر، ط (١)، ١٩٩٨ م.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل الكتاب وأمر به، فقال جلّ ذكره: ﴿يَخَيِّنْ أَخَذَ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]. ووضع القلم في المكان الرفيع ونوّه بذكره وأقسم به، فقال جلّ ذكره: ﴿تَوَالَّفَ وَمَا يَسْتَفْهِمُونَ﴾ [القلم: ١].

والصلاة والسلام على الرسول الأمي الذي أوّل تكليف تلقّاه من ربّه هو القراءة، وأوّل كلمة ألقيت عليه هي: ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وبعد، فإن عظمة الأمم تعتبر بأفكارها التي يبدعها أبنائها، وعلمها الذي يتسلسل في أجيالها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

وما الحضارة إلّا مظهراً حيّاً وترجماناً عمليّاً لهذه العظمة ونتائج مباشرة للأفكار والقيم، فإذا انطلقت الأفكار والقيم والمعاني من منهج خلقي قويم، وسلوك نظيف مستقيم، شمنت عند الأمة وقتها حضارة عالية أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها.

وإن الكتاب والقلم لأعظم عامل في حفظ الأفكار ونقلها من السلف إلى الخلف، ومن أمة إلى أخرى عبر العصور والأجيال.

فإذا ضعفت الأمة وخَفَتْ نجمها، وبزّها في ميدان المجد والعظمة
غيرها، بقيت الكتب والأسفار أعظم مورد وأصدق شاهد على سابق الأمة
وماضيها.

وإن الأمة الإسلامية التي بقي لها من زاهر حضارتها، وشامخ مجدها
رصيد من الثروة الهائلة، ومن المعاني والقيم والأفكار بحيث نستطيع أن
نجزم معه على أن أمة غيرها لم توازيها أو تقاربها في ذلك الميدان الرحب
الذي ضاق عنه غيرها.

وفي هذه الصفحات سنرى من أخبارهم في عشقهم للكتب وما بذلوه
من النفيس والغالي من عمرهم ووقتهم وأسبابهم فيه، وتعبهم وما عانوه من
المشاق والسفر لأجله، وعزلتهم وأنسهم بمجالسته ومنادتهم له عوضاً عن
الأهل والزوجة والأولاد والأصحاب، وحزنهم وغمّهم وموتهم بسببه.

وأغرق العقل في لجج من الكتب في الدين والعلم والتاريخ والأدب
ملازماً كتب الماضين يسألها ما أنتجت من فنون أمة العرب
وما جمعت في هذا الكتاب إلا ما اجتنأه من عقله أكبر من عقلي،
واختياره أبلغ من اختياري، ونقده أحسن من نقدي، وذيله في التجارب
أطول من ذيلي.

وفي نظرائي وأشكالي من فهمه أثبت من فهمي، وذهنه أنفذ من
ذهني، وحفظه أغزر من حفظي، وقلبه أذكى من قلبي، لكنني آثرت أن يكون
لي فيمن دوني أثر، كما كان لمن فوقني عندي أثر.

وأهل الفضل كنفس واحدة، تستنسخ الفضائل على الزمان في ذوي
الأرواح الطاهرة، والجواهر النيرة، والطبائع المشحودة، والعقول السليمة.

وهذا الكتاب تلقّطه من أقوالهم بعد التحرير والتقرير، وما لي منه إلا

حَظُّ الرّوَايَةِ إِن وَقَعْتَ مَوْقِعَهَا مِنْكَ، وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا عِنْدَكَ، وَإِنْ تَكُنْ الْآخَرَى فَمَا أَقْدَرَكَ عَلَى رَدِّ مَا أُرْوِي، وَإِفْسَادِ مَا أَقُولُ، حَتَّى يَصِيرَ مَا جَمَعْتَهُ وَنَقَلْتَهُ، وَكَدَدْتُ نَفْسِي فِيهِ، خَامِلًا فِي عَيْنِكَ، وَمَهِينَ الْقَدْرِ بِحُكْمِكَ، وَغَيْرُ هَذَا أَجْمَلُ بِمَطْبُوعٍ عَلَى الْخَيْرِ، وَمَغْذُوٌّ بِالْأَدَبِ، وَنَاشِئٌ مَعَ الْبِرِّ، وَجَارٍ عَلَى طُرُقِ الطَّهَارَةِ.

وَلَا أَقُولُ إِنَّ مَا يَمُرُّ بِكَ هَا هُنَا لَا تُصِيبُهُ فِي الْكُتُبِ، وَلَا تَجِدُهُ عِنْدَ الشُّيُوخِ، وَلَكِنْ كَمْ بَيْنَ مَنْ يَسْتَقْبِلُ كِفَايَةَ غَيْرِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَأْنِفُ كِفَايَةَ نَفْسِهِ، أَنْصِفْ وَأَحْسِنْ، وَانْظُرْ إِلَيَّ بِعَيْنِ الرِّضَا، ثُمَّ اقْتَحِمْ بِي جَمَرَ الْغَضَا، وَمَهْمَا أَثَبْتُ فَاقْصِدْ بِهِ تَأْدِيبِي وَتَهْذِيبِي، لِتَكُونَ لَائِمْتُكَ عَنْ غَيْرِ حَسَدٍ، وَإِنْكَارُكَ خَارِجًا عَنِ التَّنَافُسِ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْلِبَنَا قَالٍ، وَيَشْبِكَ حَالَنَا شَابِكٌ، فَاسْتَحْيِ لَكَ مِنْ جَنَائِكَ عَلَيَّ بِرَدِّ مَا أَثَبَّنَهُ، وَتَزْيِيفِ مَا نَقَدْتَهُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ شُبْتُ أَوْ خَلَصْتُ، وَزِدْتَ فِي إِحْسَانِي أَوْ نَقَصْتَ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

عبدالرحمن يوسف الفرحان

١- فصل في فضيلة علم الأخبار

قال أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (١):

قَالُوا: لَوْلَا تَقْيِيدُ الْعُلَمَاءِ عَلَى الدَّهْرِ خَوَاطِرَهُمْ بِالْأَخْبَارِ، وَكُتُبِهِمْ لِلْآثَارِ، لَبْطَلَ أَوَّلُ الْعِلْمِ، وَضَاعَ آخِرُهُ.

إِذَا كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ الْأَخْبَارِ يُسْتَخْرَجُ، وَكُلُّ حِكْمَةٍ مِنْهَا تُسْتَنْبَطُ، وَالْفَقْهُ مِنْهَا يَسْتَارُ وَالْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ، وَأَصْحَابُ الْقِيَاسِ عَلَيْهَا يَبْنُونَ، وَأَهْلُ الْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ، وَمَعْرِفَةُ النَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ، وَأَمْثَالُ الْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ، وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ، وَآدَابُ سِيَاسَةِ الْمُلُوكِ وَالْحَزْمُ مِنْهَا تُلْتَمَسُ؛ فَكُلُّ غَرِيبَةٍ بِهَا تُعْرَفُ، وَكُلُّ عَجِيبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطَرَفُ. وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتَعُ بِسَمَاعِهِ الْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ، وَيَسْتَعْذِبُ مَوْعِدَهُ الْأَخْمَقُ وَالْعَاقِلُ، وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ، وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ الْخَاصِيُّ وَالْعَامِيُّ، وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ الْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ.

«وَبَعْدُ» فَإِنَّهُ يُوصَلُّ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ، وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ، وَيُتَجَمَّلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ، وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَخْفِلٍ.

فَفَضِيلَةُ عِلْمِ الْأَخْبَارِ تَتَبَّعُ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ، وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ، فَلَا يَضُرُّ عَلَى عِلْمِهِ، وَيُتَّقَنُ مَا فِيهِ مِنْ إِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ، إِلَّا إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ، وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ، وَاسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ، وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ. وَقَدِيمًا قِيلَ: إِنَّ عِلْمَ النَّسَبِ وَالْأَخْبَارِ مِنْ عُلُومِ الْمُلُوكِ وَذَوِي

(١) معجم الأدباء ٩١/١، وبعضه في مروج الذهب ٦٧/٢.

الْأَخْطَارِ، وَلَا تَسْمُوا إِلَيْهِ إِلَّا التُّفُوسُ الشَّرِيفَةُ، وَلَا يَأْبَاهُ إِلَّا الْعُقُولُ السَّخِيفَةُ.

* * *

وَقَدْ قَالَتْ الْحُكَمَاءُ^(١):

الْكِتَابُ نِعَمُ الْجَلِيسِ وَالذُّخْرُ، إِنْ شِئْتَ أَلْهَتَكَ بَوَادِرُهُ، وَأَضْحَكْتَكَ نَوَادِرُهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَشْجَنَكَ مَوَاعِظُهُ، وَإِنْ شِئْتَ تَعَجَّبْتَ مِنْ غَرَائِبِ فَوَائِدِهِ.

وَهُوَ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ، وَالنَاقِصَ وَالْوَافِرَ، وَالْغَائِبَ وَالْحَاضِرَ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ، وَالْجِنْسَ وَضِدَّهُ.

وَهُوَ مَيِّتٌ يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى، وَيُترَجِّمُ عَنِ الْأَحْيَاءِ، وَهُوَ مُؤَنَسٌ يَنْشَطُ بِنَشَاطِكَ، وَيَنَامُ بِنَوْمِكَ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا تَهْوَى.

وَلَا يُعْلَمُ جَارٌ وَلَا خَلِيطٌ أَنْصَفُ، وَلَا رَفِيقٌ أَطْوَعُ، وَلَا مُعَلِّمٌ أَخْضَعُ، وَلَا صَاحِبٌ أَظْهَرُ كِفَايَةً، وَلَا أَقْلٌ جِنَايَةً، وَلَا أَبْدَأُ نَفْعًا، وَلَا أَحْمَدُ أَخْلَاقًا، وَلَا أَدْوَمُ سُرُورًا، وَلَا أَسْلَمُ غِيْبَةً، وَلَا أَحْسَنُ مَوَاتَاةً، وَلَا أَعْجَلُ مُكَافَاةً، وَلَا أَخَفُّ مُؤَنَّةً مِنْهُ.

إِنْ نَظَرْتَ فِيهِ أَطَالَ إِمْتِنَاعُكَ، وَشَحَذَ طِبَاعُكَ، وَكَثَّرَ عِلْمُكَ، وَتَعَرَّفَ مِنْهُ فِي شَهْرِ مَا لَا تَعْرِفُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ فِي دَهْرٍ، يُغْنِيكَ عَنْ كَدِّ الطَّالِبِ، وَعَنِ الْخُضُوعِ إِلَى مَنْ أَنْتَ أَتْبَتْ مِنْهُ أَصْلًا، وَأَزْسَخَ مِنْهُ فِرْعَا، وَهُوَ الْمُعَلِّمُ الَّذِي لَا يَجْفُوكَ، وَإِنْ قَطَعْتَ عَنْهُ الْمَادَّةَ لَمْ يَقْطَعْ عَنْكَ الْفَائِدَةُ.

* * *

* وَكَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ ابْنُ عَائِشَةَ الْفُرَشِيَّةِ يَقُولُ: الْأَخْبَارُ تَصْلُحُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا، قُلْنَا: الدُّنْيَا قَدْ عَرَفْنَا فَمَا لِلْآخِرَةِ؟ قَالَ: فِيهَا الْعِبَرُ، يَعْتَبَرُهَا الرَّجُلُ.

(١) هذه بعض فقر مما قاله الجاحظ وستأتي مبسوطة ص ٢١.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ
عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن
قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِن أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩].

* وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ لَوْلَا: عَلَيْكَ بِالْأَخْبَارِ، فَإِنَّهَا لَا تَعْدَمُ كَلِمَةً
عَلَى هُدًى، وَأُخْرَى تَنْهَى عَنِ رَدًى.

* وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: أَجِمُّوا هَذِهِ
الْقُلُوبَ وَالتَّمِسُّوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ.

* وَكَانَ أَبُو زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ لَا يَغْدُو النَّحْوَ، فَقَالَ لَهُ خَلْفُ الْأَحْمَرِ: قَدْ
الْحَحْتَ عَلَى النَّحْوِ لَمْ تَعُدَّهُ، وَلَقَلَّمَا يَنْبُلُ مُتَفَرِّدٌ بِهِ، فَعَلَيْكَ بِالْأَخْبَارِ
وَالْأَشْعَارِ.

* وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ فِي كِتَابِهِ فِي الْأَدَبِ: «ثُمَّ أَنْظِرِ الْأَخْبَارَ الرَّائِعَةَ
فَتَحْفَظُ مِنْهَا، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ الْحِرْصَ عَلَى الْأَخْبَارِ، وَلَا سِيَّمَا مَا يَرْتَاخُ
لَهُ النَّاسُ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ مَنْ يُحَدِّثُ بِمَا يَسْمَعُ، وَلَا يُبَالِي بِمَنْ سَمِعَ، وَذَلِكَ
مَفْسَدَةٌ لِلصِّدْقِ، وَمَزْرَاةٌ بِالرَّأْيِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَّا تُخْبِرَ بِشَيْءٍ إِلَّا وَأَنْتَ بِهِ
مُصَدِّقٌ، وَإِلَّا يَكُونُ تَصْدِيقُكَ إِلَّا بِبُرْهَانٍ فافْعَلْ».

* * *

قَالَ الْأَخْفَشُ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَنَشَدَنِي أَبُو سَعِيدٍ الشُّكْرِيُّ:

وَذَكَّرَنِي حُلُوَ الزَّمَانِ وَطَيْبُهُ مَجَالِسُ قَوْمٍ يَمْلَأُونَ الْمَجَالِسَا
حَدِيثًا وَأَشْعَارًا وَفَقْهًا وَحِكْمَةً وَبِرًّا وَمَعْرُوفًا وَإِلْفًا مُوَانِسَا

* * *

وَقَالَ ابْنُ عَتَّابٍ: يَكُونُ الرَّجُلُ نَحْوِيًّا عَرُوضِيًّا حَسَنَ الْكِتَابِ، جَيِّدَ

الْحِسَابِ، حَافِظًا لِلْقُرْآنِ، رَاوِيَةً لِلشُّعْرِ، وَهُوَ رَاضٍ بِأَنْ يُعَلَّمَ أَوْلَادَنَا بِسِتِّينَ دِرْهَمًا. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ حَسَنَ الْبَيَانِ، حَسَنَ التَّخْرِيجِ لِلْمَعَانِي، لَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرُ ذَلِكَ لَمْ يَرْضَ بِالْفِ دِرْهَمٍ. لِأَنَّ النَّحْوِيَّ لَيْسَ عِنْدَهُ اِمْتِنَاعٌ؛ كَالْتَجَارِ الَّذِي يُدْعَى لِيُغْلَقَ بَابًا، فَلَوْ كَانَ أَحْذَقَ النَّاسِ، ثُمَّ فَرَّغَ مِنْ تَغْلِيقِ ذَلِكَ الْبَابِ، قِيلَ لَهُ أَنْصَرِفْ، وَصَاحِبُ اِلْمْتِنَاعِ يُرَادُ فِي اَلْحَالَاتِ كُلِّهَا.

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَيْسَ يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَسْتَغْرِقَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا عِلْمَ الْأَخْبَارِ، فَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ فَالْتَّهْتُ وَالشَّدَرُ.

* * *

عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ:

كَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِلَى الْحَجَّاجِ: أَنْظِرْ لِي رَجُلًا عَالِمًا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، عَارِفًا بِأَشْعَارِ الْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا، أَسْتَأْنِسُ بِهِ وَأَصِيبُ عِنْدَهُ مَعْرِفَةً، فَوَجَّهَهُ إِلَيَّ مِنْ قَبْلِكَ. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ الشَّعْبِيَّ، وَكَانَ أَجْمَعَ أَهْلِ زَمَانِهِ.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: فَلَمْ أَلْقَ وَالْيَا وَلَا سُوقَةً إِلَّا وَهُوَ يَخْتِاجُ إِلَيَّ، وَلَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَا خَلَا عَبْدُ الْمَلِكِ، مَا أَنْشَدْتُهُ شِعْرًا، وَلَا حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا، إِلَّا وَهُوَ يَزِيدُنِي فِيهِ، وَكُنْتُ رُبَّمَا حَدَّثْتُهُ وَفِي يَدِهِ اللَّقْمَةُ فَاْمْسِكْهَا، فَأَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَسْغِ طَعَامَكَ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ مِنْ وَرَائِهِ، فَيَقُولُ: مَا تُحَدِّثُنِي بِهِ أَوْقَعُ بِقَلْبِي مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ، وَأَحْلَى مِنْ كُلِّ فَائِدَةٍ.

وَكَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْحَجَّاجِ: أَنْتَ عِنْدِي كَقَدْحِ ابْنِ مُقْبِلٍ، فَلَمْ يَذَرْ الْحَجَّاجُ مَا عَنَى، فَسَأَلَ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ - وَكَانَ رَاوِيَةً عَالِمًا - عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: قَدْ مَدَحَكَ، فَإِنَّ ابْنَ مُقْبِلٍ نَعَتْ قَدْحَهُ فَقَالَ:

مُقَدَّى مُوَدَّى بِالْيَدَيْنِ مُلَعَّنٌ خَلِيعُ قِدَاحٍ فَائِزٌ مُتَمَنِّحٌ
خُرُوجٌ مِنَ الْغُمَى إِذَا صُكَّ صَكَّةٌ بَدَا وَالْعُيُونُ الْمُسْتَكِفَّةُ تَلْمَحُ

قَالَ: فَكَانَتْ فِي نَفْسِ الْحَجَّاجِ حَتَّى وَلَاهُ خُرَاسَانَ.

* * *

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتُ فِي رَجُلٍ خَلِوٍ مِنَ الْأَدَبِ:

عَيْنًا أَلَّا تَنْتَهِي وَتَزْدَجِرُ؟
أَمْ لَسْتَ مِمَّا أَتَيْتَ تَعْتَذِرُ؟
وَأَنْتَ صُلْدٌ مَا فِيكَ مُعْتَصِرُ
وَلِلْحُسُودِ الثَّرَابُ وَالْحَجَرُ
فَإِنَّ خَيْرَ الْمَوَاعِظِ الشُّورُ
جَاءَ بِهِ عَنْ نَيْيَا أَثَرُ
مَا يَسْتَحِقُّ الْإِنَاثُ وَالذِّكْرُ
فَإِنَّ أَمْثَالَ فَارِسٍ عِبَرُ
فَإِنَّهَا عِبْرَةٌ وَمُعْتَبَرُ

يَأْيُهَا الْعَائِي وَلَمْ تَرْبِي
هَلْ لَكَ وَتَرُّ لَدَيَّ تَطْلُبُهُ
إِنْ كَانَ قَسْمُ الْإِلَهِ فَضْلَنِي
فَالْحَمْدُ وَالشُّكْرُ وَالشَّاءُ لَهُ
اقْرَأْ لَنَا سُورَةَ تُخَوِّفُنَا
أَوْ أَرِ فِقْهًا تُخَيِّ الْقُلُوبَ بِهِ
أَوْ هَاتِ مَا الْحُكْمُ فِي فَرَائِضِنَا؟
أَوْ أَرِ عَنْ فَارِسٍ لَنَا مَثَلًا
أَوْ مِنْ أَحَادِيثِ جَاهِلِيَّتِنَا
أَوْ هَاتِ كَيْفَ الْإِعْرَابُ فِي الرَّفْعِ وَالْخَفِّ

ضِ وَكَيْفَ التَّضْرِيفُ وَالصَّدْرُ؟

يُتْلَى صَحِيحٌ مِنْهُ وَمُنْكَسِرُ
عَنْهَا وَخِلَتْ أَلْعَمَى هُوَ الْبَصَرُ
عَلَيْكَ مِنْهَا لِبَهْجَةٍ أَثَرُ
وَكُلُّ مَا قَدْ جَهِلْتَ مُغْتَفَرُ
فَاذْهَبْ وَدَعْنَا حَتَّامَ تَنْتَظَرُ
عِنْدَكَ نَفْعٌ يُرْجَى وَلَا ضَرَرُ
كَمَا يَعِيشُ الْحَمِيرُ وَالْبَقَرُ

أَوْ أَرِ شِعْرًا أَوْ صِفْ لَنَا غَرَضًا
إِذَا جَهِلْتَ الْأَدَابَ مُرْتَغِيًا
وَلَمْ تُعَوِّضْ مِنْ ذَاكَ مَيْسِرَةً
فَغَنَّ صَوْتًا تُلْهِي الْفُؤَادَ بِهِ
تَعِيشُ فِينَا وَلَا تُلَاثِمُنَا
تُعْلِي عَلَيْنَا الْأَشْعَارَ أَنْتَ وَمَا
هَمْكَ فِي مَرْتَعٍ وَمُغْتَبَقِ



٢- فصل في فضيلة الكتب والكتابة للجاحظ

قال العلامة المتبحر، ذو الفنون، معلّم العقل والأدب عمرو بن بحر الجاحظ، معرّفًا العشق والكتب :

قال المبرّد^(١): سَمِعْتُ الْجَاحِظَ يَقُولُ: كُلُّ عِشْقٍ يُسَمَّى حُبًّا، وَلَيْسَ كُلُّ حُبٍّ يُسَمَّى عِشْقًا، لِأَنَّ الْعِشْقَ أَسْمٌ لِمَا فَضَّلَ عَنِ الْمَحَبَّةِ، كَمَا أَنَّ السَّرَفَ أَسْمٌ لِمَا جَاوَزَ الْجُودَ، وَالْبُخْلَ أَسْمٌ لِمَا قَصَرَ عَنِ الْإِقْتِصَادِ، وَالْجُبْنَ أَسْمٌ لِمَا فَضَّلَ عَنِ شِدَّةِ الْاخْتِرَاسِ، وَالْهَوَجَ أَسْمٌ لِمَا فَضَّلَ عَنِ الشَّجَاعَةِ.

قال عنه ثابت بن قرّة الصابئ^(٢): مما فضل الله تعالى به أمة محمد ﷺ على غيرها من الأمم: عمر بن الخطاب بسياسته، والحسن البصري بعلمه، والجاحظ ببيانه.

وعن عشقه للكتب حدّث أبو هفان^(٣) قال: «لم أرق قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط، إلا استوفى قراءته، كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين، ويبيت فيها للنظر».

(١) معجم الأدباء ١٦/٨٨.

(٢) المصدر السابق ١٦/١٠١، وشرح العيون ص ٢٤٨.

(٣) انظر تخريجه ص ٨٧.

وعن محمد بن سليمان الجوهري قال^(١): كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل، قال: فخرجنا يوماً للترهة، فبينما نحن على باب جامع البصرة، ننتظر شيئاً أردناه، إذ عارضتنا امرأة، معها أوراق مقطعة، فعرضت ذلك علينا، فلم نجد فيها طائلاً، فتركناها وانصرفنا، وتخلف معها الجاحظ، ونحن ننتظره، فأطال، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً، وأخذ الأوراق؛ وقال: انتظروني، ومضى بها إلى منزله، فلما عاد أخذنا نهزأ به، ونقول: فزت بقطعة من العلم وافرة، وضحكنا، فقال: أنتم حمقى، والله إن فيها ما لا يوجد إلا فيها، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس.

* * *

وذكر ياقوت خبر أحمد بن علي بن الأخشاد عاشق كتب الجاحظ فقال^(٢):

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَمِنْ عَجِيبِ الْحَدِيثِ فِي كُتُبِهِ مَا حَدَّثَنَا بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى النَّخَوِيُّ الشَّيْخُ الصَّالِحُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبْنَ الْأَخْشَادِ شَيْخَنَا أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ:

ذَكَرَ أَبُو عُثْمَانَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْحَيَوَانِ أَسْمَاءَ كُتُبِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالْفَهْرِسْتِ، وَمَرَّ بِي فِي جُمْلَتِهَا الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ، وَكِتَابُ دَلَائِلِ الثُّبُوتِ، وَقَدْ ذَكَرَهُمَا هَكَذَا عَلَى التَّفَرُّقَةِ، وَأَعَادَ ذِكْرَ الْفَرْقِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ لِشَيْءٍ دَعَاهُ إِلَيْهِ، فَأُحْبِيتُ أَنْ أَرَى الْكِتَابَيْنِ وَلَمْ أَقْدِرْ إِلَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَهُوَ كِتَابُ دَلَائِلِ الثُّبُوتِ، وَرُبَّمَا لُقِّبَ بِالْفَرْقِ خَطَأً، فَهَمَّنِي ذَلِكَ

(١) تقييد العلم ص ١٣٨.

(٢) معجم الأدباء ١٦/١٠١، ومقدمة الحيوان ٨/١.

وَسَاءَنِي فِي سُوءِ ظَفَرِي بِهِ، فَلَمَّا شَخَصْتُ مِنْ مِصْرَ وَدَخَلْتُ مَكَّةَ
 — حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى — حَاجًّا، أَقَمْتُ مُنَادِيًا بِعَرَفَاتٍ يُنَادِي — وَالنَّاسُ
 حُضُورٌ مِنَ الْآفَاقِ عَلَى اخْتِلَافِ بُلْدَانِهِمْ وَتَنَازُحِ أَوْطَانِهِمْ، وَتَبَايُنِ قَبَائِلِهِمْ
 وَأَجْنَاسِهِمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَمِنْ مَهَبِّ الشَّمَالِ إِلَى مَهَبِّ
 الْجَنُوبِ، وَهُوَ الْمَنْظَرُ الَّذِي لَا يُشَابِهُهُ مَنْظَرٌ — : «رَحِمَ اللَّهُ مَنْ دَلَّنَا
 عَلَى كِتَابِ الْفَرْقِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَّبَعِ لِأَبِي عُثْمَانَ الْجَاحِظِ عَلَى
 أَيِّ وَجْهِ كَانَ».

قَالَ: فَطَافَ الْمُنَادِي فِي تَرَابِيعِ عَرَفَاتٍ وَعَادَ بِالْخَبِيَّةِ وَقَالَ: حَجَبَ
 النَّاسَ مِنِّي وَلَمْ يَعْرِفُوا هَذَا الْكِتَابَ وَلَا اعْتَرَفُوا بِهِ.

قَالَ ابْنُ أَخْشَادٍ: وَإِنَّمَا أَرَدْتُ بِهَذَا أَنْ أُبْلِغَ نَفْسِي عُذْرَهَا.

قَالَ يَاقُوتُ: وَحَسْبُكَ بِهَا فَضِيلَةٌ لِأَبِي عُثْمَانَ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ ابْنِ
 الْأَخْشَادِ — وَهُوَ هُوَ فِي مَعْرِفَةِ عُلُومِ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ رَأْسٌ عَظِيمٌ مِنْ رُؤُوسِ
 الْمُعْتَزَلَةِ — يُسْتَهَامُ بِكُتُبِ الْجَاحِظِ حَتَّى يُنَادِيَ عَلَيْهَا بِعَرَفَاتٍ وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ،
 وَهَذَا الْكِتَابُ مَوْجُودٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ الْيَوْمَ لَا يَكَادُ تَخْلُو خِرَازَنَةً مِنْهُ. وَلَقَدْ
 رَأَيْتُ أَنَا مِنْهُ نَحْوَ مِائَةِ نُسْخَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

وكان موته رحمه الله سنة ٢٥٥ هـ بسقوط مجلّدات العلم عليه^(١).

وله في صدر الجزء الأول من الحيوان، نعتٌ للكتب، يقع منه الدليلُ
 على ما ملأ الله به صدرَ هذا الرَّجُلِ من إيمانٍ بما للعلم والكتاب من شرفٍ
 وجاه، وما للتفهّم والقراءة من مكانٍ عالٍ، ومنزل كريم.

* * *

(١) شذرات الذهب ٣/ ٢٣٢.

قال الجاحظ رحمه الله فيمن عاب تصنيف الكتب والكتاب^(١):

الكتاب نعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعُدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربية، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والتزيل.

والكتاب وعاءٌ مُلئٌ علماً، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفًا، وَإِنَاءٌ شَحِنَ مُزَاحًا وَجِدًّا؛ إِنْ شِئْتَ كَانَ أَبْيَنَ مِنْ سَحْبَانٍ وَائِلٍ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ أَغْيَا مِنْ بَاقِلٍ، وَإِنْ شِئْتَ ضَحِكْتَ مِنْ نَوَادِرِهِ^(٢)، وَإِنْ شِئْتَ عَجِبْتَ مِنْ غَرَائِبِ فَرَائِدِهِ، وَإِنْ

(١) الحيوان (٣٨/١ - ٤٨ - ٥٠ - ٦٢ - ٦٨ - ٧٣ - ٧٥ - ٧٩ - ٨٤ - ٩٠ - ٩٣ - ١٠٢) (بتصرف)، وورد مقطوعاً ومختصراً واختلاف في الألفاظ بتقديم وتأخير في: البيان والتبيين ١/٧٩ - ٨٠، رسائل الجاحظ ١/٣١٥ و ٢٧/٣ و ٢٩٦/٤، والمحاسن والأضداد ص ٥، ومروج الذهب ٢/٦٧، والمحاسن والمساوى ص ٦، وديوان المعاني ص ٥٣٣، والبصائر والذخائر ٥/١٤٥، والفصوص ٣/٢٩١، واللطائف والظرائف ص ٦٥، وخاص الخاص ص ٩، ولطائف اللطف ص ٧٨، والإعجاز والإيجاز ص ٧٢، والتمثيل والمحاضرة ص ١٦٠، ولطائف الظرفاء ص ١١٢، وزهر الآداب ١/١٨٣، وبهجة المجالس ١/٣٥٦، وتقييد العلم ص ١٢١، ومحاضرة الأدباء ١/١١٧، وسراج الملوك ص ٥٨٠، وربيع الأبرار ٢/٢٣٢ و ٣/٢٣٥، والتذكرة الحمدونية ٤/٧٠ و ٥/٤١٢، ومعجم الأدباء ١/٩١، ومحاضرة الأبرار ص ٧ - ٩، ونهاية الأرب ٧/١١٧، ومطالع البدور ٢/١٧٣، والكتز المدفون ص ١٢٨، والمخلاة ص ٦٠ و ١٠٠، وظراز المجالس ص ١٢١، وأنوار الربيع ٢/٣٨٦، والكشكول البحراني ١/٥، وموسوعة الكنايات ٢/٩٠، والأنس ١/٤٤٥.

وقال هلال ناجي محقق كتاب «الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه - للصفدي ص ٤٧٢»: ونشر صديقنا إبراهيم السامرائي رسالة الجاحظ في «مدح الكتب والحث على جمعها» في مجلة المجمع العراقي. وأقول أنا: لم أستطع الحصول عليها.

(٢) في تقييد العلم ص ١٢٨ رواية شبيهة: قال بعض العلماء: الكتاب تؤدبك عجايبه، =

شئتَ ألَهتكَ طرائفه، وإن شئتَ أشجّتكَ مواعظه.

وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهِ، وبِزاجِرٍ مُغْرِ، وبِناسِكٍ فَاتِكٍ، وبِناطِقٍ أَخْرَسٍ،
وبِبارِدٍ حَارٍّ.

وَمَنْ لَكَ بِطَبِيبٍ أَعْرَابِيٍّ، وَمَنْ لَكَ بِرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ، وبِفَارِسِيٍّ يُونَانِيٍّ،
وبِقَدِيمٍ مُولَّدٍ، وبِمَيِّتٍ مَمْتَعٍ، وَمَنْ لَكَ بِشَيْءٍ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ،
وَالنَّاقِصَ وَالْوَافِرَ، وَالْخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ، وَالشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ، وَالرَّفِيعَ وَالْوَضِيعَ،
وَالْغَنِّ وَالسَّمِينِ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ، وَالْجِنْسَ وَضِدَّهُ.

وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحْمَلُ فِي رُذُنٍ، وَرَوْضَةً تُقَلُّ فِي حِجْرٍ؛
وَنَاطِقاً يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى، وَيُتْرَجَمُ عَنِ الْأَحْيَاءِ^(١)!

= وتسرك طرائفه، وتضحكك ملحه ونوادره، وهو نزهة الأديب عند لذته، وممتعته
عند خلوته، وتحفته عند نشاطه، وأنسه عند انبساطه، ومستراحه من همه،
ومسلاته من غمه، وعوضه من جليس السوء، وسخف الأمانى، ومستقبح
الشهوات؛ وهو روضة مجلسه، وبستان يده، وأنيس يتقلب معه.

(١) ورد في بهجة المجالس ٣/٦١، ومحاضرات الأدباء ١/٣٣، والتذكرة
الحمدوننية ٥/٤١٣، والكشكول ص ٧٢٢ عن الأصمعي، جمعت بينها:
روى الرياشي وأبو حاتم عن الأصمعي، قال: ألا أدلك على لباس إن
لبسته كان سرياً، وإن رفعته كان بهياً، وإن دَخَرْتَهُ كان طرياً؟ قال: نعم.
قال: عليك بالتقوى.

قال: ألا أدلك على خليل إن صحبتته زانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن استعنت
به أعانك، وإن تَجَرَّتْ به أربحك، وإن تَرَحَّلْتَ به حملك؟ قال: نعم، قال: عليك
بالأدب.

ثم قال: ألا أدلك على بستان يكون في كُفْمِكَ، وروضة تكون في حِجْرِكَ، وميتٍ
يَنْطِقُ، وأخرس يتكلم، يحدثك إذا شئت، ويذكرك إذا نسيت، ويؤنسك إذا
استوحشت، ويكف عنك إذا سئمت؟ قال: نعم، قال: عليك بالكتاب.

وَمَنْ لَكَ بِمُؤْنَسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا تَهْوَى؛ أَمِنْ مِنْ
الْأَرْضِ، وَأَكْتُمُ لِلسَّرِّ مِنْ صَاحِبِ السَّرِّ، وَأَحْفَظُ لِلْوَدِيعَةِ مِنْ أَرْبَابِ الْوَدِيعَةِ،
وَأَحْفَظُ لِمَا اسْتَحْفَظَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الْمَعْرِبِينَ، بَلْ مِنْ الصَّبْيَانِ
قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْإِسْتِغَالِ، وَمِنَ الْعُمَيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَمْيِيزِ الْأَشْخَاصِ، حِينَ
الْعَنَاءِ تَامَةً لَمْ تَنْقُصْ، وَالْأَذْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تَنْقَسِمْ، وَالْإِرَادَةُ وَافِرَةٌ
لَمْ تَتَشَعَّبْ، وَالطَّيْنَةُ لَيِّنَةٌ، فَهِيَ أَقْبَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّابِعِ، وَالْقَضِيبُ رَطْبٌ، فَهُوَ
أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ، حِينَ هَذِهِ الْخِصَالُ لَمْ يَخْلُقْ جَدِيدُهَا، وَلَمْ يُوهَنْ
غَرُبُهَا، وَلَمْ تَتَفَرَّقْ قُوَاهَا؛ وَمِنْ كَلَامِهِمْ: التَّعَلُّمُ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي
الْحَجَرِ.

وقد قال ذو الرِّثْمَةِ^(١) لعيسى بن عمر: أكتب شعري؛ فالكتاب أحبُّ
إليَّ من الحفظ. لأنَّ الأعرابيَّ ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضعُ
في موضعها كلمةً في وزنها، ثمَّ يُنشدُها النَّاسَ، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبْدَلُ
كلاماً بكلام.

وعبَّتْ الْكِتَابَ، وَلَا أَعْلَمُ جَاراً أَبَرَّ^(٢)، وَلَا خَلِيطاً أَنْصَفَ، وَلَا رَفِيقاً
أَطْوَعَ، وَلَا مَعْلِماً أَخْضَعَ، وَلَا صَاحِباً أَظْهَرَ كِفَايَةً، وَلَا أَقْلَ جِنَايَةً، وَلَا أَقْلَ
إِمْلَالاً وَإِبْرَاماً، وَلَا أَحْفَلَ أَخْلَاقاً، وَلَا أَقْلَ خِلَافاً وَإِجْرَاماً، وَلَا أَقْلَ غِيْبَةً،
وَلَا أَبْعَدَ مِنْ عَضِيْهِهَ، وَلَا أَكْثَرَ أَعْجُوبَةً وَتَصَرُّفاً، وَلَا أَقْلَ تَصَلُّفاً وَتَكَلُّفاً،
وَلَا أَبْعَدَ مِنْ مِرَاءٍ، وَلَا أَتْرَكَ لَشَغْبٍ، وَلَا أَزْهَدَ فِي جِدَالٍ، وَلَا أَكْفَى عَنْ
قِتَالٍ، مِنْ كِتَابٍ.

(١) وهو في الموشح ص ٢٣٣، وتقييد العلم ص ١١٨، ونهاية الأرب ١٨/٧،
والعمدة ٩٩٠/٢، وفي حاشية المحقق ذكر طبقات ابن سلام ٤٩٢، والشعر
والشعراء ص ٤٨١.

(٢) نسبه في مطالع البدور ١٧٤/٢ لبديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨هـ.

ولا أَعْلَمُ قَرِيناً أَحْسَنَ مُوَافَاةً^(١)، ولا أَعْجَلَ مَكافأةً، ولا أَحْضَرَ مَعُونَةً، ولا أَخَفَّ مَوُونَةً، ولا شَجَرَةً أَطْوَلَ عَمراً، ولا أَجْمَعَ أَمْراً، ولا أَطْيَبَ ثَمَرَةً، ولا أَقْرَبَ مُجْتَنًى، ولا أَسْرَعَ إِدْرَاكاً، ولا أَوْجَدَ فِي كُلِّ إِثْبَانٍ، مِنْ كِتَابٍ.

ولا أَعْلَمُ نِتَاجاً فِي حَدَاثَةِ سَنَّتِهِ، وَقُرْبِ مِيلَادِهِ، وَرُخْصِ ثَمَنِهِ، وَإِمْكَانِ وُجُودِهِ، يَجْمَعُ مِنَ التَّدَابِيرِ الْعَجِيبَةِ وَالْعُلُومِ الْغَرِيبَةِ، وَمِنْ أَثَارِ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ، وَمَحْمُودِ الْأَذْهَانِ اللَّطِيفَةِ، وَمِنْ الْحَكَمِ الرَّفِيعَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الْقَوِيمَةِ، وَالتَّجَارِبِ الْحَكِيمَةِ، وَمِنْ الْإِخْبَارِ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَالْبِلَادِ الْمُتَنَازِحَةِ، وَالْأُمُثَالِ السَّائِرَةِ، وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ، مَا يَجْمَعُ لَكَ الْكِتَابُ.

قال الله عزَّ وجلَّ لَنُبَيِّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿[العلق: ٣، ٤] فَوَصَفَ نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بِأَنْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالكَرَمِ، وَاعْتَدَّ بِذَلِكَ فِي نِعْمَةِ الْعِظَامِ، وَفِي أَيَادِيهِ الْجِسَامِ. وَقَدْ قَالُوا: الْقَلَمُ أَحَدُ اللَّسَانَيْنِ، وَقَالُوا: كُلُّ مَنْ عَرَفَ النُّعْمَةَ فِي بَيَانِ اللَّسَانِ، كَانَ بِفَضْلِ النُّعْمَةِ فِي بَيَانِ الْقَلَمِ أَعْرَفَ. ثُمَّ جَعَلَ هَذَا الْأَمْرَ قِرَاءً، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي أَوَّلِ التَّنْزِيلِ وَمُسْتَفْتَحَ الْكِتَابِ.

كون الاجتماع ضرورياً:

ثُمَّ اَعْلَمْ، رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى، أَنَّ حَاجَةَ بَعْضِ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ صِفَةٍ لَازِمَةٍ فِي طِبَائِعِهِمْ، وَخِلَقَةٍ قَائِمَةٍ فِي جَوَاهِرِهِمْ، وَثَابِتَةٌ لَا تُزِيلُهُمْ، وَمُحِيطَةٌ بِجَمَاعَتِهِمْ، وَمُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَدْنَاهُمْ وَأَقْصَاهُمْ، وَحَاجَتُهُمْ إِلَى مَا غَابَ عَنْهُمْ — مِمَّا يُعِيشُهُمْ وَيُحْيِيهِمْ، وَيُمْسِكُ بِأَرْوَاقِهِمْ، وَيُصْلِحُ بِهِمْ، وَيَجْمَعُ

(١) نسبة في المصدر السابق إلى الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ.

شمَلهم، وإلى التَعَاوُنِ فِي دَرَكِ ذَلِكَ، وَالتَّوَازُرِ عَلَيْهِ — كحاجتهم إلى التَعَاوُنِ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَضُرُّهُمْ، وَالتَّوَازُرِ عَلَى مَا يَحْتَاجُونَ مِنَ الْارْتِفَاقِ بِأُمُورِهِم الَّتِي لَمْ تَغِبْ عَنْهُمْ، فَحَاجَةُ الْغَائِبِ مَوْصُولَةٌ بِحَاجَةِ الشَّاهِدِ، لِحَاجَتِهِم إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَقْصَى، وَاحْتِيَاجِ الْأَقْصَى إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَدْنَى، مَعَانٍ مُتَضَمِّنَةٌ، وَأَسْبَابٌ مُتَّصِلَةٌ، وَحِبَالٌ مُنْعَقِدَةٌ.

وَجَعَلَ حَاجَتَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، كحَاجَةٍ مِنْ كَانَ قَبْلَنَا إِلَى أَخْبَارِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، وَحَاجَةٍ مِنْ يَكُونُ بَعْدَنَا إِلَى أَخْبَارِنَا؛ وَلِذَلِكَ تَقَدَّمَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْبَشَارَاتُ بِالرُّسُلِ، وَلَمْ يَسْخَرْ لَهُمْ جَمِيعُ خَلْقِهِ، إِلَّا وَهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْارْتِفَاقِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ.

وَجَعَلَ الْحَاجَةَ حَاجَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا قِوَامٌ وَقُوتٌ، وَالْأُخْرَى لَذَّةٌ وَإِمْتِنَاعٌ وَازْدِيَادٌ فِي الْآلَةِ، وَفِي كُلِّ مَا أَجْدَلَ النُّفُوسَ، وَجَمَعَ لَهُمُ الْعِتَادَ. وَذَلِكَ الْمَقْدَارُ مِنْ جَمِيعِ الصَّنُفَيْنِ وَفَقْدُ لَكثَرَةِ حَاجَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَعَلَى قَدْرِ اتِّسَاعِ مَعْرِفَتِهِمْ وَبُعْدِ غُورِهِمْ، وَعَلَى قَدْرِ احْتِمَالِ طَبْعِ الْبَشَرِيَّةِ وَفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

ثُمَّ لَمْ يَقْطَعْ الزِّيَادَةُ إِلَّا لِعَجْزِ خَلْقِهِمْ عَنْ احْتِمَالِهَا، وَلَمْ يَجْزَ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَجْزِ، إِلَّا بَعْدَ الْأَعْيَانِ، إِذْ كَانَ الْعَجْزُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ، وَنَعْتًا مِنْ نُعُوتِ الْعَبِيدِ.

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ تَعَالَى أَحَدًا يَسْتَطِيعُ بُلُوغَ حَاجَتِهِ بِنَفْسِهِ دُونَ الْإِسْتِعَانَةِ بِبَعْضٍ مِنْ سَخَرَهُ لَهُ، فَأَدْنَاهُمْ مَسْخَرٌ لِأَقْصَاهُمْ، وَأَجْلُهُمْ مَيَسَّرٌ لِأَدْقِهِمْ، وَعَلَى ذَلِكَ أَحْوَجَ الْمُلُوكَ إِلَى الشُّوقَةِ فِي بَابٍ، وَأَحْوَجَ الشُّوقَةَ إِلَى الْمُلُوكِ فِي بَابٍ، وَكَذَلِكَ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَالْعَبْدُ وَسَيِّدُهُ.

ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ لِلْإِنْسَانِ خَوَلًا، وَفِي يَدِهِ مُذَلَّلًا مُيَسَّرًا، إِمَّا بِالْإِحْتِيَالِ لَهُ وَالتَّلَطُّفِ فِي إِرَاقَتِهِ وَاسْتِمَالَتِهِ، وَإِمَّا بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ، وَالْفَتْكِ بِهِ،

وَمَا أَنْ يَأْتِيَهُ سَهْوًا وَرَهْوًا. عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْلَا حَاجَتُهُ إِلَيْهَا، لَمَا احْتَالَ لَهَا، وَلَا صَالَ عَلَيْهَا، إِلَّا أَنْ الْحَاجَةَ تَفْتَرِقَ فِي الْجِنْسِ وَالْجِهَةِ وَالْجِبِلَّةِ، وَفِي الْحِظِّ وَالتَّقْدِيرِ.

ثُمَّ تَعَبَّدَ الْإِنْسَانَ بِالتَّفَكُّرِ فِيهَا، وَالنَّظَرَ فِي أُمُورِهَا، وَالاعْتِبَارَ بِمَا يَرَى، وَوَصَلَ بَيْنَ عُقُولِهِمْ وَبَيَّنَ مَعْرِفَةَ تِلْكَ الْحُكْمِ الشَّرِيفَةِ، وَتِلْكَ الْحَاجَاتِ اللَّازِمَةِ، بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَبِالتَّنْقِيبِ وَالتَّنْقِيرِ، وَالتَّثَبُّتِ وَالتَّوَقُّفِ؛ وَوَصَلَ مَعَارِفَهُمْ بِمَوَاقِعِ حَاجَاتِهِمْ إِلَيْهَا، وَتَشَاعُرِهِمْ بِمَوَاضِعِ الْحُكْمِ فِيهَا بِالْبَيَانِ عَنْهَا.

البيان ضروري للاجتماع:

وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرفاً لمواضع سدِّ الخلَّة ورفع الشبهة، ومداواة الحيرة، ولأنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَنِ النَّاسِ أَفْهَمُ مِنْهُمْ عَنِ الْأَشْبَاحِ الْمَائِلَةِ، وَالْأَجْسَامِ الْجَامِدَةِ، وَالْأَجْرَامِ السَّاكِنَةِ، الَّتِي لَا يُتَعَرَّفُ مَا فِيهَا مِنْ دَقَائِقِ الْحِكْمَةِ وَكُنُوزِ الْآدَابِ، وَيَنَابِيعِ الْعِلْمِ، إِلَّا بِالْعَقْلِ الثَّاقِبِ اللَّطِيفِ، وَبِالنَّظَرِ التَّامِّ النَّافِذِ، وَبِالْأَدَاةِ الْكَامِلَةِ، وَبِالْأَسْبَابِ الْوَافِرَةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى مَكْرُوهِ الْفِكْرِ، وَالِاحْتِرَاسِ مِنْ وُجُوهِ الْخُدَعِ، وَالتَّحَفُّظِ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى؛ وَلِأَنَّ الشُّكْلَ أَفْهَمُ عَنْ شِكْلِهِ، وَأَسْكَنُ إِلَيْهِ وَأَصَبُّ بِهِ، وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي أَجْنَاسِ الْبِهَائِمِ، وَضُرُوبِ السَّبَاعِ.

وَالصَّبِيُّ عَنِ الصَّبِيِّ أَفْهَمُ لَهُ، وَلَهُ آفٌ وَإِلَيْهِ أَنْزَعُ، وَكَذَلِكَ الْعَالِمُ وَالْعَالَمِ، وَالْجَاهِلُ وَالْجَاهِلِ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ عَنِ الْإِنْسَانِ أَفْهَمُ، وَطَبَاعَهُ بِطَبَاعِهِ أَنَسُ؛ وَعَلَى قَدْرِ ذَلِكَ يَكُونُ مَوْقِعُ مَا يَسْمَعُ مِنْهُ.

ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لَهُمْ مِنَ الْبَيَانِ بِصِنْفٍ وَاحِدٍ، بَلْ جَمَعَ ذَلِكَ وَلَمْ يَفَرِّقْ، وَكَثَّرَ وَلَمْ يَقْلِلْ، وَأَظْهَرَ وَلَمْ يُخْفِ، وَجَعَلَ آلَةَ الْبَيَانِ الَّتِي بِهَا يَتَعَارَفُونَ

معانيهم، والترْجُمانَ الذي إليه يرجعون عند اختلافهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلَةٍ خامسة^(١)؛ وإن نقصت في بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تَبَدَّلَ بجنسها الذي وُضِعَتْ له وصُرِفَتْ إليه.

وهذه الخصال هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد؛ والخصلة الخامسة ما أوجَدَ من صَحَّةِ الدَّلَالَةِ، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأَجْرَامِ الجامدة والصامته، والساكنة التي لا تَتَبَيَّنُ ولا تحسُّ، ولا تفهم ولا تتحرَّك إلا بداخلٍ يدخل عليها، أو عند مُمسِكٍ خلِّي عنها، بعد أن كان تقييده لها.

ثم قَسَمَ الأقسام ورتَّبَ المحسوسات، وحصَّلَ الموجودات، فجعل اللفظَ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظرَ واللامس في معرفة العقد. إلا بما فضَّلَ الله به نصيبَ الناظرِ في ذلك على قدرِ نصيبِ اللامس. وجَعَلَ الخطَّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه، ممَّا قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامِّ والذائق نصيباً.

خطوط الهند:

ولولا خطوطُ الهندِ لضاع من الحساب الكثيرُ والبسيط، ولبطلت مَعْرِفَةُ التضاعيف، ولعَدِمُوا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات، ولو أدركوا ذلك لما أذركوه إلا بعد أن تغلَّظَ المؤونة، وتتنقَّضَ المُنَّة، ولصاروا في حالٍ مَعْجَزَةٍ وحسور، وإلى حالٍ مَضِيعَةٍ وكَلالٍ حدٍّ، مع التشاغلِ بأمورٍ لولا فقدُ هذه الدَّلَالَةِ لكان أربحَ لهم، وأردَّ عليهم، أن يُصرفَ ذلك الشغل في أبوابِ منافع الدين والدنيا.

(١) البيان والتبيين ٧٦/١، وهو من كلام الشافعي في تاريخ دمشق ٣٥٦/٥١، وسير أعلام النبلاء ٥٢/١٠.

نفع الحساب :

ونفع الحساب معلوم، والخَلَّةُ في موضع فقده معروفة. قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، ثم قال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾ [الرحمن: ٥]، وبالْبَيَانَ عَرَفَ النَّاسُ الْقُرْآنَ.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ ۝﴾ [يونس: ٥]، فأجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن. وبحُسْبَانٍ منازل القمر، عرفنا حالات المدِّ والجزر، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار.

فضل الكتابة :

ولولا الكتبُ المدوَّنة والأخبار المخلَّدة، والحكم المخطوطة التي تُحصَّن الحساب وغير الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر^(١)، ولَمَّا كان للناس مفرغٌ إلى موضع استذكار، ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنَا أكثر النفع؛ إذ كُنَّا قد علمْنَا أَنَّ مقدار حفظ الناس لعوَّاجل حاجاتهم وأوائلها، لا يبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ولا يُغني فيه غناء محموداً.

ولو كُلِّفَ عامَّةٌ مَنْ يطلب العلمَ ويصطنع الكتب، ألا يزال حافظاً لفهرست كتبه لأعجزه ذلك، ولكُلِّفَ شططاً، ولشغله ذلك عن كثير ممَّا هو أولى به. وفهمك لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت

(١) في الفهرست ص ٣٧ رواية شبيهة: قال مهنود: لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين، لانحل مع النسيان عقود الآخرين.

مَجْرَدًا، وَأَبْعَدُ فَهَمِكِ لَصَوْتِ صَاحِبِكَ وَمُعَامِلِكَ وَالْمَعَاوِنِ لَكَ، مَا كَانَ صَيَاحًا صَرَفًا، وَصَوْتًا مَصْمَتًا وَنِدَاءً خَالصًا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ الْمِفَاهِمَةِ، وَعُطِّلٌ مِنَ الدَّلَالَةِ. فَجَعَلَ اللَّفْظُ لِأَقْرَبِ الْحَاجَاتِ، وَالصَّوْتُ لِأَنْفَسَ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلًا، وَالكِتَابُ لِلنَّازِحِ مِنَ الْحَاجَاتِ.

فَأَمَّا الْإِشَارَةُ فَأَقْرَبُ الْمَفْهُومِ مِنْهَا: رَفَعُ الْحَوَاجِبِ، وَكَسْرُ الْأَجْفَانِ، وَلِيُّ الشَّفَاهِ، وَتَحْرِيكُ الْأَعْنَاقِ، وَقَبْضُ جِلْدَةِ الْوَجْهِ؛ وَأَبْعَدُهَا أَنْ تَلْوِي بِثَوْبٍ عَلَى مَقْطَعِ جَبَلٍ، تُجَاةَ عَيْنِ النَّازِرِ، ثُمَّ يَنْقَطِعُ عَمَلُهَا وَيَدْرُسُ أَثَرُهَا، وَيَمُوتُ ذِكْرُهَا، وَيَصِيرُ بَعْدُ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلًا عَنْ انْتِهَاءِ مَدَى الصَّوْتِ وَمُنْتَهَى الطَّرْفِ إِلَى الْحَاجَةِ وَإِلَى التَّفَاهُمِ بِالْخُطُوطِ وَالْكَتَبِ. فَأَيُّ نَفْعٍ أَعْظَمُ، وَأَيُّ مِرْفَقٍ أَعْوَنُ مِنَ الْخَطِّ، وَالْحَالُ فِيهِ كَمَا ذَكَرْنَا!! وَلَيْسَ لِلْعَقْدِ حَظٌّ الْإِشَارَةِ فِي بُعْدِ الْغَايَةِ.

فضل القلم:

فلذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع، ونوّه بذكره في المنصب الشريف حين قال: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ كَمَا أَقْسَمَ بِمَا يُخَطُّ بِالْقَلَمِ، إِذْ كَانَ اللِّسَانُ لَا يَتَعَاطَى شَأْوَهُ، وَلَا يَشُقُّ غِبَارَهُ، وَلَا يَجْرِي فِي حَلْبَتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّفُ بَعْدَ غَايَتِهِ.

لَكِنْ لَمَّا أَنَّ كَانَتْ حَاجَاتُ النَّاسِ بِالْحَضْرَةِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَاتِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَمَاكِنِ، وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِ اللِّسَانِ حَاجَةً دَائِمَةً وَآكِدَةً، وَرَاهِنَةً ثَابِتَةً، وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِ الْقَلَمِ أَمْرًا يَكُونُ فِي الْغَيْبَةِ وَعِنْدَ النَّائِبَةِ، إِلَّا مَا خُصَّتْ بِهِ الدَّوَاوِينُ، فَإِنَّ لِسَانَ الْقَلَمِ هُنَاكَ أَبْسَطُ، وَأَثَرُهُ أَعْمُ، فَلِذَلِكَ قَدَّمُوا اللِّسَانَ عَلَى الْقَلَمِ: فَاللسان الآن إنما هو في منافع اليد والمرافق التي فيها، والحاجات التي تبلّغها.

فضل الكتاب :

والكتاب هو الذي يُوَدِّي إلى الناس كتبَ الدِّين، وحسابَ الدواوين .
مع خَفَّةِ نَقْلِهِ، وصَغَرِ حَجْمِهِ؛ صَامَتْ ما أَسْكَنَتْهُ، وبلغَ ما اسْتَطَقَتْهُ . وَمَنْ^(١)
لَكَ بِمَسَامَرٍ لَا يَيْتَدِيكَ فِي حَالِ شُغْلِكَ، وَيَدْعُوكَ فِي أَوْقَاتِ نَشَاطِكَ،
وَلَا يُخَوِّجُكَ إِلَى التَّجَمُّلِ لَهُ وَالتَّذَمُّمِ مِنْهُ . وَمَنْ لَكَ بِزَائِرٍ إِنْ شِئْتَ جَعَلَ
زِيَارَتَهُ غِبَاءً، وَوَرُودَهُ خِمْسًا، وَإِنْ شِئْتَ لَزِمَكَ لَزُومَ ظِلِّكَ، وَكَانَ مِنْكَ مَكَانَ
بَعْضِكَ .

وَالْقَلَمُ مَكْتَفٍ بِنَفْسِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ؛ وَلَا بَدَّ لِبَيَانِ اللِّسَانِ
مِنْ أُمُورٍ: مِنْهَا إِشَارَةُ الْيَدِ، وَلَوْلَا الْإِشَارَةُ لَمَّا فَهَمُوا عَنْكَ خَاصَّ الْخَاصِّ إِذَا
كَانَ أَحْصَى الْخَاصَّ قَدْ يَدْخُلُ فِي بَابِ الْعَامِّ، إِلَّا أَنَّهُ أَدْنَى طَبَقَاتِهِ، وَلَيْسَ
يَكْتَفِي خَاصُّ الْخَاصِّ بِاللَّفْظِ عَمَّا أَذَاهُ، كَمَا اكْتَفَى عَامُّ الْعَامِّ وَالطَّبَقَاتُ الَّتِي
بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحْصَى الْخَاصِّ .

وَالْكِتَابُ هُوَ الْجَلِيسُ الَّذِي لَا يُطْرِكُ^(٢)، وَالصَّدِيقُ الَّذِي لَا يَغْرِيكَ،
وَالرَّفِيقُ الَّذِي لَا يَمْلُكَ، وَالْمُسْتَمِيعُ الَّذِي لَا يَسْتَرِيثُكَ، وَالْجَارُ الَّذِي

(١) فِي الْفَهْرَسْتِ ص ٣٨، وَنَقَلَ عَنْهُ طَرَاذُ الْمَجَالِسِ ص ٢٦٥ قَالَ: قَالَ أَحْمَدُ بْنُ
إِسْمَاعِيلَ الْمَعْرُوفِ بِنَطَاحَةَ: هُوَ الْمَسَامَرُ الَّذِي لَا يَيْتَدُنْكَ فِي حَالِ شُغْلِكَ،
وَلَا يَدْعُوكَ فِي وَقْتِ نَشَاطِكَ، وَلَا يَخَوِّجُكَ إِلَى التَّجَمُّلِ لَهُ، وَالْكِتَابُ هُوَ الْجَلِيسُ
الَّذِي لَا يَطْرِكُ، وَالصَّدِيقُ الَّذِي لَا يَغْرِيكَ، وَالرَّفِيقُ الَّذِي لَا يَمْلُكَ، وَالنَّاصِحُ
الَّذِي لَا يَسْتَزِيدُكَ .

(٢) فِي الْفَخْرِيِّ ص ٦ رَوَايَةٌ، قَالَ: قَالُوا: إِنَّ الْكِتَابَ هُوَ الْجَلِيسُ الَّذِي لَا يُنَافِقُ،
وَلَا يَمْلُ، وَلَا يُعَاتِبُكَ إِذَا جَفَوْتَهُ، وَلَا يُفْشِي سِرَّكَ .

وَفِي الْمَصَادِرِ الْحَدِيثَةِ جَعَلْتَهُ مِنْ قَوْلِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ الطَّقِطَقِيِّ . مَعْجَمُ حِكْمَةِ
الْعَرَبِ ص ٣٣٩، وَكُنُوزُ الْحِكْمَةِ ص ٥٤٩، وَمَوْسُوعَةُ رَوَائِعِ الْحِكْمَةِ ص ٥١١،
وَقَامُوسُ الْحَكَمِ ص ٥٠٩ .

لا يَسْتَبْطِئُكَ، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندَكَ بالملق،
ولا يعامِلُكَ بالَمَكْرِ، ولا يخذَعُكَ بالثَّفَاقِ، ولا يحتالُ لك بالكَذِبِ.

والكتابُ هو الذي إن نظرتَ فيه أطلتَ إمتاعَكَ، وشحذَ طباعَكَ،
وبسطَ لسانَكَ، وجوّدَ بَنانَكَ، وفخّمَ ألفاظَكَ، وبجّجَ نفسَكَ، وعَمَّرَ
صدرَكَ، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصدّاقةَ الملوكِ، وعَرَفْتَ به في شهر ما
لا تعرفُهُ من أفواه الرجالِ في دهرٍ، مع السلامةِ من الغُرمِ، ومن كدِّ الطلبِ،
ومن الوقوفِ ببابِ المكتسبِ بالتعليمِ، ومن الجلوسِ بين يدي مَنْ أنتَ
أفضلُ منه خُلُقاً، وأكرمُ منه عِرْقاً، ومع السلامةِ من مجالسةِ البُغضاءِ ومقارنةِ
الأغبياءِ.

والكتابُ هو الذي يُطِيعُكَ بالليلِ كطاعتهِ بالنهارِ، ويطيعُكَ في السفرِ
كطاعتهِ في الحضرِ، ولا يعتلُّ بنومٍ، ولا يعتريه كلالُ السهرِ. وهو المعلمُ
الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْكَ، وإن قطعتَ عنه المادّةَ لم يقطعَ عنكَ
الفائدةَ، وإن عُزِلَتْ لم يدعْ طاعتَكَ، وإن هبَّتْ ريحُ أعاديكِ لم ينقلبِ
عليك^(١)، ومتى كنتَ منه متعلّقاً بسببٍ أو معتصماً بأذنى حبلٍ، كان لك فيه
غنى من غيره، ولم تَضْطَرَّكَ معه وحشةُ الوحدةِ إلى جليسِ السوءِ.

ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلّا منعه لك من
الجلوسِ على بابك، والنظرِ إلى المارّةِ بك، مع ما في ذلك من التعرّضِ
للحقوقِ التي تلزَمُ، ومن فضولِ النظرِ، ومن عادةِ الخوضِ فيما لا يعينكَ،
ومن ملابسَةِ صغارِ الناسِ، وحضورِ ألفاظهم الساقطةِ، ومعانيهم الفاسدةِ،
وأخلاقهم الرديّةِ، وجّهالاتهم المذمومةِ، لكان في ذلك السلامة، ثم
الغنيمةُ، وإحرازُ الأصلِ، مع استفادةِ الفرعِ.

(١) زاد في اللطائف والظرائف ص ٦٥: «وإن قلَّ مالك لم يترك زيارتك».

ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلُّك عن سُخْفِ المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلُّ ما أشبه اللعب، لقد كان على صاحبه أسْبَغِ النعمة وأعْظَمِ المِنَّة^(١).

وقد علمنا أن أفضل ما يقطع به الفراغ نهارهم، وأصحاب الفُكاهات ساعات ليْلهم، الكتاب. وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثر في ازدياد تجربة ولا عقل ولا مروءة، ولا في صون عرض، ولا في إصلاح دين، ولا في تمييز مال، ولا في ربِّ صنعة، ولا في ابتداء إنعام.

أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب:

وقال أبو عبيدة: قال المهلب لبنيه في وصيته: يا بني لا تقوموا في الأسواق إلا على زرادٍ أو وراق^(٢).

وحَدَّثني صديق لي قال: قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتاباً فيه من مآثر غطفان فقال: ذهب المكارم إلا من الكتب^(٣).

(١) في ربيع الأبرار ٣/ ٢٣٥ زيادة، قال: ولعهدي بي وقد خرجت من الدار، وذلك في عصر الشيعة، فلقيني أعرابي كانت به لومة، فشغلني ببعض الحديث، وقد حانت من بعض شيوخه حاجة إلى حضوري فلم أصادف، فلما حضرته سألني عن سبب لبثي، ثم قال: العجب ممن يؤثر على مجالسات هؤلاء - وعدد جماعة من كبار المصنفين - مجالسة مجنون. وصحيح ما قال؛ فإن مطالعة كتبهم هي مجالستهم على الحقيقة.

(٢) ورد في الفخري ص ٦، والعقد الفريد ٢/ ٢١٠، و ٤/ ١٩٩، ونظمه بعضهم في تقييد العلم ص ١٢٥، وخطط المقرئ ٢/ ٤٧٣.

مجالسة السوق مذمومة وفيها مجالس قد تستحب
فلا تقصدن غير سوق الدواب وسوق السلاح وسوق الكتب
فتلك مجالس أهل الهوى وهذي مجالس أهل الأدب

(٣) المحاسن والأضداد ص ٦، والمحاسن والمساوي ص ١١، واللطائف =

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: غَبَرْتُ أربعين عاماً ما قِلْتُ ولا بَثْتُ ولا اتكأتُ إلاَّ والكتابُ موضوعٌ على صدري^(١).

وقال علي بن الجهم^(٢): إذا غَشِيَنِي النعاسُ في غير وقتِ نومٍ - وبُئِسَ الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة - قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتاباً من كتب الحِكم، فأجدُ اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانه وعزِّ التبيين أشدَّ إيقاظاً من نهيق الحمير وهَدَّة الهدم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدته، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ ذلك فيه - فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقي من ورقه مخافةً استنفاده، وانقطاعِ المادَّة من قبْلِهِ، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثيرَ الورق، كثيرَ العدد - فقد تَمَّ عيشي وكَمُلَ سروري.

وذكر العتبي^(٣) كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طوله وكثرة ورقه لنسخته. فقال ابن الجهم: لكنِّي ما رَغَبَني فيه إلاَّ الذي زهَّدك فيه؛ وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً فأخلاني من فائدة، وما أَحْصِي كم قرأتُ من صغار الكتب فخرجتُ منها كما دخلت.

وقال العتبي ذاتَ يومٍ لابن الجهم: ألا تتعجَّبُ من فلانٍ!! نظر في

= والظرائف ص ٦٦، وربع الأبرار ٦٨٠/٣، والغيث المسجم ١٢/١، وقطر الغيث ص ٦.

(١) اللطائف والظرائف ص ٦٦، وجامع بيان العلم ص ٥٨٣، ومطالع البدور ١٧٤/٢، وكنوز الحكمة ص ٤٦٠، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٩.

(٢) المحاسن والأضداد ص ٥، والمحاسن والمساوي ص ١٤، وموسوعة الكنايات ٩١/٢.

(٣) وهو محمد بن عبد الله، وورد في المحاسن والمساوي ص ١٤.

كتاب الإقليدس مع جارية سَلْمَوِيه في يوم واحد، وساعة واحدة، فقد فرغت الجارية من الكتاب، وهو بعد لم يُحكَمْ مقالة واحدة، على أنه حرٌّ مخيرٌ، وتلك أمة مقصورة، وهو أحرص على قراءة الكتاب من سَلْمَوِيه على تعليم جارية.

قال ابن الجهم: قد كنت أظنُّ أنه لم يفهم منه شكلاً واحداً، وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة!!

قال العتبي: وكيف ظننت به هذا الظنَّ، وهو رجل ذو لسانٍ وأدب؟ قال: لأنني سمعته يقول لابنه: كم أنفقت على كتابٍ كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، قال: إنَّما رَغَبْتَنِي في العلم أني ظننتُ أني أنفق عليه قليلاً وأكتسب كثيراً، فأما إذ صرتُ أنفق الكثير، وليس في يدي إلا المواعيدُ، فإنني لا أريد العلم بشيء!!

السماع والكتابة:

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبه أكثر من سَمَاعِهِ. ولا يعلم، ولا يجمع العلم، ولا يُخْتَلَف إليه، حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه. ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذَّ عنده من إنفاق عُشَّاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيّاً. وليس يَنْتَفِع بإنفاقه، حتَّى يؤثر اتِّخَاذُ الكتب إثارة الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتَّى يؤمِّل في العلم ما يؤمِّل الأعرابي في فرسه.

حرص الزنادقة على تحسين كتبهم:

وقال إبراهيم بن السديّ مرة: ودِدْتُ أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيّ الأبيض، وعلى تخيير الحبر الأسود المشرق

البَرَّاق، وعلى استجادة الخطِّ والإرغاب لمن يخطُّ، فإنِّي لم أرَ كورق كتبهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطأ، وإذا غرِمتُ مالاً عظيماً — مع حبي للمال وبُغضِ الغُرم — كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب دليلاً على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامة من سُكر الآفات.

قلت لإبراهيم: إِنَّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البيع، ولو كانت كتبُ الزنادقةِ كتبَ حكم وكتبَ فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُننٍ وتبيينٍ وتبيين، أو لو كانت كتبهم كتباً تُعرِّف الناسَ أبوابَ الصِّناعات، أو سُبلَ التَّكسُّب والتَّجارات، أو كتبَ ارتفاقاتِ رياضاتٍ، أو بعض ما يتعاطاه الناسُ من الفطن والآداب — وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يُبعد من مأثم — لكانوا ممَّن قد يجوز أن يُظنَّ بهم تعظيمُ البيان، والرغبةُ في التَّبيين، ولكنَّهم ذهبوا فيها مذهبَ الدَّيَّانة، وعلى طريقِ تعظيمِ المِلَّة، فإنَّما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاقِ النصارى على صُلبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سَدَنَةِ البِدَدَةِ.

ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرَضاً، وكتبُ الحكمة لهم مبدولةً، والطرقُ إليها سهلةٌ معروفة، فما بالُهم لا يصنعون ذلك إلاَّ بكتبِ دياناتهم، كما يزخرفُ النصارى بيوتَ عباداتهم! ولو كان هذا المعنى مستحسنًا عند المسلمين، أو كانوا يرون أنَّ ذلك داعيةٌ إلى العبادة، وباعثةٌ على الخُشوع، لبلَّغوا في ذلك بعقوهم، ما لا تبلَّغه النصارى بغاية الجَهد.

مسجد دمشق:

وقد رأيتُ مسجدَ دِمَشق، حين استجاز هذا السَّيْلُ مَلِكٌ من ملوكها، ومَنْ رآه فقد علم أنَّ أحداً لا يرومه، وأنَّ الرُّومَ لا تسخوا أنفسهم به، فلمَّا قام عمرُ بنُ عبد العزيز، جَلَّله بالجلال، وغطَّاه بالكرايس، وطبَّخَ سلاسلَ القناديل حتَّى ذهب عنها ذلك التَّلألؤُ والبريق؛ وذهب إلى أنَّ ذلك الصنِيعُ

مجانِبُ لِسَنَةِ الإِسْلَامِ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْحُسْنَ الرَّائِعَ وَالْمَحَاسِنَ الدَّقَاقَ، مَذْهَلَةٌ
لِلْقُلُوبِ، وَمَشْغَلَةٌ دُونَ الْخُشُوعِ، وَأَنَّ الْبَالَ لَا يَكُونُ مَجْتَمِعاً وَهَنَاكَ شَيْءٌ
يُفَرِّقُهُ وَيَعْتَزُّضُ عَلَيْهِ .

صفة كتب الزنادقة :

والذي يدلُّ على ما قلنا، أَنَّهُ لَيْسَ فِي كُتُبِهِمْ مِثْلُ سَائِرِ، وَلَا خَيْرٌ
طَرِيفٍ، وَلَا صِنْعَةُ أَدَبٍ، وَلَا حِكْمَةٌ غَرِيبَةٍ، وَلَا فِلَسْفَةٌ، وَلَا مَسْأَلَةٌ كَلَامِيَّةٌ،
وَلَا تَعْرِيفُ صِنَاعَةٍ، وَلَا اسْتِخْرَاجُ آلَةٍ، وَلَا تَعْلِيمُ فِلَاحَةٍ، وَلَا تَدْبِيرُ حَرْبٍ،
وَلَا مِقَارَعَةٌ عَنْ دِينٍ، وَلَا مَنَاضِلَةٌ عَنْ نِخْلَةٍ، وَجُلُّ مَا فِيهَا ذِكْرُ النُّورِ
وَالظُّلْمَةِ، وَتَنَاقُحُ الشَّيَاطِينِ، وَتَسَافُدُ الْعِفَارِيَّتِ، وَذَكَرَ الصَّنْدِيدَ، وَالتَّهْوِيلَ
بِعُمُودِ السَّنَخِ، وَالإِخْبَارَ عَنْ شَقْلُونٍ، وَعَنْ الْهَامَةِ وَالْهَمَامَةِ، وَكُلَّهُ هَذَرٌ وَعِيٌّ
وُخْرَافَةٌ، وَسُخْرِيَّةٌ وَتَكْذُوبٌ، لَا تَرَى فِيهِ مَوْعِظَةً حَسَنَةً، وَلَا حَدِيثاً مُؤْنَقاً،
وَلَا تَدْبِيرَ مَعَاشٍ، وَلَا سِيَاسَةَ عَامَةٍ، وَلَا تَرْتِيبَ خَاصَّةٍ .

فَأَيُّ كِتَابٍ أَجْهَلُ، وَأَيُّ تَدْبِيرٍ أَفْسَدُ مِنْ كِتَابٍ يُوجِبُ عَلَى النَّاسِ
الإِطَاعَةَ، وَالبُخُوعَ بِالْذِيانَةِ، لَا عَلَى جِهَةِ الاسْتَبْصَارِ وَالْمَحَبَّةِ، وَلَيْسَ فِيهِ
صَلَاحٌ مَعَاشٍ وَلَا تَصْحِيحُ دِينٍ!؟

وَالنَّاسُ لَا يَحْبُونُ إِلَّا دِيناً أَوْ دُنْيَا: فَأَمَّا الدُّنْيَا فإِقَامَةُ سُوقِهَا وَإِحْضَارُ
نَفْعِهَا، وَأَمَّا الدِّينُ فَأَقْلُ مَا يُطْمَعُ فِي اسْتِجَابَةِ الْعَامَةِ، وَاسْتِمَالَةِ الْخَاصَّةِ، أَنْ
يَصُورَ فِي صُورَةٍ مَغْلُطَةٍ، وَيَمُوءَ تَمْوِيَةَ الدِّينَارِ الْبُهْرَجِ، وَالدَّرْهَمِ الزَّائِفِ الَّذِي
لَا يَغْلُطُ فِيهِ الْكَثِيرُ، وَيَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْقَلِيلِ. فَلَيْسَ إِنْفَاقُهُمْ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ
ظَنَنْتَ. وَكُلُّ دِينٍ يَكُونُ أَظْهَرَ اخْتِلَافاً وَأَكْثَرَ فُسَاداً، يَحْتَاجُ مِنَ التَّرْقِيعِ
وَالْتَمْوِيَةِ، وَمِنَ الْإِحْتِشَادِ لَهُ وَالتَّغْلِيظِ فِيهِ إِلَى أَكْثَرِ. وَقَدْ عَلَّمْنَا أَنَّ النُّصْرَانِيَّةَ
أَشَدُّ انْتِشَاراً مِنَ الْيَهُودِيَّةِ تَعَبُّدًا، فَعَلَى حَسَبِ ذَلِكَ يَكُونُ تَرْيُدُهُمْ فِي تَوْكِيدِهِ،
وَإِحْتِفَالُهُمْ فِي إِظْهَارِ تَعْلِيمِهِ .

فضل التعلم:

وقال بعضهم: كنتُ عند بعضِ العلماء، فكنْتُ أكتبُ عنه بعضاً وأدعُ بعضاً، فقال لي: اكتبْ كلَّ ما تسمعُ، فإنَّ أحسَّ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيض.

وقال الخليل بن أحمد^(١): تكثرُ من العلم لتعرف، وتقلُّل منه لتحفظ.

وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للمصدر. وأنشد قول محمد بن يسير الرياشي^(٢):

أحفظ من ذاك ما أجمع	أما لو أعني كلَّ ما أسمع
تُ لقيْل هو العالمُ المَقْنَع	ولم أستفدْ غير ما قد جمع
من العلم تسمعه تُزِعْ	ولكنْ نفسي إلى كلِّ نوع
ولا أنا من جمعه أشبع	فلا أنا أحفظ ما قد جمعتُ
وعلمي في الكتبِ مستودع	وأحضر بالعِي في مجلس
يكن دهره القهقري يَرْجع	فمن يك في علمه هكذا
تَ وعلمك في الكتبِ مستودع	«يَضيعُ من المال ما قد جمع
فجمعك للكتب ما يَنْفَعُ	إذا لم تكن حافظاً واعياً

(١) البيان والتبيين ١/٢٥٨، وجامع بيان العلم ص ٢٠٦.

(٢) الأبيات كلّها في المحاسن والأضداد ص ٢٢٥، وعزاها للأصمعي وهو غريب، وهي للشاعر في روضة العقلاء ص ٣٥٤، والمحدث الفاضل ص ٣٨٧، والحث على طلب العلم ص ٧٢، وتحسين القبيح ص ٨٣، وجامع بيان العلم ص ١١٥، والجامع في الحث على طلب العلم ص ٦٢، والجامع لأخلاق الراوي ٢/٣٧٦، وسمط اللآلئ ١/٥١٤، ومحاضرات الأدباء ١/١١٨، وأنوار الربيع ١/١٠. ودون نسبة في المحاسن والمساوي ص ١٥، ومحاضرة الأبرار ١/١٠، وعرف البشام ص ١٥، وانفرد بزيادة البيت السابع: المحاسن والأضداد، ومحاضرة الأبرار.

التخصص بضروب من العلم :

وقال أبو إسحاق^(١) : كَلَّفَ ابْنُ يَسِيرِ الْكَتَبَ مَا لَيْسَ عَلَيْهَا . إِنْ الْكَتَبَ لَا تَحْيِي الْمَوْتَى ، وَلَا تَحَوِّلَ الْأَحْمَقَ عَاقِلًا ، وَلَا الْبَلِيدَ ذَكِيًّا ، وَلَكِنَّ الطَّبِيعَةَ إِذَا كَانَ فِيهَا أَدْنَى قَبُولٍ ، فَالْكَتَبُ تَشْحَدُ وَتَفْتَقُ ، وَتُرْهِفُ وَتَشْفِي .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَيَنْبَغِي لِأَهْلِهِ أَنْ يَدَاوُوهُ ! فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا تَصَوَّرَ لَهُ بِشَيْءٍ اعْتَرَاه !!

فَمَنْ كَانَ ذَكِيًّا حَافِظًا فَلْيَقْصِدْ إِلَى شَيْئَيْنِ ، وَإِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ ، وَلَا يَنْزِعْ عَنِ الدَّرْسِ وَالْمُطَارَحَةِ ، وَلَا يَدْعُ أَنْ يَمُرَّ عَلَى سَمْعِهِ وَعَلَى بَصَرِهِ وَعَلَى ذَهْنِهِ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ ، فَيَكُونُ عَالِمًا بِخَوَاصِّ ، وَيَكُونُ غَيْرَ غَفْلٍ مِنْ سَائِرٍ مَا يَجْرِي فِيهِ النَّاسُ وَيَخُوضُونَ فِيهِ .

وَمَنْ كَانَ مَعَ الدَّرْسِ لَا يَحْفَظُ شَيْئًا إِلَّا نَسِيَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ ، فَهُوَ مِنَ الْحَفِظِ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ أَبْعَدُ .

جمع الكتب :

وَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ يَحْيَى قَالَ : مَا كَانَ فِي خِزَانَةِ كِتَابٍ يَحْيَى ، وَفِي بَيْتِ مَدْرَاسِهِ كِتَابٌ إِلَّا وَلَهُ ثَلَاثُ نَسَخٍ .

وقال أبو عمرو بن العلاء^(٢) : مَا دَخَلْتُ عَلَى رَجُلٍ قَطُّ وَلَا مَرَرْتُ بِبَابِهِ ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ فِي دَفْتَرٍ وَجَلِيسُهُ فَارَغُ الْيَدِ ، إِلَّا اعْتَقَدْتُ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَعْقَلُ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : قِيلَ لَنَا يَوْمًا : إِنَّ فِي دَارِ فُلَانٍ نَاسًا قَدْ

(١) هو إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام ، وورد قوله في الحث على طلب العلم ص ٧٢ .

(٢) جامع بيان العلم ص ٥٨٣ ، ومحاضرات الأدباء ١ / ١١٨ .

اجتمعوا على سَوءة، وهم جُلوسٌ على خميرة لهم، وعندهم طُبُورٌ.
فتسَوَّرونا عليهم في جماعةٍ من رجالِ الحيِّ، فإذا فتى جالسٌ في وسط الدار،
وأصحابه حوله، وإذا هم بيضُ اللَّحَى، وإذا هو يقرأ عليهم دفترًا فيه شعر.
فقال الذي سعى بهم: السَّوءة في ذلك البيت، وإن دخلتموه عثرتُم عليها!

فقلت: والله لا أكشفُ فتى أصحابه شيوخ، وفي يده دفترٌ علم، ولو
كان في ثوبه دُمٌ يحيى بن زكرياء!!

وأشد رجلٌ يُونسَ النحوي^(١):

استودعَ العلمَ قرطاساً فضيَّعَه فَيُسَّسَ مستودعُ العلمِ القراطيسُ
قال: فقال يونس: قاتلَه الله، ما أَشدَّ ضنَّانته بالعلم، وأحسنَ صيانته
له، إِنَّ عِلْمَكَ مِنْ رَوْحِكَ، وَمَالُكَ مِنْ بَدَنِكَ، فَضَعُهُ مِنْكَ بِمَكَانِ الرُّوحِ،
وَضَعُ مَالِكَ بِمَكَانِ الْبَدَنِ!!

وقيل لابن داحه^(٢) - وأخرج كتاب أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود
كوفيَّة، ودَفَّتَيْن طائفيَّتين، بخطٌ عجيب - فقيل له: لقد أُضيعَ من تجوَّدَ بشعر
أبي الشَّمَقْمَق! فقال: لا جرم والله!! إِنَّ الْعِلْمَ لِيُعْطِيَكُمْ عَلَى حِسَابِ
مَا تَعْطُونَهُ، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوْدِعَهُ سُودَاءَ قَلْبِي، أَوْ أَجْعَلَهُ مُحْفُوظًا عَلَى
نَاضِرِي، لَفَعَلْتُ.

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٢١، وآمالي القالي ١/ ٢٢٣، والمحدث الفاضل ص ٣٨٧،
وفيه: «تمثل به الأعمش أو قاله»، وفي ديوان المعاني ص ١٧٢ دون نسبة، وهو
في تحسين القبيح ص ٨٤، واللطائف والظرائف ص ٦٨، وجامع بيان العلم
ص ١١٦، وسمط اللآلئ ١/ ٥١٤، وأنوار الربيع ٢/ ٣٨٩، والحث على طلب
العلم ص ٧٣ والرواية فيه: فَضُنَّهُمَا عَلَى قَدَرِ هَذَيْنِ مِنْكَ.

(٢) المحاسن والمساوىء ص ١٤، ومحاضرات الأدباء ١/ ١١٧، وربيع الأبرار
٣/ ٢٣٥، وأبو الشمقمق هو مروان بن محمد.

(١) ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته، فرأيت السَّماطين والرجالَ مُثولاً كأنَّ على رؤوسهم الطير، ورأيت فِرْشَتَهُ وبِزَّتَهُ؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيتِ كَتَبِهِ، وحواليه الأسفاط والرُّقوق، والقماطِرُ والدفاتِرُ والمَساطِرُ والمحابر، فما رأيته قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزلَ منه في ذلك اليوم؛ لأنَّه جمعَ مع المهابَةِ المحبَّةَ، ومع الفَخامة الحلاوة، ومع السُّودَد الحِكْمة.

وقال ابن داحية: كان عبدُ الله بنُ عبدِ العزيز بن عبدِ اللَّهِ بن عمر بن الخطَّابِ العُمريُّ الزَّاهد^(٢) لا يجالسُ الناسَ، وينزلُ مَقْبَرَةَ من المقابر، وكان لا يكادُ يَري إلَّا وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئِلَ عن ذلك، وعن نزولِهِ المَقْبَرَةَ فقال: لم أرَ أَوْعَظَ من قبر، ولا أَمْتَعَ من كتاب، ولا أَسْلَمَ من الوَحْدَةِ. فقليل له: قد جاء في الوَحْدَةِ ما جاء! فقال: ما أفسدَها للجاهِلِ وأصلَحها للعاقل!

(١) الفخري ص ٦.

(٢) المحاسن والأضداد ص ٦، والعزلة والإنفراد ص ٩٤، والعقد الفريد ٢/٢١٠، والمجالسة ٨١/٥ و ١٤٣/٧، ومروج الذهب ٢/٦٨، والمحاسن والمساوي ص ١٤، وتهذيب الأسرار ص ٤٠٧، وحلية الأولياء ٨/٢٨٣، وتقييد العلم ص ١٤٢، وجامع بيان العلم ص ٥٨٣، ومحاضرات الأدباء ١/١١٨، وربيع الأبرار ١/٧٦٩، والتذكرة الحمدونية ١/١٩٢، وتاريخ دمشق ٣١/٢٢٠، وصفة الصفوة ٢/١٨١، وسلوة الأحزان ص ٤٥، ومحاضرة الأبرار ١/٨، وتاريخ الإسلام ١٢/٢١٥، وسير أعلام النبلاء ٨/٣٧٥، وأحوال القبور ص ٢٢٧، والكشكول ١/٥، وموسوعة الكنايات ٢/٩١، وبلا عزو في العزلة ص ٩٠، ومحاسن الوسائل ص ١، ومنسوب لحكيم في الغنية ١/١٧٣، وأورد ابن الجوزي في سلوة الأحزان ص ٤٥ نحوه عن جعفر الصادق، وجاء الجزء الأخير من الخبر عن العزلة للخليل بن أحمد في عيون الأخبار ٢/١٣٠.

ضروب من الخطوط :

وضروبٌ من الخطوط بعد ذلك، تدلُّ على قدرِ منفعة الخطِّ . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار : ١١ ، ١٢] ، وقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [عبس : ١٣ - ١٥] ، وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ ﴾ [الانشقاق : ٧] ، وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الانشقاق : ١٠] ، وقال : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الاسراء : ١٤] .

ولو لم تكتب أعمالهم لكانت محفوظة لا يدخلُ ذلك الحفظ نسيانٌ، ولكنه تعالى وعزٌّ، علم أنَّ كتابَ المحفوظِ ونسخه أوكدُ وأبلغُ في الإنذار والتحذير، وأهيبُ في الصدور.

الكتابات القديمة :

وكانوا يجعلون الكتاب حفرًا في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخلقَةً مُركَّبَةً في البُنيان، فربَّما كان الكتابُ هو النَّاتِيءُ، وربَّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان تاريخاً لأمرٍ جسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو مَوْعِظَةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرفٍ يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قُبَّةِ غُمْدَانٍ، وعلى باب القَبْرِوَانِ، وعلى باب سَمَرْقَنْدٍ، وعلى عمود مَأْرِبٍ، وعلى ركن المَشَقَّرِ، وعلى الأَبْلَقِ الْفَرْدِ، وعلى باب الرها؛ يعمِدون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعد المواضع من الدُّثور، وأمنعها من الدروس، وأجدرَ أن يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى على وجه الدهر.

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالقات :

وأقول: لولا الخطوطُ لبَطَلَتِ الْعُهُودُ وَالشُّرُوطُ وَالسَّجَلَاتُ وَالصُّكَّاءُ، وكلُّ إقطاعٍ ، وكلُّ إنفاقٍ، وكلُّ أمانٍ، وكلُّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ

جَوَارٍ وَحِلْفٍ؛ وَلِتَعْظِيمِ ذَلِكَ، وَالثِّقَةِ بِهِ وَالِاسْتِنَادِ إِلَيْهِ، كَانُوا يَدْعُونَ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ ذَكَرَ الْحِلْفِ وَالْهُذْنَةِ؛ تَعْظِيماً لِلأَمْرِ، وَتَبْعِيداً مَنْ
النِّسْيَانِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ، فِي شَأْنِ بَكْرِ وَتَغْلِبَ:

وَادْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قَدْ دَمَّ فِيهِ الْعَهْدُ وَالْكَفْلَاءُ
حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّيِّ، وَهَلْ يَنْ قُضِيَ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءِ!
وَالْمَهَارِقِ، لَيْسَ يُرَادُ بِهَا الصُّحُفُ وَالْكَتَبُ، وَلَا يُقَالُ لِلْكَتَبِ مَهَارِقُ
حَتَّى تَكُونَ كِتَابَ دِينٍ، أَوْ كِتَابَ عَهْدٍ، وَمِيثَاقٍ، وَأَمَانٍ.

الرقوم والخطوط:

وليس بين الرُّقُومِ والخطوطِ فَرْقٌ، وَلَوْلَا الرُّقُومُ لَهْلَكَ أَصْحَابُ الْبَزْرِ
وَالْغُزُولِ، وَأَصْحَابُ السَّاجِ وَعَامَّةُ الْمَتَاجِرِ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْوُسُومِ الَّتِي تَكُونُ
عَلَى الْحَافِرِ كُلِّهِ وَالْخَفِّ كُلِّهِ وَالظِّلْفِ كُلِّهِ، وَبَيْنَ الرُّقُومِ فَرْقٌ، وَلَا بَيْنَ الْعُقُودِ
وَالرُّقُومِ فَرْقٌ، وَلَا بَيْنَ الْخُطُوطِ وَالرُّقُومِ كُلِّهَا فَرْقٌ، وَكُلُّهَا خُطُوطٌ، وَكُلُّهَا
كِتَابٌ، أَوْ فِي مَعْنَى الْخَطِّ وَالْكِتَابِ، وَلَا بَيْنَ الْحُرُوفِ الْمَجْمُوعَةِ وَالْمَصُورَةِ
مِنَ الصَّوْتِ الْمَقْطَعِ فِي الْهَوَاءِ، وَمِنَ الْحُرُوفِ الْمَجْمُوعَةِ الْمَصُورَةِ مِنَ السَّوَادِ
فِي الْقِرْطَاسِ فَرْقٌ.

وَاللِّسَانُ يَصْنَعُ فِي جَوْبَةِ الْفَمِ وَهَوَائِهِ الَّذِي فِي جَوْفِ الْفَمِ وَفِي خَارِجِهِ،
وَفِي لَهَاتِهِ، وَبَاطِنِ أَسْنَانِهِ، مِثْلَ مَا يَصْنَعُ الْقَلَمُ فِي الْمَدَادِ وَاللِّبْقَةِ وَالْهَوَاءِ
وَالْقِرْطَاسِ، وَكُلُّهَا صُورٌ وَعَلَامَاتٌ وَخَلْقٌ مُوَائِلٌ، وَدَلَالَاتٌ، فَيَعْرِفُ مِنْهَا
مَا كَانَ فِي تِلْكَ الصُّورِ لِكثَرَةِ تَرَدَادِهَا عَلَى الْأَسْمَاعِ، وَيَعْرِفُ مِنْهَا مَا كَانَ
مَصُوراً مِنْ تِلْكَ الْأَلْوَانِ لَطَوِيلِ تَكَرُّرِهَا عَلَى الْأَبْصَارِ، كَمَا اسْتَدَلُّوا بِالضَّحْكَ
عَلَى السَّرُورِ، وَبِالْبَكَاءِ عَلَى الْأَلَمِ.

وَعَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَرَفُوا مَعَانِيَ الصَّوْتِ، وَضُرُوبَ صُورِ الْإِشَارَاتِ،
وَصُورِ جَمِيعِ الْهَيْئَاتِ، وَكَمَا عَرَفَ الْمَجْنُونُ لِقَبِّهِ، وَالْكَلْبُ اسْمَهُ. وَعَلَى مِثْلِ

ذلك فهم الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون الوعيد والتهذُّد، وبمثل ذلك اشتدَّ حُضْرُ الدابة مع رفع الصوت، حتَّى إذا رأى سائسه حمحم. وإذا رأى الحمامَ القيِّمَ عليه انحطَّ للقطِ الحبِّ، قبل أن يُلقِيَ له ما يلقطه.

ولولا الوسومُ ونُقُوش الخواتم، لدخل على الأموالِ الخللُ الكثير، وعلى خزائنِ الناس الضررُ الشديد.

الخط والحضارة:

وليس في الأرض أمةٌ بها طِرق أو لها مُسكَّة، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسط، إلَّا ولهم خطٌّ. فأما أصحاب الملك والمملكة، والسلطان والجباية، والدِّيانة والعبادة، فهناك الكتابُ المتقن، والحساب المحكم، ولا يخرج الخطُّ من الجزم والمسند المنمنم والسمون كيف كان، قال ذلك الهيثمُ ابن عدي، وأبْنُ الكلبي.

تخليد الأمم لمآثرها:

قال: فكلُّ أمةٍ تعتمدُ في استبقاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكلٍ من الأشكال.

تخليد العرب لمآثرها:

وكانت العربُ في جاهليَّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها، وعلى أنَّ الشعرَ يُقيد فضيلةَ البيانِ على الشاعرِ الراغبِ، والمادحِ، وفضيلةَ المأثرة على السيِّدِ المرغوبِ إليه، والممدوحِ به.

وذهبت العجَمُ على أن تقيّد مآثرها بالبُنيان، فبنوا مثلَ كرد بيداد، وبنى أزدشير بيضاءِ إصطَخر، وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس.

قال: ثُمَّ إِنَّ الْعَرَبَ أَحْبَبَتْ أَنْ تَشَارَكَ الْعَجَمَ فِي الْبِنَاءِ، وَتَتَفَرَّدَ بِالشَّعْرِ، فَبَنَوْا غُمْدَانَ، وَكَعْبَةَ نَجْرَانَ، وَقَصْرَ مَارِدَ، وَقَصْرَ مَأْرِبَ، وَقَصْرَ شُعُوبَ، وَالْأَبْلَقَ الْفَرْدَ؛ وَفِيهِ وَفِي مَارِدَ قَالُوا: «تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الْأَبْلَقُ» وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْبُنْيَانِ.

قال: وَلِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ الْفَرَسُ تُبَيِّحُ شَرِيفَ الْبُنْيَانِ، كَمَا لَا تُبَيِّحُ شَرِيفَ الْأَسْمَاءِ، إِلَّا لِأَهْلِ الْبَيُوتَاتِ، كَصَنِيعِهِمْ فِي النِّوَابِيسِ وَالْحَمَامَاتِ وَالْقِبَابِ الْخَضِرِ، وَالشُّرَفِ عَلَى حِيطَانِ الدَّارِ، وَكَالْعَقْدِ عَلَى الذَّهْلِيزِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: «كُتِبَ الْحُكَمَاءُ وَمَا دَوَّنَتِ الْعُلَمَاءُ مِنْ صُنُوفِ الْبَلَاغَاتِ وَالصَّنَاعَاتِ، وَالْآدَابِ وَالْأَرْفَاقِ، مِنَ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، وَمَنْ لَهُ بَقِيَّةٌ وَمَنْ لَا بَقِيَّةَ لَهُ، أَبْقَى ذِكْرًا وَأَرْفَعُ قَدْرًا وَأَكْثَرُ رَدًّا، لِأَنَّ الْحِكْمَةَ أَنْفَعُ لِمَنْ وَرَثَهَا، مِنْ جِهَةِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا، وَأَحْسَنُ فِي الْأَحْدُوثَةِ، لِمَنْ أَحَبَّ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ».

طَمَسَ الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ آثَارَ مَنْ سَبَقَهُمْ:

وَالْكَتَبُ بِذَلِكَ أَوْلَى مِنْ بُنْيَانِ الْحِجَارَةِ وَحِيطَانِ الْمَدَرِ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُلُوكِ أَنْ يَطْمِسُوا عَلَى آثَارِ مَنْ قَبْلَهُمْ، وَأَنْ يُمَيِّتُوا ذِكْرَ أَعْدَائِهِمْ، فَقَدْ هَدَمُوا بِذَلِكَ السَّبَبِ أَكْثَرَ الْمَدَنِ وَأَكْثَرَ الْحَصُونِ، كَذَلِكَ كَانُوا أَيَّامَ الْعَجَمِ وَأَيَّامَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَلَى ذَلِكَ هُمْ فِي أَيَّامِ الْإِسْلَامِ؛ كَمَا هَدَمَ عُثْمَانُ صُومَعَةَ غُمْدَانَ، وَكَمَا هَدَمَ الْآطَامَ الَّتِي كَانَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَكَمَا هَدَمَ زِيَادٌ كُلَّ قَصْرِ وَمَصْنَعٍ كَانَ لِابْنِ عَامِرٍ، وَكَمَا هَدَمَ أَصْحَابُنَا بِنَاءَ مَدَنِ الشَّامَاتِ لِبْنِي مُرْوَانَ.

صُعُوبَةُ تَرْجُمَةِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ:

وَقَدْ نُقِلَتْ كِتَابُ الْهِنْدِ، وَتُرْجِمَتْ حُكْمُ الْيُونَانِيَّةِ، وَحُوِّلَتْ آدَابُ الْفَرَسِ؛ فَبَعْضُهَا أَزْدَادَ حُسْنًا، وَبَعْضُهَا مَا انْتَقَصَ شَيْئًا، وَلَوْ حُوِّلَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ، لَبُطِلَ ذَلِكَ الْمَعْجَزُ الَّذِي هُوَ الْوِزْنُ؛ مَعَ أَنَّهُمْ لَوْ حَوَّلُوهَا لَمْ يَجِدُوا

في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم، التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم.

وقد نُقِلَتْ هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكثراً آخر من ورثها ونظر فيها. فقد صحَّ أنَّ الكتب أبلغ في تقييد المآثر من البُنيان والشعر.

مشقة تصحيح الكتب:

ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيحاً، أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشرٍ وركاتٍ من حرِّ اللفظ وشریف المعاني؛ أيسرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردّه إلى موضعه من اتّصال الكلام؛ فكيف يُطبق ذلك المعارض المستأجر؟ والحكيمُ نفسه قد أعجزه هذا الباب!

وأعجب من ذلك أنه يأخذ بأمرين: قد أصلحَ الفاسدَ وزاد الصالحَ صلاحاً. ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً لإنسانٍ آخر، فيسير فيه الوراقُ الثاني سيرةَ الوراقِ الأوّل. ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأغراض المفسدة، حتّى يصير غلطاً صِرفاً، وكذباً مُضْمَتاً، فما ظنُّكم بكتابٍ تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخطّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتاب متقادِم الميлад، دُهرِي الصنعة!

الترغيب في اصطناع الكتاب:

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على مَنْ زَرَى على واضع الكتب، فأقول: إنَّ من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومَراشِدِهِم، ومضارِّهم ومنافعهم، أن يُحْتَمَلَ ثِقَلُ مؤونتهم في تقويمهم، وأن يُتَوَخَّى إرشادهم وإن جهلوا فضل ما يُسَدَّى إليهم، فلن يُصَانَ العلمُ بمثل بذله، ولن تُسَبِّقى النعمةُ فيه بمثل نشره.

على أنَّ قراءةَ الكتبِ أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التلاقي يشتدُّ التصنعُ، ويكثرُ التظالمُ، وتُفرطُ العصبيةُ، وتقوى الحميةُ؛ وعند المواجهةِ والمقابلةِ، يشتدُّ حبُّ الغلبةِ، وشهوةُ المباهاةِ والرياسةِ، مع الاستحياء من الرجوعِ، والأنفةِ من الخضوعِ؛ وعن جميعِ ذلك تحدث الضغائنُ، ويظهرُ التباينُ.

وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ وعلى هذه الهيئةِ، امتنعتُ من التعرفِ، وعميت عن مواضع الدلالةِ، وليست في الكتبِ علَّةٌ تمنعُ من درك البُغيةِ، وإصابةِ الحجةِ؛ لأنَّ المتوحدَ بذرْسها، والمنفردَ بفهم معانيها، لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله، وقد عَدِمَ مَنْ له يُباهي وَمَنْ أجله يغالب.

الكتاب قد يفضل صاحبه:

والكتابُ قد يفضل صاحبه، ويتقدَّم مؤلِّفه، ويرجِّح قلمه على لسانه بأمور: منها أنَّ الكتابَ^(١) يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ ما فيه على كلِّ لسان، ويوجد مع كلِّ زمان، على تفاوتٍ ما بين الأعصار، وتباعدٍ ما بين الأمصار، وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب. ومناقلةُ اللسان وهدايته لا تجوزان مجلسَ صاحبه، ومبلغَ صوته.

وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كتبه، ويذهب العقلُ ويبقى أثره. ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ في كتبها، وخلَّدت من عجيبِ حكمتها، ودَوَّنت من أنواعِ سيرها، حتَّى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان

(١) في البيان والتبيين ٨٠/١ أورد قبله فقال: وقالوا: اللسان مقصورٌ على القريب الحاضر، والقلمُ مطلقٌ في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الزاهر. وفي بهجة المجالس ٣٥٦/١ رواية شبيهة لابن القريّة أيوب بن زيد: خط القلم يُقرأ بكلِّ مكان، وفي كلِّ زمان، وترجم بكلِّ لسان، ولفظ الإنسان لا يجاوز الآذان.

علينا، فجمَعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدرَكنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خَسَّ حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة.

ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا، وتشاهده نفوسنا، لقلَّت المعرفة، وسَقَطَت الهمة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيماً، والخاطر فاسداً؛ وَلَكَلَّ الحدُّ وتَبَلَّدَ العقل^(١).

أفضل الكتب:

وأكثرُ من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسنُ موقعاً، كُتِبَ اللهُ تعالى؛ فيها الهدى والرحمة، والإخبارُ عن كلِّ حكمة، وتعريفُ كلِّ سيئةٍ وحسنة. وما زالت كتبُ الله تعالى في الألواح والصُّحف، والمصاحف والمصاحف. وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَبْغُوا فِي شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. ويقال لأهل التَّوراة والإنجيل: أهلُ الكتاب.

مواصلة السير في خدمة العلم:

وينبغي أن يكونَ سبيلُنا لِمَنْ بعدنا، كسبيلِ مَنْ كان قبلنا فينا. على أنَّنا قد وجدنا من العبرة أكثرَ ممَّا وجدوا، كما أنَّ مَنْ بعدنا يجدُ من العبرة أكثرَ ممَّا وجدنا. فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عنده، وما يمنع الناصرَ للحقِّ من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القولُ وصلح الدهرُ، وخوى نجم التَّقِيَّة، وهبَّتْ رِيحُ العلماء، وكسَدَ العِيَّ والجهل، وقامت سوقُ البيان والعلم؟! ليس يجدُ الإنسانُ في كلِّ حينٍ إنساناً يدرِّبه، ومقوماً يثقِّفه. والصبرُ

(١) زاد في رسائل الجاحظ ٤/٢٩٧: «استبدَّ بنا سوء العادة»، وزاد في تقييد العلم ص ١١٨: فكان ما دَوَّنوه في كتبهم أكثرَ نفعاً، وما تكلفوه من ذلك أحسن موقعاً، ويجب الاقتفاء لآثارهم، والاستضاء بأنوارهم، فإن المرء مع من أحب؛ وله أجر ما احتسب.

على إفهام الریض شديد، وصرفُ النفس عن مغالبة العالم أشدُّ منه، والمتعلِّم يجدُ في كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً، وما أكثرَ من فرطٍ في التعليم أيامَ خمولِ ذكره، وأيامَ حَدَاثَةِ سنَّه!!

ولولا جِياذُ الكتبِ وحسَنُها، ومُبَيَّنُها ومختَصَرُها، لَمَا تحرَّكت هممُ هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حبِّ الأدب، وأنفَت من حالِ الجهل، وأن تكون في غمار الحشو، ولَدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة، ومن الجهل وسوء الحال، ما عسى ألا يمكن الإخبارُ عن مقداره، إلاَّ بالكلام الكثير، ولذلك قال عمرُ رضي الله تعالى عنه: «تفقهوا قبل أن تُسودوا».

كتب أبي حنيفة:

وقد تجدُ الرجلَ يطلبُ الآثارَ وتأويلَ القرآن، ويجالسُ الفقهاءَ خمسين عاماً، وهو لا يُعدُّ فقيهاً، ولا يُجعلُ قاضياً!! فما هو إلاَّ أن ينظرَ في كتبِ أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، ويحفظَ كتبَ الشروط في مقدارِ سنةٍ أو سنتين، حتى تمرَّ ببابه فتظنُّ أنه من بعضِ العُمال، وبالحراَّ ألاَّ يمرَّ عليه من الأيام إلاَّ اليسير، حتَّى يصير حاكماً على مصرٍ من الأمصار، أو بلدٍ من البلدان.

وجوب العناية بتنقيح المؤلفات:

وينبغي لمن كتَبَ كتاباً ألاَّ يكتبه إلاَّ على أن النَّاسَ كلُّهم له أعداء، وكلُّهم عالمٌ بالأمر، وكلُّهم متفرِّغٌ له؛ ثمَّ لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير؛ فإنَّ لابتداءِ الكتابِ فتنةً وعُجباً، فإذا سكنت الطبيعةُ وهدأت الحركة، وتراجعتِ الأخلاطُ، وعادت النفسُ وافرة، أعاد النَّظَرَ فيه، فَيَتَوَقَّفُ عند فصوله توقَّف من يكونُ وزنُ طمعه في السلامة أنقصَ من وزنِ خوفه من العيب، ويتفهَّم معنى قولِ الشاعرِ (ابن هرمة):

إنَّ الحديثَ تَغَرُّ القومَ خلوتُهُ حتَّى يَلِجَ بهم عِيٌّ وإكثارُ

ويقفُّ عند قولهم في المثل: «كلُّ مُجرٍ في الخلاءِ يُسرُّ»، فيخاف أن

يعتريه ما اعتري مَنْ أجرى فرسه وحده، أو خلا بعلمه عند فقدِ خصومه،
وأهل المنزلة من أهل صناعته .

تداعي المعاني في التأليف :

وليعلم أَنَّ صاحبَ القلمِ يعتريه ما يعتري المؤدَّبَ عند ضربه وعقابه ۝
فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَعْزِمُ عَلَى خَمْسَةِ أَسْوَاطٍ فَيُضْرَبُ مِائَةً؟! لَأَنَّهُ ابْتَدَأَ الضَّرْبَ وَهُوَ
سَاكِنُ الطَّبَاعِ، فَأَرَاهُ السَّكُونُ أَنَّ الصَّوَابَ فِي الْإِقْلَالِ، فَلَمَّا ضَرَبَ تَحَرَّكَ
دُمُهُ، فَأَشَاعَ فِيهِ الْحَرَارَةَ فَرَادَ فِي غَضْبِهِ، فَأَرَاهُ الْغَضَبُ أَنَّ الرَّأْيَ فِي الْإِكْثَارِ .

وكذلك صاحب القلم؛ فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَبْتَدِئُ الْكِتَابَ وَهُوَ يُرِيدُ مَقْدَارَ
سَطْرَيْنِ، فَيَكْتُبُ عَشْرَةَ! وَالْحِفْظُ مَعَ الْإِقْلَالِ أَمْكَنُ، وَهُوَ مَعَ الْإِكْثَارِ أَبْعَدُ .

مقايسة بين الولد والكتاب :

واعلم أَنَّ الْعَاقِلَ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْمَتَّبِعِ، فَكَثِيرًا مَا يَعْتَرِيهِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنْ
وَلَدِهِ، إِنْ يَحْسُنَ فِي عَيْنِهِ مِنْهُ الْمَقْبُوحُ فِي عَيْنِ غَيْرِهِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ لَفْظَهُ أَقْرَبُ
نَسَبًا مِنْهُ مِنْ ابْنِهِ، وَحَرَكَتُهُ أَمْسٌ بِهِ رَحْمًا مِنْ وَلَدِهِ؛ لِأَنَّ حَرَكَتَهُ شَيْءٌ أَحَدُهُ مِنْ
نَفْسِهِ وَبِذَاتِهِ، وَمِنْ عَيْنِ جَوْهَرِهِ فَصَلَتْ، وَمِنْ نَفْسِهِ كَانَتْ؛ وَإِنَّمَا الْوَلَدُ
كَالْمَخْطَةِ يَتَمَخَّطُهَا، وَالنَّخَامَةُ يَقْذِفُهَا، وَلَا سِوَاءَ إِخْرَاجِكَ مِنْ جِزْنِكَ شَيْئًا
لَمْ يَكُنْ مِنْكَ، وَإِظْهَارُكَ حَرَكَهَ لَمْ تَكُنْ حَتَّى كَانَتْ مِنْكَ . وَلِذَلِكَ تَجِدُ فِتْنَةَ
الرَّجُلِ بِشِعْرِهِ، وَفِتْنَتَهُ بِكَلَامِهِ وَكِتَبِهِ، فَوْقَ فِتْنَتِهِ بِجَمِيعِ نِعَمَتِهِ .

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب :

وليس الكتابُ إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى إِفْهَامِ مَعَانِيهِ، حَتَّى لَا يَحْتَاجَ
السَّامِعُ لِمَا فِيهِ مِنَ الرُّوْيَةِ، وَيَحْتَاجُ مِنَ اللَّفْظِ إِلَى مَقْدَارٍ يَرْتَفِعُ بِهِ عَنْ أَلْفَافِ
السُّفْلَةِ وَالْحَشْوِ، وَيَحِطُّهُ مِنْ غَرِيبِ الْأَعْرَابِ وَوَحْشِيَّةِ الْكَلَامِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ
يَهْذُبَهُ جَدًّا، وَيَنْقَحَهُ وَيَصْفِيهِ وَيُرَوِّقَهُ، حَتَّى لَا يَنْطِقَ إِلَّا بِلُبِّ اللَّبِّ، وَبِالْلفظِ
الَّذِي قَدْ حُذِفَ فُضُولُهُ، وَأَسْقَطَ زَوَائِدُهُ، حَتَّى عَادَ خَالِصًا لَا شَوْبَ فِيهِ، فَإِنَّهُ

إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ، لَمْ يُفْهَمْ عَنْهُ إِلَّا بِأَنْ يَجِدَّ لَهُمْ إِفْهَامًا مَرَّارًا وَتَكَرُّارًا، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ قَدْ تَعَوَّدُوا الْمَبْسُوطَ مِنَ الْكَلَامِ، وَصَارَتْ أَفْهَامُهُمْ لَا تَزِيدُ عَلَى عَادَاتِهِمْ إِلَّا بِأَنْ يَعْكُسَ عَلَيْهَا وَيُؤْخَذَ بِهَا.

أَلَا تَرَى أَنَّ كِتَابَ الْمَنْطِقِ الَّذِي قَدْ وُضِعَ بِهَذَا الْاسْمِ، لَوْ قَرَأْتَهُ عَلَى جَمِيعِ خُطَبَاءِ الْأَمْصَارِ وَبُلْغَاءِ الْأَعْرَابِ، لَمَا فَهِمُوا أَكْثَرَهُ، وَفِي كِتَابِ أَقْلِيدِسَ كَلَامٌ يَدُورُ، وَهُوَ عَرَبِيٌّ وَقَدْ صُنِّيَ، وَلَوْ سَمِعَهُ بَعْضُ الْخُطَبَاءِ لَمَا فَهِمَهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْهَمَهُ مَنْ يَرِيدُ تَعْلِيمَهُ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَ جِهَةَ الْأَمْرِ، وَتَعَوَّدَ اللَّفْظَ الْمَنْطِقِيَّ الَّذِي اسْتُخْرِجَ مِنْ جَمِيعِ الْكَلَامِ.

وَلَوْلَا أَنِّي أَتَكَلَّمُ عَلَى أَنَّكَ لَا تَمَلُّ بِأَبِ الْقَوْلِ، لَرَأَيْتُ أَنَّ جُمْلَةَ الْكِتَابِ، وَإِنْ كَثُرَ عَدْدُ وَرِقِهِ، أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِمَّا يُمَلُّ، وَيُعْتَدُّ عَلَيَّ فِيهِ بِالْإِطَالَةِ، لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ كِتَابًا وَاحِدًا فَإِنَّهُ كُتِبَ كَثِيرَةً، وَكُلُّ مُصَحَّفٍ مِنْهَا فَهُوَ أَمٌّ عَلَى حِدَةٍ، فَإِنْ أَرَادَ قِرَاءَةَ الْجَمِيعِ لَمْ يَطُلْ عَلَيْهِ الْبَابُ الْأَوَّلُ حَتَّى يَهْجَمَ عَلَى الثَّانِي، وَلَا الثَّانِي حَتَّى يَهْجَمَ عَلَى الثَّالِثِ؛ فَهُوَ أَبَدًا مُسْتَفِيدٌ وَمُسْتَطَرَفٌ، وَبَعْضُهُ يَكُونُ جَمَامًا لِبَعْضٍ، وَلَا يَزَالُ نَشَاطُهُ زَائِدًا.

وَمَتَى خَرَجَ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ صَارَ إِلَى الْأَثَرِ، وَمَتَى خَرَجَ مِنْ أَثَرِ صَارَ إِلَى خَبَرٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ الْخَبَرِ إِلَى شَعْرٍ، وَمِنَ الشَّعْرِ إِلَى نَوَادِرٍ، وَمِنَ النَوَادِرِ إِلَى حَكْمٍ عَقْلِيَّةٍ، وَمُقَايِيسٍ سِدَادٍ، ثُمَّ لَا يَتْرَكَ هَذَا الْبَابَ؛ وَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ أَثْقَلَ، وَالْمَلَالُ إِلَيْهِ أَسْرَعُ، حَتَّى يَفْضِيَنِي بِهِ إِلَى مَزْجٍ وَفِكَاهَةٍ، وَإِلَى سُخْفٍ وَخُرَافَةٍ، وَلَسْتُ أَرَاهُ سُخْفًا، إِذْ كُنْتُ إِنَّمَا اسْتَعْمَلْتُ سِيرَةَ الْحُكَمَاءِ، وَأَدَابَ الْعُلَمَاءِ.

مَخَاطَبَةُ الْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

وَرَأَيْنَا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِذَا خَاطَبَ الْعَرَبَ وَالْأَعْرَابَ، أَخْرَجَ الْكَلَامَ مُخْرَجَ الْإِشَارَةِ وَالْوَحْيِ وَالْحَذْفِ، وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَّى عَنْهُمْ، جَعَلَهُ مَبْسُوطًا، وَزَادَ فِي الْكَلَامِ. فَأَصُوبُ الْعَمَلِ

اتِّبَاعُ آثارِ الْعُلَمَاءِ ، وَالْإِحْتِذَاءُ عَلَى مِثَالِ الْقَدَمَاءِ ، وَالْأَخْذُ بِمَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ .

قال محمد بن يسير الرياشي في صفة الكتب، في كلمة له^(١) :

أَقْبَلْتُ أَهْرُبُ لَا أَلُو مُبَاعِدَةً	فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ فَلَمْ يُخَصِّنِي الْهَرَبُ
بَقَصِرَ أَوْسُ فَمَا وَالْتَ خَنَادِقُهُ	وَلَا النَّوَاسِيسُ فَالْمَاخُورُ فَالْخَرْبُ
فَأَيْتُمَا مَوْتِلٍ مِنْهَا اعْتَصَمْتُ بِهِ	فَمِنْ وَرَائِي حَيْثُ مِنْهُمْ الطَّلَبُ
لَمَّا رَأَيْتُ بِأَنِّي لَسْتُ مَعْجَزَهُمْ	فَوْتًا وَلَا هَرَبًا، قَرَّبْتُ أُحْتَجَبُ
فَصَرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِمْ جَذَلًا	جَارَ الْبَرَاءَةِ لَا شَكْوَى وَلَا شَغْبُ
فَرَدًّا يَحْدِثُنِي الْمَوْتَى وَتَنْطِقُ لِي	عَنْ عِلْمٍ مَا غَابَ عَنِّي مِنْهُمْ الْكُتُبُ
هُمْ مُؤَنِّسُونَ وَأُلَافٌ غَنِيَتْ بِهِمْ	فَلَيْسَ لِي فِي أَنْيْسٍ غَيْرَهُمْ أَرْبُ
لِلَّهِ مَنْ جُلَسَاءٍ لَا جَلِيسَهُمْ	وَلَا عَشِيرَهُمْ لِلشَّوْءِ مَرْتَقِبُ
لَا بَادِرَاتٍ الْأَذَى يَخْشَى رَفِيقَهُمْ	وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ ذَرْبُ
أَبَقُوا لَنَا حِكْمًا تَبْقَى مَنَافِعُهَا	أُخْرَى اللَّيَالِي عَلَى الْأَيَّامِ وَانْشَعَبُوا
فَأَيْتُمَا آدِبٍ مِنْهُمْ مَدَدْتُ يَدِي	إِلَيْهِ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ يَدِي كَتَبُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْأَنْثَارِ يَرْفَعُهَا	إِلَى النَّبِيِّ ثِقَاتٌ خَيْرَةٌ نُجُبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ عَرَبٍ عِلْمًا بِأَوَّلِهِمْ	فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْبِئَنِي بِهِ الْعَرَبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ سِيرِ الْأَمْلاكِ مِنْ عَجَمٍ	تُنْبِئِي وَتُخْبِرُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْ	وَقَدْ مَضَتْ دُونَهُمْ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقَبُ
يَا قَائِلًا قَصُرَتْ فِي الْعِلْمِ نَهْيَتُهُ	أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ فِيمَا قَالَ يَنْتَسِبُ
إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ بَانُوا بَعْلَمَهُمْ	خِلَافَ قَوْلِكَ قَدْ بَانُوا وَقَدْ ذَهَبُوا

(١) وردت بآيات ناقصة وألفاظ مختلفة وتغيير في نظم الآيات في: البخلاء ص ٢٩٣، وجامع بيان العلم ص ٥٨١، وبهجة المجالس ٥١/١، وتقييد العلم ص ١٣٣، والجامع في الحث على طلب العلم ص ٦٣، وربيع الأبرار ٢٨٩/٣، والتذكرة الحمدونية ٣٢٧/٩، ودون نسبة في مروج الذهب ٦٨/٢.

ما مات منا امرؤ أبقي لنا أدباً نكونُ منه إذا ما مات نكتسبُ

* * *

وقال أبو وَجْزة - وهو يصف صحيفةً كُتِبَ له فيها بَسِيتَيْنِ وَسَقَا:

راحَتْ بَسِيتَيْنِ وَسَقَا فِي حَقِيقَتِهَا مَا حُمِلَتْ حِمْلَهَا الْأَدْنَى وَلَا السَّدَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ قُلُوصاً قَبْلَهَا حَمَلْتُ سِتَيْنِ وَسَقَا وَمَا جَابَتْ بِهِ بِلْدَا

وقال الراجز:

تَعَلَّمَنْ أَنَّ الدَّوَاءَ وَالْقَلَمَ تَبَقَى وَيُقْنِي حَدَثُ الدَّهْرِ الْغَنَمَ
يقول: كَتَابُكَ الَّذِي تَكْتُبُهُ عَلَيَّ يَبْقَى فَتَأْخُذْنِي بِهِ، وَتَذْهَبُ غَنَمِي فِيمَا يَذْهَبُ.

نشر الأخبار في العراق:

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى نَفْعِ الْكِتَابِ، أَنَّهُ لَوْلَا الْكِتَابُ لَمْ يَجْزُ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ الرِّقَّةِ
وَالْمَوْصِلِ وَبَغْدَادَ وَوَاسِطَ مَا كَانَ بِالْبَصْرَةِ، وَمَا يَحْدُثُ بِالْكُوفَةِ فِي بَيَاضِ
يَوْمٍ، حَتَّى تَكُونَ الْحَادِثَةُ بِالْكُوفَةِ غُدُوَّةً، فَتَعْلَمُ بِهَا أَهْلُ الْبَصْرَةِ قَبْلَ الْمَسَاءِ.

وذلك مشهورٌ في الحمام الهُدِّي، إِذَا جُعِلَتْ بُرْدَا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ
- وَذَكَرَ سُلَيْمَانُ وَمَلَكُهُ الَّذِي لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِثْلَهُ - فَقَالَ: ﴿وَنَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ
مَالِكٌ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَالَ الْهُدْهُدُ: ﴿وَحِثُّكَ مِنْ سَيِّئٍ بَلِّغْ بَيْنِي﴾ ٢٢ ﴿إِنِّي وَجَدْتُ
أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٣].

قَالَ سُلَيْمَانُ ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفِقْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]، وَقَدْ كَانَ
عِنْدَهُ مَنْ يَبْلُغُ الرِّسَالَةَ عَلَى تَمَامِهَا، مِنْ عِفْرِيَتٍ، وَمِنْ بَعْضِ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ
الْكِتَابِ، فَرَأَى أَنَّ الْكِتَابَ أَبْهَى وَأَنْبَلُ، وَأَكْرَمُ وَأَفْخَمُ مِنَ الرِّسَالَةِ عَنْ ظَهْرِ
لِسَانٍ، وَإِنْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ مَا فِي الْكِتَابِ.

وقالت ملكة سبأ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِتَى أَلْفَى إِلَى كِتَبُ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل:

٢٩]. فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب.

استخدام الكتابة في أمور الدين والدنيا:

وقد يريد بعض الجلة الكبار، وبعض الأدباء والحكماء، أن يدعو بعض من يجري مجراه في سلطان أو أدب، إلى مأدبة أو ندام، أو خروج إلى متنزه، أو بعض ما يشبه ذلك، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه، لأصاب من يحسن الأداء، ويصدق في الإبلاغ، فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى وأنبه وأبلغ.

ولو شاء النبي ﷺ ألا يكتب الكتب إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، والمقوقس، وإلى ابني الجلندي، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هوذة بن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلغ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنه عليه الصلاة والسلام، علم أن الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب.

ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعز، علم أن ذلك أتم وأكمل، وأجمع وأنبل.

وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة، إلى بعض من يشاكلة، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتى يخزمه ويختمه، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويعظمه. قال الله جل وعز: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بآ فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]، فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة المعدومة، ليعرف الناس مقدار النفع، والمصلحة في الكتب.

نظام التورث عند فلاسفة اليونانية:

قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية، تورث البنات العين، وتورث البنين

الدين، وكانت تصل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة، وكانت تقول: لا تورثوا الابن من المال، إلا ما يكون عوناً له على طلب المال، واغذوه بحلاوة العلم، واطبعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال، وليرى أنه العدة والعتاد، وأنه أكرم مستفاد.

وكانوا يقولون: لا تورثوا الابن من المال إلا ما يسد الخلة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُدَّ من الفضول؛ فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساد، وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم وبقيت له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأنَّ المال لم يزل تابِعاً للحال، وقد لا يتبع الحال المال.

وصاحب الفضول بعرض فساد، وعلى شفا إضاعة، مع تمام الحنكة، واجتماع القوة، فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة.

وكانوا يقولون: خير ميراث ما أكسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجل لك حلاوة المحبة، وبقي لك الأحدوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه.

وليس يجمع ذلك إلا كرام الكتب النفيسة، المشتمة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأدب، ومعرفة الصناعات، وفوائد الأرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح برهانه، تسكن النفوس، وتثلج الصدور، ويعود القلب معموراً، والعزُّ راسخاً، والأصل فسيحاً.

وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذهبه. وتنفي الخبث عنه، وتفيدك العلم، وتصادق بينك وبين الحجة، وتعودك الأخذ بالثقة، وتجلب الحال، وتكسب المال.

وراثه الكتب :

ووراثه الكتب الشريفة، والأبواب الرفيعة، منبهة للمورث، وكثر عند الوارث، إلا أنه كثر لا تجب فيه الزكاة، ولا حق السلطان.

وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيده ما أخذ منه؛ ولا يزال بها المورث مذكوراً في الحكماء ومنوهاً باسمه في الأسماء، وإماماً متبوعاً وعلماً منصوباً، فلا يزال الوارث محفوظاً، ومن أجله محبوباً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبة نامية، ما كانت تلك الفوائد قائمة؛ ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: من ورثته كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورثته ما يُغَل ولا يَسْتغَل، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكار، ولا إلى أن تُثار، وليس عليها عُشر، ولا للسلطان عليها خُرج. وسواء أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواء دفعك إليه الكفاية، أو ما يجلب الكفاية. وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب، لم يجب عليه إحضار المسبب، فكتب الآباء تحبيب للأحياء، ومحيي لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً، وكانت موارثه كتباً بارعة وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليم إليه، ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطىء له، وأجدر أن يسري إليه عرق من نجله، وسقى من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيَّام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة.

وإنَّما تُفسد الكفاية من له تَمَّت آلاته، وتوافت إليه أسبابه . فأما
الحَدَث الغرير، والمنقوص الفقير، فخير موارثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام،
ويكمل للطلب .

فخير ميراثٍ وُرثَ كتبٌ وعلم، وخير المورثين من أورث ما يجمع ولا
يفرِّق، ويبصِّر ولا يُعمي، ويُعطي ولا يأخذ، ويوجد بالكلِّ دون البعض،
ويدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه حقٌّ، والركاز الذي ليس للفقراء فيه
نصيب، والنَّعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا لِلصُّوصِ فيها رغبة،
وليس للخصم عليك فيه حجة، ولا على الجار فيه مَثونة .

قول ديمقراط في تأليف كتب العلم:

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بدَّ من أن يكون لكلِّ
كتابٍ علم وضعه أحدٌ من الحكماء، ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة،
والنسبة، والصحة، والصنف، والتأليف، والإسناد والتدبير .

فأولُّها أن تكون لصاحبه همة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون
له نسبة يُنسب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صنف من أصناف
الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى
وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف .

فذكر أن أبقرط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو
كتابه الذي يسمى (أفوريسموا)، تفسيره: كتاب الفصول .



٣- فصل في عشاق الكتب وما بذلوا من النفيس له

من عشاق الكتب والقراءة: ابن تيمية الجد، وابن الجوزي:

قال عبد الرحمن ابن الجوزي^(١):

وأما عشاق العلم فأعظمُ شَغَفاً به وعشْقاً له من كل عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر.

وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال: كان الجدُّ إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع.

وأعرف من أصابه مرضٌ من صُدَاعٍ وَحُمَّى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وَجَدَ إفاقةً قرأ فيه، فإذا غلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: إن هذا لا يَحِلُّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك.

وحدثني شيخنا قال: ابتدأني مرضٌ فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قَوِيَت الطبيعةُ فدفعت المرض؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحة، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فعشَقُ صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكون بالمناسبة

(١) روضة المحبتين ص ٦٩.

التي بين الرُّوح وتلك الصفات ، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها
وأشرفها معشوقاً؛ كما قيل :

أنت القاتِلُ بكلِّ من أَحْيَيْتَهُ فاختَرْ لنفسِكَ في الهوى من تَضْطَفِي

* * *

ومنهم : عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن أبو الفضل
العجلي^(١) :

قال : إن هذه الأوراق تحل منا محل الأولاد .

* * *

ومنهم : محمد بن علي بن وهب أبو الفتح تقي الدين ، ابن دقيق
العيد^(٢) :

كان من أذكىء زمانه ، واسع العلم ، كثير الكتب ، مديماً للسهر ، مكباً
على الاشتغال ، ساكناً وقوراً ورعاً ، قلَّ أن ترى العيون مثله .

قال الأذفوي : وكان له قدرةٌ على المطالعة ، رأيتُ خزانة المدرسة
النَّجيبية بقُوص فيها جملةُ كتب ، من جملتها : «عيون الأدلة» لابن القصار ،
في نحو من ثلاثين مجلدة وعليها علاماتٌ له ، وكذلك رأيتُ كتبَ المدرسة
السَّابِغية ، رأيتُ على «السُّنن» الكبير للبيهقي فيها ، في كلِّ مجلدة علامة ،
وفيها تاريخُ الخطيب كذلك ، و «معجمُ» الطُّبراني الكبير ، و «البيسط»
للواحدي وغير ذلك .

وأخبرني شيخنا الفقيه سراجُ الدِّين الدَّنْدرِيُّ : أنَّه لَمَّا ظهر «الشرحُ

(١) تاريخ دمشق ١١٨/٣٤ .

(٢) الطالع السعيد ص ٥٨٠ وص ٥٩٥ ، والمقفى ٦/٣٨١ ، وعقد الجمان ١/٣٢٠ .

الكبير» للرافعي اشتراه بألف درهم، وصار يصلّي الفرائض فقط، واشتغل بالمطالعة، إلى أن أنهاه مطالعة، ويقال إنه طالع كتب «الفاضلية» عن آخرها.

وكان غالباً في فاقة تلزمه الإضافة فيحتاج إلى الاستدانة، وقد تفضي به إلى بذل الوجه المعروف بالصيانة، أدعى عليه أمين الحكم بالقاهرة عند قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة بدين عليه لأيتام، فتوسط ابن جماعة بينهما، وقرّر معه أن تكون جامكية الكاملية للدين، والمدرسة الفاضلية لكلفه. ثم قال لابن دقيق العيد: أنا أشحّ عليك بسبب الاستدانة. فقال: ما يوقني في ذلك إلا محبة الكتب.

وقال بدر الدين العيني: وبلغني من شيخ الحديث فتح الدين ابن سيد الناس أن ولد الشيخ قال للشيخ: يا سيدي كيف قبلت الولاية في هذا الوقت وقد كنت تأبى عنها؟ فقال له: يا ولدي، وجب ذلك عليّ من وجوه، أحدها: أنه ليس لي شيء يكفيني للعيال، والثاني: عندي كتب العلم فأحتاج أن أبيع الكتاب الذي يساوي مائة بخمسين درهماً، والثالث: لم يبق لتولية القضاء من هو أحق مني بالولاية، فتعين عليّ.

* * *

ومنهم: محمد سعيد جرادة^(١):

يا صديقي مثلت بعدك في الخا	طرفالتاع للفراق الأليم
خفق القلب في الضلوع لأن الـ	بعد جزء من حر نار الجحيم
غير أنني ذكرت همتك العظمى	التي أغرمت بك كل عظيم
همة لم تزل تتوق إلى الأعلى	وتنبو عن الحقيير الذميم

(١) مشاعل الدرب ص ٤٤.

الحي في عزمه الأصيل الصميم
صدر السماء أسنى النجوم
وأهداه للطريق القويم
س ويجلو فيها صفاء الأديم
وموت الضمير بطر النعيم
ق في وجهها الوضيء الوسيم
ت بروز الشمس إثر الغيوم
أنزلته منازل التعظيم
ء طغرى قدسية الترقيم
المدى منزل الصديق الحميم
خب واللهو واصطناع النديم
عس في الدير حول نصب قديم

نبته أنت من أماني الشباب
بيئة الفقر أنجبتها كما ينجب
كرم الفقر ما أجل مراميه
صيقل يغسل النفوس من الرج
وينقي الضمير من بطر النعمى
هو سر الحياة والجانب المشر
من مجاليه تبرز العبقريا
سل صدور الأسفار عن كل فذ
تجد الفقر في صحيفته البيضا
يا حليف الكتاب أنزلته مر
وسلوت الألحان والمرح الصا
أبدأ عاكفاً عليه عكوف الـ

* * *

ومنهـم : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الخشّاب ، النّحويّ^(١) :
كان له كُتُب كثيرة إلى الغاية ما لا يدخل تحت الحصر ، ومن خطوط
الفضلاء وأجزاء الحديث شيئاً كثيراً .

ذكر ابن النجار : أنه لم يمت أحد من أهل العلم وأصحاب الحديث إلّا
وكان يشتري كتبه كلها ، فحصلت أصول المشايخ عنده ، وكان لا يخلو كـمه
من كتب العلم . وكان يُديم القراءة طول النّهار من غير فُتور .

(١) إنباه الرواة ٢/١٠٠ ، والذيل على طبقات الحنابلة ١/٣١٩ ، والمنهج الأحمد
٣/٢٦١ ، وشذرات الذهب ٦/٣٦٦ ، والعلماء العزّاب ص ١٣٥ ، وصفحات من
صبر العلماء ص ٣٢١ .

وكانت له دار عتيقة ولأخ له ومن شاركهما في ورثة أبيه ، وله منها صُفَّةٌ كبيرة منفردة ، وبها بوارئُ قَصَب - أي حُصْرٌ - مفروشة ، وفي صدرها ألواح من الخشب مرصوص عليها كتب له ، أقامت عِدَّةَ سنين ما أُزيل عنها الغُبار ، وكانت تلك البوارى استترت بما عليها من التراب ، يقعد في جانب منها ، والباقي على تلك الحالة ، وقيل : إن الطيور عَشَّشت فوق الكتب وفي أثنائها .

وقال تلميذه أبو محمد ابن الأخضر : دخلت عليه يوماً وهو مريض ، وعلى صدره كتاب ينظر فيه ، قلت : ما هذا؟ قال : ذَكَرَ ابنُ جُنِّي مسألةً في النحو ، واجتهد أن يستشهد عليها ببيت من الشعر فلم يحضره ، وإني لأعرف على هذه المسألة سبعين بيتاً من الشعر ، كُلُّ بيتٍ من قصيدة .

وقال سبط ابن الجوزي : حضر يوماً سوق الكتبيين فنودي على كتاب بخمسمائة دينار ولم يكن عنده شيء فاشتراه ، وقال : أخروني ثلاثة أيام ، ثم مَضَى ونادَى على داره فبلغتْ خمس مئة دينار ، فنقدهُ صاحبُها ، وباعه بخمس مئة دينار ، ووفَّى ثَمَنَ الكتب ، وبيعتْ له الدار . ولما مرض أشهد عليه بوقف كتبه فتفرقت وبيع أكثرها ولم يبق إلا عشرها ، فتركت في رباط المأمونية وقفاً . رحمه الله .

* * *

ومنهم : ولي الدين يكن^(١) :

هواي هوى لم يذخر الناس مثله به طبت ما بين الكرام وطابا
أحب الليالي لا للهو وإنما لأقرأ سفرأ أو أخط كتابا

* * *

(١) ديوان ولي الدين يكن ص ٤١ .

ومنهم: أبو العلاء الحسن بن أحمد بن سهل العطار
الهمداني^(١):

باع جميع ما ورثه، وكان من أبناء التجار، وأخرجه في طلب العلم،
حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرات كثيرة ماشياً، وكان يحمل كتبه على
ظهره. قال: كنت أبيت ببغداد في المساجد، وأكل خبز الدخن.

قال الإمام طلحة بن مظفر العلثي: بيعت كتب ابن الجواليقي في
بغداد، فحضرها الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن سهل العطار
الهمداني، فنادوا على قطعة منها بستين ديناراً، فاشتراها الحافظ أبو العلاء
بستين ديناراً، والانظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس، فخرج الحافظ
واستقبل طريق همدان، فوصل فنادى على دار له، فبلغت ستين ديناراً،
فقال: بيعوا، قالوا: تبلغ أكثر من ذلك، قال: بيعوا، فباعوا الدار بستين
ديناراً فقَبَضَها ثم رجع إلى بغداد، فدخلها يوم الخميس فوقى الثمن،
ولم يشعر أحد بحاله إلا بعد مدة.

توفي رحمه الله ليلة الخميس، تاسع عشر جمادى الأولى، سنة تسع
وستين وخمس مئة، ورُئي في المنام في مدينة جميع جدرانها من الكتب،
وحوله كتب لا تُحَدُّ، وهو مشغل بمطالعتها، ف قيل له: ما هذه الكتب؟
قال: سألت الله تعالى أن يشغلني بما كنتُ أشتغلُ به في الدنيا، فأعطاني.
رحمه الله تعالى.

* * *

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٣٢٨/١، وتاريخ الإسلام ٣٣٥/٣٩، وسير أعلام
النبلأ ٤٢/٢١، وشرح الصدور ص ٢٥٦، وأهوال القبور ص ٧٢، والمنهج
الأحمد ٢٦٧/٣، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٢٣.

ومنهم : عامر البحيري^(١) :

جديد، عليه جلال القدم	قويّ الشدى، عبقريّ النغم!
صديقٌ إذا عزّت الأصدقاء	قريبٌ، كأنّي به ذو رحم
تجمّع في دفتيه الهدى	وسحر العلوم، وفيض النظم
يعلّم آدم أسماءه	ولولا السّجلُ به ما علم
تضيء وصاياه للعالمين	إذا ما الكليم تلقى الكلم
ففي الطور يسطع، أو في الجليل	ويغشى حراء بأعلى القمم
فأكرم به من نجيّ القلوب	صديق الشعوب، وهادي الأمم!

*

يطالعني مع شمس الصباح	وقد غرقت في بحار السّدم
وأرنو له من خلال الشعاع	فيبدو خفيّ، ويُجلى قتم
أصادفه حيث فارقته	فقد نمتُ .. لكنه لم ينم ..!
مقيمٌ على مكتبي لم يزل	كطيرٍ على عُشه قد جثم
يشرُّ على صمته ضجّة	وإن عبرت كرفيق النّسم
أظّل أناجيه في وحدتي	فأذري له الدمع، أو أبتسم
ذكرتُ كتابي فالفيثه	سمير الصبيّ، وشغل الهرم
أوجل من أجله موعدي	وأنسى لقاء حبيبٍ قديم ..
خميلةٌ قلبي إذا صبا	ومرقاً دمعي إذا ما أنسجم
أضعتُ له فُرصي في الحياة	وما بثّ مستشعراً للنّدم
وقوفي على صفحات الكتاب	وقوف الحجيح على الملتزم!

* * *

(١) ديوان عامر البحيري ص ٤٣٣ من قصيدة «اتحاد الكتاب» .

ومنهم : من الأمراء : الحَكَم المستنصر بالله^(١) :

هو أبو العاص ابن الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي، صاحب الأندلس، بقي في المملكة بعد أبيه ستة عشر عاماً، وعاش ثلاثاً وستين سنة. كان محباً للعلماء والعلم، وجمع من الكتب ما لم يجمعه واحد من ملوك العرب لا قبله ولا بعده.

كان يستجلب المصنّفات من الأقاليم والتواحي، باذلاً فيها ما أمكن من الأموال، حتّى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرام بها، قد أثر ذلك على لذات الملوك.

قال ابن الأثير: وقلّ ما نجد له كتاباً من خزائنه إلّا وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فنّ كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلّا عنده لعنايته بهذا الشأن^(٢).

* * *

ومنهم : بيرم التونسي^(٣) :

ليلي لزبي وأسفاري وأوراقه لكن نهاري لأصحابي وأرزاقه

(١) مرآة الزمان طبعة الثقافة ص ٢٣٢، والحلة السراء ٢٠١/١، وتاريخ الإسلام ٣٥٨/٢٦ (وانظر الحاشية)، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٨٩.

(٢) نقل عبد الفتاح أبو غدة من كتاب حضارة العرب ص ٥٢٦ لغوستاف لوبون قوله: كان للعرب في إسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحَكَم الثاني بقرطبة ست مئة ألف كتاب، منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس كما روى مؤرخو العرب، وقد قيل بصدد ذلك: إنّ شارل الحكيم لم يستطع بعد أربع مئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسة الملكية أكثر من تسع مئة مجلد، يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاهوت.

(٣) رباعيات بيرم التونسي ص ٤٩، قصيدة بعنوان «ليلي ونهاري».

الليل - إن طاف - يُلقيني بمكتبتني
كراهب الدّير قوَّاماً على ساق
أتلو، وأكتب، أو أدعو بملء دمي
حتى يميل كَرَى رأسي وأحداقي
وأسبق الديك صحواً، كي أعود لها
حتى الصباح، فأسعى بين آفاقي

* * *

ومنهم، من الذين وهبوا أيامهم له حتّى في الأعياد، موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد^(١) :

قال ابنه أبو الحسن علي في أثناء خطبة المُغْرِب ما نصه عنه :

... وبعد، فهذا كتابٌ راحةٍ قد تعبت في جمعه الأسماع والأبصار والأفكار، وكل عناء سهل إذا أنجح القصد، وقد بدأ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة، ومنتهاه إلى غرة سنة إحدى وأربعين وستمائة.

قال : وأول مَنْ كان السبب في ابتداء هذا الكتاب جدّ والدي عبد الملك بن سعيد، وهو إذ ذاك صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر إلى أن استبدّ بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقصّده في سنة ثلاثين وخمسمائة حافظ الأندلس أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن الحجاري، وصنف له كتاب «المسهب في غرائب المغرب» في نحو ستة أسفار، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذي ابتدأه فيه، وهو سنة ثلاثين وخمسمائة.

ثمّ ثار في خاطر عبد الملك أن يضيف إليه ما أغفله الحِجاري، وتولع بمطالعة ابنه أبو جعفر ومحمد، وأضافا له ما استفاداه، ولم يزل يزيد إلى أن استبدّ به محمد، فاعتنى به أشدّ اعتناء، ثم استبدّ به والدي - وكان

(١) نفع الطيب ٢/٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٤ و ص ٣٥٢ - ٣٥٦، والمغرب في حلي المغرب ١/٤ و ١٧٠/٢.

أعلمهم بهذا الشأن - وبلغ من اجتهاده في هذا الكتاب أنني أذكره يوماً وقد نوه به ابن هود وهو ملك الأندلس وولاه الجزيرة الخضراء، فأعلمه شخص أن عند أحد المنسويين إلى بيت نباهة كرايس من شعر شعرائها، وأخبار رؤسائها، الذين تحتوي عليهم دول بني عبد المؤمن، فأرسل إليه راغباً في استعارتها، فأبى وقال: عليّ يمين أن لا تخرج عن منزلي، وقال: إن كانت له حاجة يأتي على رأسه، وكان جاهلاً.

فلما سمع والدي ضحك وقال: سر معي إليه، فقلت له: ومن يكون هذا حتى نمشي له على هذه الصورة؟ فقال: إني لا أمشي له، ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكرايس أشعارهم وأخبارهم، أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أنفت أن أمشي إليهم؟ قلت: لا، قال: فإن الأثر ينوب عن العين.

فمشينا إلى منزل الرجل، فوالله ما أنصفنا في اللقاء؛ فلما قضينا منها الغرض صرّفها إليه والدي وشكره، وقال: هذه فائدة لم أجدها عند غيرك، فجزاك الله تعالى خيراً، ثم انفصل وقال: ألم تعلم يا بني أنني سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية، وإن هذا والله أول السعادة، وعنوان نجاحها.

وقال في والده لما عرّف به: ولولا أنّه والدي لأطنبت في ذكره، ووفيته من الوصف حق قدره، لكن كفاه وصفاً ما أثبتّه له في هذه الترجمة، وما مر له ويمر في أثناء هذا الكتاب، وكون كل من اشتغل بهذا التأليف نهراً وهو بحر، واشتহারه في حفظه التاريخ والاعتناء بالآداب في بلاده، بحيث لا يحتاج إلى تنبيه ولا إطناب، وله من النظم والنثر ما تضج الأقلام من كثرته، ويستمد القطر من درّته.

ومما شاهدت من عجائبه أنّه عاش سبعاً وستين سنة ولم أره يوماً يخلي مطالعة كتاب أو كتب ما يخلده، حتى إن أيام الأعياد لا يخليها من

ذلك، ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب، فقلت له: يا سيدي، أفي هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إلي كالمغضب وقال: أظنك لا تُفلح أبداً، أترى الراحة في غير هذا؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، ولوددت أن الله تعالى يُضاعف عمري حتى أتم كتاب «المغرب» على غرضي.

قال: فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله لا ألتذ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن، ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه.

وكان أولع الناس بالتجول في البلدان، ومشاهدة الفضلاء، واستفادة ما يرى وما يسمع.

وفي تولعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول:

يا مَفْنِياً عُمُرَهُ فِي الْكَأْسِ وَالْوَتَرِ وَرَاعِياً فِي الدُّجَى لِلْأَنْجَمِ الزُّهْرِ
يَبْكِي حَبِيباً جَفَاهُ أَوْ يَنَادِمُ مَنْ يَهْفُو لَدَيْهِ كَغُضْنِ بِاسْمِ الزُّهْرِ
مَنْعَمًا بَيْنَ لَذَاتٍ يَمْحَقُهَا وَلَا يَخْلُدُ مِنْ فَخْرِ وَلَا سِيرِ
وَعَاذَلاً لِي فِيمَا ظَلْتُ أَكْتُبُهُ

يبيدي التعجب من صبري ومن فكري

يَقُولُ مَا لَكَ قَدْ أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ فِي حَبْرِ وَطَرَسَ عَنِ الْأَعْصَارِ وَالْخَبْرِ
وظَلَّتْ تَسْهَرُ طَوْلَ اللَّيْلِ فِي تَعَبٍ وَلَا تَنْسِي أَمَدَ الْأَيَّامِ فِي ضَجَرِ
أَقْصِرْ فَإِنِّي أَذْرِي بِالذِّي طُمَحَتِ لَأَفْقَهُ هَمَّتِي وَاسْأَلْ عَنِ الْأَثَرِ
وَاسْمَعْ لِقَوْلِ الذِّي تُثْلِي مُحَاسِنُهُ مِنْ بَعْدِ مَا صَارَ مِثْلَ التُّرْبِ كَالسُّورِ
«جَمَالَ ذِي الْأَرْضِ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ وَهُمْ

بعد الممات جمال الكتب والسير»

وقال أبو الحسن علي أيضاً: لَمَّا أَرَدْتُ النُّهُوضَ مِنْ ثَغْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ

إلى القاهرة أول وصولي إلى الإسكندرية، رأى^(١) أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربية، فبقي فيها أياماً إلى أن كتبها عنه.

[وفيه]: يا بني الذي لا ناصح له مثلي، ولا منصوح لي مثله؛ قدمت لك هذا النظم... [إلخ]، وفي أمثال العامة: من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل، فاحتذي مثله مَنْ جَرَّبَ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم، وزُبْدَةُ تجاربهم، ولا تتكل على عقلك، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طولَ أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربهم يُربحك، ويقع عليك رخيصةً، وإن رأيت مَنْ له مروءةٌ وعقل وتجربة فاستفد منه، ولا تضيّع فعله ولا قوله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك، وحثاً لك واهتداء... [إلخ، رحمهم الله جميعاً].

* * *

ومنهم: أبو عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي (ابن المكوي)^(٢):

هو: مولى بني أمية، وسكن قرطبة، شيخ فقهاء الأندلس في وقته، تفقه بأبي إبراهيم وصحبه، وكان أبو إبراهيم يتفرس فيه النجابة فحرضه واعتنى به، وكان قد حُبب إليه الدرس مدة عمره لا يفتر عنه ليله ونهاره، ورجحت فيه لذته.

ذكر أن صديقاً له قصده في عيد زائراً له فأصابه داخل داره وداره مفتوح، فجلس منتظره وأبطأ عليه، فأوصى إليه فخرج وهو ينظر في كتاب

(١) أي: والده موسى بن محمد، وقد جعل الوصية منظومة في ٣٩ بيتاً من الشعر أتبعها بكلام منشور مستشهداً بأشعار وأمثال.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٦٣٥، وصفحات من صبر العلماء ص ١٣٠.

فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه لاشتغال باله بالكتاب، فتنبه حينئذ له، وسلم عليه، واعتذر إليه من احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه، فقال له الرجل: في أيام عيد ووقت راحة مسنونة؟

فقال: إذا علمت بهذه النفس انصبت إلى هذه المعرفة، والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة.

* * *

ومنهم: أبو جعفر محمد ابن مهرويه، وأبو طاهر ابن شبّه: قال أبو جعفر محمد بن القاسم بن مهرويه^(١): خرجت أنا وأبو طاهر ابن عمر بن شبّه في يوم عيد ونحن ننظر في دفتر والناس يمرون بنا، فقال أبو طاهر:

نَظَرْتُ فَلَمْ أَرِ فِي الْعَسْكَرِ	كَشُومِي وَشُومِ أَبِي جَعْفَرِ
غَدَا النَّاسُ لِلْعِيدِ فِي زِينَةٍ	مِنَ الْيَوْمِ فِي مَنَظَرِ أَزْهَرِ
وَيَغْدُو عَلَيْهِمْ بِلا أَهْبَةِ	فِرَاراً مِنَ الْمَنْزِلِ الْمُقْفَرِ
فَنَقُودُ لِلشُّومِ فِي عُزْلَةٍ	مِنَ النَّاسِ نَنُظَرُ فِي دَفْتَرِ

* * *

ومنهم: الإمام عبد الرحمن ابن الجوزي: قال في رسالته اللطيفة «رسالة في الحث على طلب العلم»^(٢)، متحدثاً لولده عن نشأته ومبتدأ حاله:

وإني لأذكر لك بعض أحوالي، لعلك تنظر إلى اجتهادي، أو تسأل

(١) نور القبس ص ٢٣١، ومعجم الأدباء ١٦/٦٢.

(٢) ص ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٥ (بتصرف)، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٢٤.

الموفق لي . فإنني أذكر نفسي ولي همة عالية ، وأنا في المكتب ، ولي نحو من ست سنين ، وأنا قرين الصبيان ، رُزِقْتُ عقلاً في الصَّغَرِ يزيد على الأشياخ ، فَمَا أَذْكَرُ أَنِي لعبت في طريقٍ مع صبي ، ولا ضحكت ضحكاً خارجاً ، حتى إِنِّي كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع ، ولا أتخير حلقة مشعبذ ، بل أطلب المُحَدِّث فيتحدث بالسمر الطويل ، فأحفظ ، فأرجع إلى البيت فأكتبه .

ولقد كان الصبيان ينزلون دجلة ، ويتفرجون على الجسر ، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً ، وأقعد حجرة من الناس إلى جانب الرقة ، فأتشاغل بالعلم ، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العد ، ولا سبق ، وكنت أصبح وليس لي ما أكل ، وأمسي وليس لي شيء .

واعلم يا بني : أن أباك كان له والد موسر ، خَلَفَ ألوفاً من المال ، وكان أبوك طفلاً ، فأنفق عليه من ذلك إلى أن بلغ ، ولم ير بعد بلوغه سوى دارين ، كان يسكن واحدة ، ويأخذ أجرة أخرى ، ثم أعطي نحو عشرين ديناراً قبل هذه التركة كلها ، فاشترى كتباً من كتب العلم ، وباع داريه وأنفقهما في طلب العلم ، ولم يبق له شيء ، وما ذَلَّ في طلب الدنيا كذل غيره ، ولا خرج يطوف البلدان كغيره من الوعاظ ، ولا رأى أكابر البلدان رقاعه عندهم يستعطيهم ، وأموره تجري على السداد .

ولو شرحت أحوالي ، طال الشرح ، وها أنا ، ترى ما قد آلت الحال إليه ، وأنا أجمعه لك في كلمة واحدة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . اهـ .

وقال في كتابه «صيد الخاطر»^(١) متحدثاً عن علو الهمة والكتب في فصول جمعت بينهما :

(١) صيد الخاطر ص ٤٤٥ ، ٧٠٩ ، ٣٢٤ ، ٧٠٦ ، ٤٠١ ، ٣٩٥ - ٣٩٧ (بتصرف) .

* تَأْمَلْتُ عَجَبًا، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفِيسٍ خَطِيرٍ يَطُولُ طَرِيقُهُ وَيَكْثُرُ التَّعَبُ فِي تَحْصِيلِهِ.

فَإِنَّ الْعِلْمَ لَمَّا كَانَ أَشْرَفَ الْأَشْيَاءِ؛ لَمْ يَحْصُلْ إِلَّا بِالتَّعَبِ وَالسَّهَرِ وَالتَّكْرَارِ وَهَجْرِ اللَّذَاتِ وَالرَّاحَةِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: بَقِيَتْ سِنِينَ أَشْتَهِي الْهَرِيسَةَ لَا أَقْدِرُ؛ لِأَنَّ وَقْتَ بَيْعِهَا وَقْتُ سَمَاعِ الدَّرْسِ!

وَلَوْلَا مَا عَانَى يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ مَا قِيلَ لَهُ: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

وَلَقَدْ تَأْمَلْتُ نَيْلَ الدَّرِّ مِنَ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ مَعَانَاةِ الشَّدَائِدِ. وَمَنْ تَفَكَّرَ فِيمَا ذَكَرْتُهُ مَثَلًا؛ بَانَتْ لَهُ أَمْثَالُ.

* وَمَا يَتَنَاهَى فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا عَاشِقُ الْعِلْمِ، وَالْعَاشِقُ يَنْبَغِي أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَكَارِهِ.

* وَأَعْظَمُ الْبَلَايَا: أَنْ يُعْطِيَكَ هِمَّةٌ عَالِيَةٌ، وَيَمْنَعَكَ مِنَ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، وَيُرِيكَ الْعُلُومَ فِي مَقَامٍ مَعْشُوقٍ، وَيُضْعِفَ بِذَلِكَ عَنِ الْإِعَادَةِ، وَيُخْلِي يَدَيْكَ مِنَ الْمَالِ الَّذِي تَحْصُلُ بِهِ الْكُتُبُ!

* كَانَتْ هِمَمُ الْقَدَمَاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ، تَدُلُّ عَلَيْهَا تَصَانِيفُهُمُ الَّتِي هِيَ زُبْدَةُ أَعْمَارِهِمْ؛ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ تَصَانِيفِهِمْ دَثَرَتْ؛ لِأَنَّ هِمَمَ الطُّلَابِ ضَعُفَتْ، فَصَارُوا يَطْلُبُونَ الْمُخْتَصِرَاتِ، وَلَا يَنْشِطُونَ لِلْمَطَوَّلَاتِ، ثُمَّ اقْتَصَرُوا عَلَى مَا يَدْرُسُونَ بِهِ مِنْ بَعْضِهَا، فَدَثَرَتْ الْكُتُبُ، وَلَمْ تُنْسَخْ!

فَسَبِيلُ طَالِبِ الْكَمَالِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي قَدْ تَخَلَّفَتْ مِنَ الْمَصْنُفَاتِ، فَلْيُكْثِرْ مِنَ الْمَطَالَعَةِ؛ فَإِنَّهُ يَرَى مِنْ عِلْمِ الْقَوْمِ وَعِلْوِ هِمَمِهِمْ مَا يَشْحَذُ خَاطِرَهُ وَيَحْرِّكُ عَزِيمَتَهُ لِلْجَدِّ، وَمَا يَخْلُو كِتَابٌ مِنْ فَائِدَةٍ.

وأعوذ بالله من سِيرِ هؤلاء الذين نعاشرهم! لا نرى فيهم ذا هِمَّةٍ عاليةٍ فيقتدي بها المبتدي. ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد.

فَاللَّهِ اللَّهُ! وعليكم بملاحظة سِيرِ السَّلَفِ ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم؛ فالاستكثار من مطالعة كُتُبِهِم رؤية لهم؛ كما قال:

فَاتَنِّي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي فَلَعَلِّي أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِي

وإني أخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره؛ فكأنني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبَتِ الكتبِ الموقوفة في المدرسة النظامية؛ فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبَتِ كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشاب وكانت أحمالاً... وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد؛ كان أكثر، وأنا بعد في الطلب! فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سِيرِ القوم وقدر هممهم وحفظهم وعبادتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرْتُ أسترزي ما الناس فيه وأحتقر همم الطلاب. والله الحمد.

* ونظرت إلى علو همتي؛ فرأيتها عجباً، وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أنني لا أصل إليه؛ لأنني أحب نبل كل العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاء كل فن! هذا أمرٌ يعجزُ العمرُ عن بعضه.

فإن عَرَضَ لي ذو هِمَّةٍ في فنٍّ قد بَلَغَ مُنتَهَاهُ؛ رأيتُه ناقصاً في غيره؛ فلا أعدُّ هِمَّتَهُ تامةً؛ مثل المحدث فاته الفقه، والفقيه فاته علم الحديث؛ فلا أرى الرضى بنقصان العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة.

ثم إني أروم نهاية العمل بالعلم، فأثوق إلى ورع بشرٍ وزهادة معروف! وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد.

ثم إني أرومُ الغنى عن الخلقِ، وأستشرفُ الإفضالَ عليهم! والاشتغالُ بالعلم مانعٌ من الكسبِ، وقبولُ المنِّ مما تأباهُ الهمةُ العاليةُ.

ثم إني أتوقُّ إلى طلبِ الأولادِ كما أتوقُّ إلى تحقيقِ التصانيفِ؛ ليبقى الخلفانِ نائِبَيْنِ عني بعد التَّلفِ! وفي طلبِ ذلك ما فيه من شغلِ القلبِ المحبِّ للتفرُّدِ.

ثم إني أرومُ الاستمتاعَ بالمستحسَناتِ! وفي ذلك امتناعٌ من جهةِ قلةِ المالِ، ثم لو حصَلَ؛ فَرَّقَ جَمَعَ الهمةُ.

وكذلك أطلبُ لبدني ما يُصلِحُهُ من المطاعمِ والمشارِبِ، فَإِنَّهُ مُتَعَوِّدٌ لِلتَّرَفِ والتَّلَطُّفِ! وفي قلةِ المالِ مانعٌ. وكلُّ ذلك جَمَعَ بين أضدادٍ.

فأين أنا وما وصفتهُ من حالٍ مَنْ كانت غايةَ هِمَّتِهِ الدُّنيا، وأنا لا أحبُّ أنْ يَخْدَشَ حصولُ شيءٍ من الدُّنيا وَجَهَ دِيني بسببٍ، ولا أنْ يُوَثِّرَ في عَمَلي ولا في عَمَلي؟!

فوا قلقي من طلبِ قيام الليل وتحقيقِ الورعِ؛ مع إعادةِ العلمِ، وشغلِ القلبِ بالتصانيفِ، وتحصيلِ ما يلائمُ البدنَ من المطاعمِ! ووا أسفي على ما يفوتني من المُنَاجاةِ في الخلوةِ؛ مع ملاقاتِ الناسِ وتعليمِهِم! ويا كَدَرَ الورعِ؛ مع طَلَبِ ما لا بدَّ منه للعائلةِ!

غير أنني قد اسْتَسَلَمْتُ لتعذيبي، ولعلَّ تَهْذِيبِي في تعذيبي؛ لأنَّ علوَّ الهِمَّةِ تَطْلُبُ المعالي المقرَّبَةَ إلى الحقِّ عزَّ وجلَّ.

وربَّما كانتِ الحَيْرَةُ في الطَّلَبِ دليلاً إلى المقصودِ.

وها أنا أحفظُ أنفاسي من أنْ يَضِيعَ منها نفسٌ في غير فائدةٍ.

وإن بَلَغَ هَمِّي مراده، وإلا؛ فنيةُ المؤمنِ أبلغُ من عمله .

* تأملتُ أحوالَ الناسِ في حالةِ علُو شأنِهِم، فرأيتُ أكثرَ الخَلْقِ تبيينَ خسارتِهِم حينئذٍ؛ فمنهُم مَن بَلَغَ في المعاصي مِنَ الشبابِ، ومنهُم من فرطَ في اكتسابِ العلمِ، ومنهُم مَن أكثرَ من الاستمتاعِ باللذاتِ . . . فكلُّهم نادِمٌ في حالةِ الكِبَرِ، حينَ فواتِ الاستدراكِ لذُنُوبِ سَلَفَتِ، أو قُوَى ضَعُفَتِ، أو فضيلةُ فاتتِ، فيمضِي زمانُ الكِبَرِ في حَسراتٍ؛ فإن كانتَ للشيخِ إفاقةٌ من ذُنُوبٍ قد سَلَفَتِ؛ قالَ: وا أسفا على ما جَنَيْتُ! وإن لم يكنْ له إفاقةٌ؛ صارَ متأسِّفاً على فواتِ ما كانَ يَلْتَذُّ بهِ .

فأما مَن أنفقَ عَصَرَ الشَّبابِ في العلمِ؛ فإنه في زمنِ الشيخوخةِ يَحْمَدُ جَنَى ما عَرَسَ، ويلتذُّ بتصنيفِ ما جَمَعَ، ولا يرى ما يَفْقِدُ من لَذَاتِ البدنِ شيئاً بالإضافةِ إلى ما ينالُهُ من لذاتِ العلمِ، هذا مع وجودِ لَذَاتِهِ في الطلبِ الذي كانَ تَأَمَّلَ بهِ إدراكَ المطلوبِ، وربما كانت تلكَ الأعمالُ أُطِيبَ ممَّا نيلَ منها؛ كما قال الشاعرُ:

أهْتَرُ عِنْدَ تَمَنِّي وَصَلِهَا طَرَباً وَرُبَّ أُمْنِيَةٍ أَحْلَى مِنَ الظَّفَرِ

ولقد تأملتُ نفسي بالإضافةِ إلى عَشيرتي الذين أنفقوا أعمارَهُم في اكتسابِ الدُّنيا، وأنفقتُ زَمَنَ الصَّبُوةِ والشبابِ في طلبِ العلمِ، فرأيتُني لم يَفُتْنِي مما نالُوهُ؛ إلا ما لو حَصَلَ لي؛ ندمتُ عليه .

ثم تأملتُ حالي؛ فإذا عَيْشِي في الدُّنيا أجودُ من عَيْشِهِم، وجاهي بينَ الناسِ أعلى من جَاهِهِم، وما نلتُهُ من معرفةِ العلمِ لا يقاومُ .

فقال لي إبليسُ: وَنَسِيتَ تَعَبَكَ وَسَهَرَكَ؟!

فقلتُ له: أيُّها الجاهلُ! تقطيعُ الأيدي لا وَقَعَ له عند رؤيةِ يوسفَ، وما طالت طريقُ أدَّتْ إلى صَدِيقِ .

جَزَى اللَّهُ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ

ولقد كنتُ في حَلَاوَةِ طَلْبِي الْعِلْمَ أَلْقَى مِنَ الشَّدَائِدِ مَا هُوَ عِنْدِي أَحْلَى
مِنَ الْعَسَلِ لِأَجْلِ مَا أَطْلُبُ وَأَرْجُو، كُنْتُ فِي زَمَانِ الصَّبَا أَخْذُ مَعِيَ أَرْغِفَةً
يَابِسَةً، فَأَخْرُجُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ، وَأَقْعُدُ عَلَى نَهْرِ عَيْسَى، فَلَا أَقْدِرُ عَلَى
أَكْلِهَا إِلَّا عِنْدَ الْمَاءِ؛ فَكَلَّمَا أَكَلْتُ لَقْمَةً، شَرِبْتُ عَلَيْهَا، وَعَيْنُ هِمَّتِي لَا تَرَى
إِلَّا لَذَّةَ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ.

فَأَثْمَرَ ذَلِكَ عِنْدِي أَنِّي عُرِفْتُ بِكَثْرَةِ سَمَاعِي لِحَدِيثِ سِيرِ الرَّسُولِ ﷺ
وَأَحْوَالِهِ وَأَدَابِهِ وَأَحْوَالِ أَصْحَابِهِ وَتَابِعِيهِمْ، فَصِرْتُ فِي مَعْرِفَةِ طَرِيقِهِ
كَابْنِ أَجْوَدَ.

وَأَثْمَرَ ذَلِكَ عِنْدِي مِنَ الْمَعَامَلَةِ مَا لَا يُدْرِكُ بِالْعِلْمِ، حَتَّى إِنِّي أَذْكُرُ فِي
زَمَانِ الصَّبَوَةِ وَوَقْتِ الْغُلْمَةِ وَالْعُزْبَةِ، قَدَرْتِي عَلَى أَشْيَاءَ كَانَتْ النَّفْسُ تَتَوَقَّ
إِلَيْهَا تَوَقَّانِ الْعَطْشَانِ إِلَى الْمَاءِ الزُّلَالِ، وَلَمْ يَمْنَعْنِي عَنْهَا إِلَّا مَا أَثْمَرَ عِنْدِي
الْعِلْمُ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا خَطَايَا لَا يَخْلُو مِنْهَا الْبَشَرُ؛ لَقَدْ كُنْتُ
أَخَافُ عَلَى نَفْسِي مِنَ الْعُجْبِ.

غَيْرَ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَانِعِي وَعَلَّمَنِي وَأُطْلَعَنِي مِنْ أَسْرَارِ الْعِلْمِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ
وَإِثَارِ الْخَلْوَةِ بِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْ حَضَرَ مَعِيَ مَعْرُوفٌ وَيَشْرٌ، لَرَأَيْتُهُمَا زَحْمَةً. ثُمَّ
عَادَ، فَغَمَسَنِي فِي التَّقْصِيرِ وَالتَّفْرِيطِ، حَتَّى رَأَيْتُ أَقْلَ النَّاسِ خَيْرًا مِنِّي. وَتَارَةً
يُوقِظُنِي لِقِيَامِ اللَّيْلِ وَلَذَّةِ مَنَاجَاتِهِ، وَتَارَةً يَحْرِمُنِي ذَلِكَ مَعَ سَلَامَةِ بَدَنِي. وَلَوْلَا
بِشَارَةُ الْعِلْمِ بِأَنَّ هَذَا نَوْعٌ تَهْذِيبٍ وَتَأْدِيبٍ؛ لَخَرَجْتُ إِمَّا إِلَى الْعُجْبِ عِنْدَ
الْعَمَلِ، وَإِمَّا إِلَى الْيَأْسِ عِنْدَ الْبَطَالَةِ.

لَكِنَّ رَجَائِي فِي فَضْلِهِ قَدْ عَادَلَ خَوْفِي مِنْهُ.

وَقَدْ يَغْلِبُ الرِّجَاءُ بِقُوَّةِ أَسْبَابِهِ؛ لِأَنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ قَدْ رَبَّنَانِي مِنْذُ كُنْتُ

طفلاً، فإنَّ أبِي ماتَ وأنا لا أُعْقِلُ والأُمُّ لم تلتفتْ إليَّ، فَرَكَزَ في طبعي حبُّ العلم، وما زال يوقِّعُني على المهمِّ فالمهمِّ، ويَحْمِلُني إلى مَنْ يَحْمِلُني على الأصوب، حتى قَوِّمَ أَمْرِي، وكم قد قَصَدَني عدوٌّ فَصَدَّه عَنِّي.

وَإِذْ رَأَيْتُهُ قد نَصَرَنِي وَبَصَّرَنِي ودافَعَ عَنِّي وَوَهَّبَ لي؛ قَوِي رَجَائِي في المستقبل بما قد رَأَيْتُ في الماضي، ولقد تَابَ على يَدِي في مجالس الذِّكْرِ أَكْثَرُ من مِثِّي أَلْفَ، وأَسْلَمَ على يَدِي أَكْثَرُ من مِثِّي نفس، وكم سَأَلْتُ عَيْنَ مَتَجَبَّرٍ بوُعْظِي لم تَكُنْ تَسِيلُ... وَيَحِقُّ لِمَنْ تَلَمَّحَ هَذَا الإِنْعَامَ أَنْ يَرْجُو الثَّمَامَ.

وربما لاحَتْ أسبابُ الخوفِ بَنَظَرِي إلى تقصيري وزَلَّي.

ولقد جَلَسْتُ يوماً، فَرَأَيْتُ حَوْلِي أَكْثَرَ من عَشْرَةِ أَلْفٍ، ما فيهِم إلا مَنْ قَدْ رَقَّ قَلْبُهُ، أو دَمَعَتْ عَيْنُهُ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: كَيْفَ بَكَ إِن نَجَوْا وَهَلَكْتَ؟! فَصَحْتُ بِلِسَانٍ وَجَدِي:

إِلَهِي وَسَيِّدِي! إِن قَضَيْتَ عَلَيَّ بِالْعَذَابِ غَدَاً؛ فَلَا تُعَلِّمُهُمْ بِعَذَابِي؛ صِيَانَةً لِكَرَمِكَ، لَا لِأَجْلِي؛ لئَلَّا يَقُولُوا: عَذَّبَ مَنْ دَلَّ عَلَيْهِ.

إِلَهِي! قد قِيلَ لِنَبِيِّكَ ﷺ: اقْتُلْ ابْنَ أَبِي الْمُنَافِقِ! فقال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(١).

إِلَهِي! فاحْفَظْ حُسْنَ عَقَائِدِهِمْ فِي بَكْرِمِكَ أَنْ تُعَلِّمَهُمْ بِعَذَابِ الدَّلِيلِ عَلَيْكَ. حَاشَاكَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مِنْ تَكْدِيرِ الصَّافِي.

لَا تَبْرِ عُوداً أَنْتَ رَيْشَتُهُ حَاشَا لِإِبَانِي الْجُودِ أَنْ يَنْقُضَا

(١) رواه: البخاري (٦١) — كتاب المناقب، ٨ — باب ما ينهى من دعوى الجاهلية،

٣٥١٨/٥٤٦/٦، ومسلم (٤٥) — كتاب البر والصلة والآداب، ١٦ — باب نصر

الأخ ظالماً ومظلوماً، ٤/١٩٨٨/٢٥٨٤؛ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

لَا تُعْطِشُ الزَّرْعَ الَّذِي نَبَتْهُ بِصَوْبِ إِنْعَامِكَ قَدْ رَوَّضَا

* * *

ومنهم : محمد علي السنوسي^(١) :

في سبيل العلوم والآداب
عاشقٌ مدنف ومحبوبي الحرف
رأس مالي وقد بدأت من الصفر
وأب فاضل تعهد إرشادي
حين كنا ولا تسل كيف كنا
نحفظ الدرس في ضياء (الفوائس)
ونطيل الجلوس فوق حصير
حبر أقلامنا من الفحم مصنوع
لست أدري ما (الجامعات)
جامعاتي هي الحياة وأستاذي
والشهادات في يدي نتاج
ما عرفت الفراغ يوماً ولا اللهو
لعبتي إن لعبت سفر أناجيه
واقتناء الكتاب أشهى إلى نفسي
اقرأ اقرأ رسالة الله جاءت
لفظة فذة بها أصبح الجذب
وانطلقنا والريح تعصف أحياناً
وشراع الحياة في لجج الموج

ذاب قلبي هوى وشاب شبابي
وكم للحرف من أحبابي
طموحي وهمتي وكتابي
إلى منهج الهدى والصواب
نعصر الماء من أديم السراب
على شاحب من النور خاب
في (الكتاتيب) غارق في التراب
وأوراقنا من الأخشاب
وما فيها من الناجحين والرُساب
هو الدهرُ صانع الطلاب
أدبي وموقف إيجابي
ولا لعبة من الألعاب
وصحف أجلو بهن اكتسابي
وأحلى من اقتناء الثياب
لنبي الهدى أجل خطاب
خصيماً في عالم الأعراب
وترمي بالزورق المنساب
مُصرّاً على اجتياز العُباب

(١) الأعمال الكاملة، محمد علي السنوسي ص ٦٥٢، قصيدة بعنوان «عاشق الفن».

قَرَحْتُ عَيْنِي الْقِرَاءَةَ تَعْذِيباً وَحَبِي لَهَا يَزِيدُ عَذَابِي
كَلَّمَا رَمَتْ عَنْ هَوَاهَا سَلْوَى عُدْتُ مِنْ رَغْبَتِي بَغِيرَ جَوَابِي
ذَاكَ دَأْبِي مَدَى الزَّمَانِ وَطَبْعِي أَبْدَأُ فِي إِقَامَتِي وَاغْتِرَابِي
(عاشق الفن) مَا لَهُ مِنْ دَوَاءٍ أَعْجَزَ الطَّبِّ وَالْأَطْبَاءَ مَا بِي

* * *

ومنهـم : أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر
الخزرجي^(١) :

فارق الدنيا ولم تكن همته مصروفة إلا إلى العلم وأسبابه، اقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه الرائق، وامتنحن فيها مرّات بضروب من الجوائح كالغرق والنهب بغرناطة، فقد كان استصحب إليها من مراكش خمسة أحمال، ولَمَّا فصل عنها تركها مع ما صار له منها مدة مقامه بها، فأتى عليه النهب في الكائنة على أهل غرناطة عند قيامهم على لمتونة وتحصّن لمتونة بقصبتها وما دار بينهم من القتال إلى أن تغلب أهل القصبة على أهل البلد وتمكنوا من البلد تمكّن عنوة واستباحوه استباحة قهر، وفرّ معظم الناس عن منازلهم. فكان ممن فرّ عن منزله عيال أبي العباس هذا وبعض ولده الذين تركهم بها حين توجه إلى مراكش، فنهب ما كان بداره من كتب وغيرها.

وكذلك طرأ له بمراكش حين دخلها عبد المؤمن وطائفته، فقد كان جمع منها بمراكش عظيماً، وأخبر أنه كان في حين حصار مراكش - والحال بها ضيق والسعر شديد - أنه كان يخرج بالدرهم ليشتري به قوتاً لنفسه ولعِياله فربما صادف في طريقه كتاباً بيد إنسان فيشتريه منه بذلك الدرهم

(١) الذيل والتكملة ٢٩٩/١، والإحاطة ١٨٦/١، والديباج المذهب ٢١٣/١.

ويرجع دون قوت ويبقى هو وعياله طاوياً إلى أن ييسر الله في غيره .

* * *

ومنهم : محمود أبو الوفا^(١) :

إذا ضم الثرى جسدي ، وراحوا
وخلّوني . . رهيناً في التراب
وحيداً . . من أحبائي وأهلي
وممن قد عرفت من الصّحاب
فإنني ، سوف ألقى الله ربي
بقلبي ، ثم حُبِّي للكتاب

* * *

ومنهم : سند بن علي - عالم الهندسة والحساب
والفلك^(٢) - :

حدث شجاع بن أسلم الحاسب ، قال : قلت لسند بن علي : من كان
سببك إلى المأمون ، حتى اتصلت به ، وكنت في جلسائه ، من العلماء ؟
فقال : «أحدّثك به ، كان والدي يتكسّب بصناعة أحكام النجوم مع قوم
من أسباب السلطان يودّونه ويحبّونه ، وتعلّق قلبي بعد فراغي من قراءة
كتاب أقليدس بكتاب المجسطي .

وكان - في أيام المأمون بسوق الرّاقين - رجلٌ يُعرف بمعروف ،
يُورّق هذا الكتاب ويبيعه - بعد تكامل خطّه وأشكاله وتجليده - بعشرين

(١) محمود أبو الوفا ، دواوين شعره ص ٢٦٢ « قصيدة بعنوان «رهين التراب» .

(٢) المكافأة ص ١٤٠ ، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٧٥ .

ديناراً، فسألت والدي أبتباعه لي، فقال: أنظرني يا بُني إلى أن يتهياً لي شيء آخذه، إما من رزقي وإما من فضل، وأبتاعه لك.

وكان لي أخٌ لا يشتهي مما تقدمت أنا فيه من العلم شيئاً؛ إلا أنه كان يخدمُ أبي في حوائجه والإشفاق عليه، فلما سَوَّفني أبي بالكتاب وطالت المدة فيه، ركبْتُ معه لأمسك دَابَّتَه في دخوله إلى من يدخل إليه، ولي إذ ذاك سبع عشرة سَنَة. فخرج إليَّ غلمانٌ من كان عنده فقالوا: انصرف، فقد أقام أبوك عند مَوْلانا. فمضيت بالدَّابة فبعْتُها بسرَّجها ولجامها بأقلَّ من ثلاثين ديناراً، ومضيت إلى معروفٍ فاشتريتُ الكتابَ بعشرين ديناراً.

وكان لي بيتٌ أخلو فيه، وجئتُ إلى أمي فقلتُ لها: قد جنيتُ عليكمُ جنايةً، واقتصصْتُ عليها القصةَ، وحَلَفْتُ لها: إن شَحَذْتُ أبي عليَّ حتَّى يَمْنَعَنِي من النَّظر في الكتاب لأُخْرِجَنَّ عنهم إلى أبعاد غاية، ورَدَدْتُ عليها فَضْلَ ثَمَنِ الدَّابة، وقلتُ لها: أنا أَغْلِقُ بَابَ هذا المنزلِ الذي لي، وأرضى منكم برغيفٍ يُلقَى إليَّ كما يُلقَى إلى المحبوسِ، إلى أن أقرأه جميعه.

فَتَضَمَّنْتُ لي بتسكين قَوْرَتِهِ، ودخلتُ البيتَ وأغلقتُهُ من عندي. فمضى أخِي إلى والدي في الموضع الذي كان فيه، فأسرَّ إليه الخبر، فتغير وجهه، وتلجَّجَ في حديثه، فقال له مَنْ كان عنده: قد شَغَلَتْ قلبي وقلبَ مَنْ حَضَرَ بما ظهر منك، فبحقِّي عليك إلا أخبرتنا لِمَ ذا؟

قال فحدثه: فقال: هذا والله يَسْرُنَا في ولدك؛ فاتَّعِذْ فيه بكل جميل، ثم استحضر من إسْطَبْلِهِ بَغْلاً أفره من بغل أبي، وسَرَّجاً خيراً من سَرَّجِه، وقال لِأبي: اركبْ هذا البغلَ، ولا تكلمْ ابنك بحرفٍ.

قال سَنَد: وأقمت ثلاثَ سنينَ كيومٍ واحد، لا يرى لي أبي صورةَ وجهه، وأنا مُجِدُّ حتَّى استكملْتُ كتابَ المجسطي. ثم خرجتُ وقد عَمِلْتُ

أشكالاً مُسْتَصْعِبَاتٍ ووضعتها في كُمِّي . وسألت : هل للمهندسين والحساب موضعٌ يجتمعون فيه ؛ فقليل لي : لهم مجلس في دارِ العباس بن سعيد الجوهري تَرِبِ المأمون، يجتمع فيه وجوهُ العلماء بالهيئة والهندسة . فحضرته ، فرأيت جميع من حضر مشايخ ، ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيري ، لأنني كنت في العشرين سنة .

فقال العباس : من تكون ؟ وفيَمَ نَظَرْتَ ؟ فقلت : غلام يحبُّ صناعةَ الهندسة والهيئة ، قال : ما قرأت ؟ قلت : أفلیدس والمجسطي ، قال : قراءة إحاطة ؟ قلت : نعم .

فسألني عن شيء مستصعب في كتاب المجسطي ، كان تفسيره في الأوراق التي كانت في كُمِّي ، فأجبته ، فعجب وقال : مَنْ أفادك هذا الجواب ؟ ، قلت : استخرجته قَرِيحَتِي ، وما سمعته من غيري ، وهو وغيره فيما مرَّ بي في وَرَقٍ معي ، قال : هاته . فلما رآه اغتَاظَ واضطرب ، ثم قال لبعض من بين يديه من غلمانہ : السَّفَط . فجاء به ، فنظر إلى خاتمه فوجده بحاله ، ثم فضَّه وأخرج منه كُرَاسَةً فجعل يقابلُ بها الورق الذي كان معي ، فكان الكلامُ فيما معه أحسن رَصْفاً من الكلام الذي معي . والمعنى واحد .

فقال : هذا شيءٌ تَوَلَّيْتُ تبيينه من كتاب المجسطي ، فلمَّا أحضرته توهمْتُ أنه سُرق مِنِّي ، حتى تبيَّنتُ اختلاف اللفظين مع اتِّفَاق المعنى . ثم أمر أن تُقَطَّع لي أقبية ، وتُرْتَاد لي مِنْطَقَةٌ مُذَهَّبة ، ففرغ من جميع ذلك في تلك الليلة ، ودخل بي إلى المأمون ، وأمرني بملازمته ؛ وأجرى لي أنزالاً ورزقاً .

* * *

من ديوان المنظوم^(١) :

حببي من الدنيا الكتاب فليس لي إلى غيره ما بي إليه من الفقر
كأنَّ لصوق الروح بالروح مانح دنوًّا بلا بُعْدٍ ووصلاً بلا هجر
فكرسيه حجري إذا كنت قاعداً وإن أضطجع أفرشه مستلقياً صدري

* * *

ومنهم : علي بن مسعود بن نفيس الموصلي^(٢) :

هو الفقيه المحدث الصالح المفيد نور الدين أبو الحسن الموصلي ، ثم
الحلبي ، نزيل دمشق .

قرأ ما لا يوصف كثرة ، وحصل أصولاً كثيرة ، كان يجوع ويبتاعها ،
وعُدم له من ذلك شيء كثير في وقعة التتار ، ووقف بقيتها . وذكر أنه كان
يقنع بكسرة .

* * *

ومنهم : دجون راسكن^(٣) :

يقول : إذا كان الكتابُ جديراً بالقراءةِ فإنه جديرٌ بأن يشتري .

* * *

ومنهم : أحمد بن محمد السلفي^(٤) :

قال الأوقي : سمعته يقول : لي ستون سنة ما رأيتُ منارةً الإسكندرية

(١) ربيع الأبرار ٢٣٢/٣ ، والمخلاة ص ٢١ .

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١٥٠٠ ، الدرر الكامنة ١٢٩/٣ ، المنهل الصافي ٢١٥/٨ .

(٣) من حصاد الفكر العالمي ص ٦٤ ، وكنوز الحكمة ص ٤٦٠ ، وموسوعة روائع

الحكمة ص ٥١٠ ، وقاموس الحكم والأمثال ص ٥٠٨ ، وسنابل الزمن ص ٢٢ ،

وكلمات من ذهب ص ٦٦٣ .

(٤) تاريخ الإسلام ٢٠٤/٤٠ ، وصفحات من صبر العلماء ص ٩٣ .

— وكانت من أعاجيب الدنيا السَّبعة — إلا من هذه الطاقة ، يعني طاقة حُجْرته في المدرسة .

قال الحافظ عبد القادر الرَّهَّاوي : بلغني أنه في مدة مُقامه بالإسكندرية ، ما خَرَجَ إلى بُسْتانٍ ولا فُرْجةٍ غيرَ مرةٍ واحدةٍ ، بل كان عامَّةَ دهره ملازماً مدرسته ، وما كنا ندخلُ عليه إلا نراه مُطالِعاً في شيء .

وقال الحافظ عبد العظيم المنذري : كان السِّلْفِي مُغرَى بجمْع الكتب ، وما حَصَلَ له من المال يُخرِجه في ثمنها ، وكان عنده خزائنُ كتب لا يَتَفَرَّغُ للنظر فيها ، فعَفَنَتْ وتَلَصَّصَتْ لنداوةِ البلد ! فكانوا يُخلِّصونها بالفأس ! فَتَلَفَ أكثرُها !

* * *

ومنهم : محمود عماد^(١) :

يا ليت من مهَّدوا التراب لرأسه	أرسوا كتاباً تحته كوساد
أو ليتهم جعلوا دعائم قبره	كتباً لينعم بينها برقاد
قد كان صبا بالكتاب متيماً	لا صب سارة أو حبيب سعاد
يهفو إليه مطالعاً ومؤلفاً	يعطيه من بصر له وفؤاد
وغداً سيأخذ إذ يقوم كتابه	بيمينه ويثاب بعد جهاد
هل كان أخلص في البلاد مجاهد	منه لدينٍ أو لنفع عباد؟

* * *

ومنهم : الإمام أحمد بن حنبل^(٢) :

قال عبد الله بن أحمد : نزلنا بمكة داراً ، وكان فيها شيخ يُكنى

(١) عود على بدء ص ٧٨ ، من قصيدة «عباس محمود العقاد يخلي ميادينه» .

(٢) حلية الأولياء ١٧٩/٩ ، وتاريخ دمشق ٣٠٣/٥ .

بأبي بكر بن سَمَاعَةَ — وَكَانَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ — قَالَ: نَزَلَ عَلَيْنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ حَنْبَلٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَأَنَا غُلَامٌ، قَالَ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: الزَّمْ هَذَا الرَّجُلَ فَاخْدُمْهُ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ. فَكُنْتُ أَخْدُمُهُ، وَكَانَ يَخْرُجُ يَطْلُبُ الْحَدِيثَ، فَسَرَقَ مَتَاعَهُ وَقَمَاشَهُ، فَجَاءَ يَوْمًا فَقَالَتْ لَهُ أُمِّي: دَخَلَ عَلَيْكَ السَّرَاقُ فَسَرَقُوا قَمَاشَكَ، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ الْأَلْوَاحُ؟ فَقَالَتْ لَهُ أُمِّي: فِي الطَّاقِ. وَمَا سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ غَيْرَهَا.

* * *

وَمِنْهُمْ: خَلِيلُ مَرْدَمٍ^(١):

وَلَسْتُ بِهَيَّابٍ مِنَ الْمَوْتِ وَالرَّدَى وَلَا فَرْقَ عِنْدِي طَالِ أَوْ قَصُرَ الْعَمْرِ
وَلَكِنِّي أَخْشَى فِرَاقَ أَحَبَّةٍ كِرَامٍ وَأَسْفَارٍ إِذَا ضَمَّنِيَ الْقَبْرِ

* * *

وَمِنْهُمْ: الْحَافِظُ الْمَحْدِّثُ الْجَوَّالُ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ الْمَقْدِسِيِّ^(٢):

وُلِدَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ سَنَةَ ٤٤٨ هـ، وَتَوَفَّى فِي بَغْدَادٍ عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ الْحَجِّ سَنَةَ ٥٠٧ هـ،

قَالَ: كَتَبْتُ «صَحِيحَ الْبَخَارِيِّ» وَ«مُسْلِمَ» وَ«أَبِي دَاوُدَ» سَبْعَ مَرَّاتٍ بِالْوَرَاقَةِ (أَيِ بِالْأَجْرَةِ)، وَكَتَبْتُ «سُنَنَ ابْنِ مَاجَهَ» عَشْرَ مَرَّاتٍ بِالْوَرَاقَةِ، سَوَى التَّفَارِيقِ بِالرَّيِّ.

وَبُلْتُ الدَّمَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِبَغْدَادٍ، وَمَرَّةً بِمَكَّةَ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ أَمْشِي حَافِيًا فِي حَرِّ الْهَوَاجِرِ بِهِمَا فَلَحَقَنِي ذَلِكَ! وَمَا رَكِبْتُ دَابَّةً قَطْ

(١) ديوان خليل مردم ص ٣٤١.

(٢) صفحات من صبر العلماء ص ٣٣٣.

في طلب الحديث إلا مرة، وكنتُ أحمِلُ كتبِي على ظهري، إلى أن استوطنْتُ البلاد، وما سألت في حال طلبِي أحداً، وكنتُ أعيشُ على ما يأتيني من غير سُؤال.

وَرَحَلْتُ من طوسَ إلى أصبَهانَ لأجل حديثِ أبي زُرعةَ الرازي، الذي أخرجه مسلم في الصحيح، ذاكرني به بعضُ المحدثين الرحالة بالليل. فلما أصبحتُ شَدَدْتُ عليَّ رَحلي وخرجتُ إلى أصبَهان، ولم أحلُل عنه حتى دخلتُ على الشيخ أبي عَمرو، فقرأته عليه، عن أبيه، عن أبي بكر القطان، عن أبي زُرعة، ودَفَعَ إليَّ أبو عَمرو ثلاثةَ أرغفة وكُمثراتين، وما كان وَقَعَ إليَّ تلك الليلة قُوتي، ولم يكن لي قُوتٌ غيره، ثم لَزِمتهُ إلى أن حَصَلَ ما كنتُ أريد، ثم خرجتُ إلى بغداد، فلما عُدتُ إلى أصبَهان كان قد تُوِّفِي رحمه الله تعالى.

وكنْتُ يوماً أقرأُ على أبي إسحاق الجبَّال بمصر «جزءاً»، فجاءني رجل من أهل بلدي من بيتِ المقدس، وأسرَّ إليَّ كلاماً قال فيه: إنَّ أخاك قد وصلَ من الشام، وذلك بعدَ دخولِ الأتراك بيتَ المقدس وقتلِ الناس بها، فأخذتُ في القراءة، فاختلطتُ ولم يُمكنني أن أقرأ! فقال لي أبو إسحاق: ما لك؟ قلتُ: خير، قال: لا بدُ أن تُخبرني ما قال لك هذا الرجل، فأخبرته فقال لي: وكم لك لم ترَ أخاك؟ قلتُ: سنين، قال: ولم لا تذهبُ إليه؟ قلتُ: حتى أتمَّ «الجزء»، فقال: ما أعظمَ حرصكم يا أصحابَ الحديث؟! قد تمَّ المجلسُ وصَلَّى الله على محمد، وانصرف.

وأقمتُ بتنيسَ مدةً على أبي محمد بن الحَدَّاد ونظرائه، فضاقَ بي، ولم يَبْقَ معي غيرُ درهم! وكنتُ في ذلك اليومَ أحتاجُ إلى خُبزٍ وإلى وَرَقٍ للكتابة، فكنتُ أتردُّ إن صرفتهُ في الخبز لم يكن لي وَرَقٌ للكتابة! وإن

صرفته في الورق لم يكن لي خبز! ومضى على هذا ثلاثة أيام ولياليهن لم أطعم فيها!

فلما كان بكرة اليوم الرابع قلت في نفسي: لو كان لي ورق لم يمكنني أن أكتب فيه شيئاً لما بي من الجوع، فجعلت الدرهم في فمي، وخرجت لأشتري الخبز، فبلعت الدرهم! ووقع عليّ الضحك! فلقيني أبو طاهر بن خطاب الصائغ المواقيتي بتيس وأنا أضحك! فقال: ما أضحكك؟ قلت: خير، فألح عليّ وأبيت أن أخبره، فحلف بالطلاق: لتصدقني لم تضحك؟ فأخبرته، فأخذ بيدي وأدخلني منزله، وتكلف لي في ذلك اليوم ما أطعمه.

فلما كان وقت الظهر خرجت أنا وهو إلى الصلاة، فاجتمع به بعض وكلاء عامل كان بتيس يعرف بابن قادوس، فسأله عني فقال: هو هذا، فقال: إن صاحبي - أي أمير تيس - أمرني أن أوصِلَ إليه كل يوم عشرة دراهم قيمتها ربع دينار، وسهوت عنه، فأخذ منه ثلاثة مئة درهم وجاءني، وقال: قد سهل الله رزقاً لم يكن في الحساب، وأخبرني بالقصة، فقلت: يكون عندك ونكون على ما نحن عليه من الاجتماع إلى وقت خروجي، فإنني وحدي، وليس لي من يقوم بأمرى ففعل، وكان بعد ذلك يصلني ذلك القدر إلى أن خرجت إلى الشام. انتهى.

* * *

ومنهم: سلمان بن عبد الحميد البغدادي^(١):

وقائلة أنفقت في الكتب ما حوت يمينك من مال فقلت وعيني
لعلّي أرى فيها كتاباً يدلّني لأخذ كتابي أمناً يميني

* * *

(١) الجواهر المنضد ص ٤٥، وذيل ابن عبد الهادي ص ٣٥، والسحب الوابلة ٢/ ٤٠٧.

ومنهم : الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل القاضي :
 حَدَّثَ أَبُو هَفَّانٌ^(١) : لَمْ أَرِ قَطُّ وَلَا سَمِعْتُ مَنْ أَحَبَّ الْكُتُبَ وَالْعُلُومَ
 أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ : الْجَاحِظِ ، وَالْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ ، وَإِسْمَاعِيلِ بْنِ إِسْحَاقَ
 الْقَاضِي . .

● فَأَمَّا الْجَاحِظُ : فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا وَقَعَ فِي يَدِهِ كِتَابَ قَرَأَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، أَيْ
 كِتَابَ كَانَ ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَكْتَرِي دُكَاكِينَ الْوَرَّاقِينَ ، وَيَبِيتُ فِيهَا لِلنَّظَرِ .

● وَأَمَّا الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ : فَإِنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ الْكِتَابَ فِي كُمِّهِ أَوْ فِي خُفِّهِ ،
 فَإِذَا قَامَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْمَتَوَكِّلَ لِلْبَوْلِ أَوْ الصَّلَاةِ ، أَخْرَجَ الْكِتَابَ فَنَظَرَ فِيهِ وَهُوَ
 يَمْشِي ، حَتَّى يَبْلُغَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَرِيدُهُ ، ثُمَّ يَصْنَعُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي رَجُوعِهِ ، إِلَى
 أَنْ يَأْخُذَ مَجْلِسَهُ . فَإِذَا أَرَادَ الْمَتَوَكِّلُ الْقِيَامَ لِحَاجَةٍ ، أَخْرَجَ الْكِتَابَ مِنْ كُمِّهِ
 أَوْ خُفِّهِ ، وَقَرَأَهُ فِي مَجْلِسِ الْمَتَوَكِّلِ إِلَى حِينِ عَوْدِهِ .

● وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْقَاضِي : فَإِنِّي مَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ قَطُّ
 إِلَّا رَأَيْتُهُ وَفِي يَدِهِ كِتَابٌ يَنْظُرُ فِيهِ ، أَوْ يُقَلِّبُ الْكُتُبَ لَطَلَبِ كِتَابٍ يَنْظُرُ
 فِيهِ ، أَوْ يَنْفُضُ الْكُتُبَ .

* * *

ومنهم : صالح جودت^(٢) :

كنت ألقاك بدار الكتب تُمسي وتباكر

(١) الفهرست ص ٣٤٤ ، وأمالى المرتضى ١/ ١٩٤ ، وتقييد العلم ص ١٣٩ ، ومعجم
 الأدباء ١٦/ ٧٥ و ١٧٤ ، وتاريخ دمشق ٤٨/ ٢٢٣ ، وتحفة ذوي الألباب
 ١/ ٢٩٦ ، وتاريخ الإسلام ١٨/ ٣٧٣ و ٣٧٥ ، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٥٢٧ ،
 وفوات الوفيات ٣/ ١٧٧ ، وعيون التواريخ (الثقافة) ص ٣٨٢ ، والفخري ص ٦ ،
 وموسوعة الكنايات ٢/ ٩١ ، وقيمة الزمن عند العلماء ص ٢٨ .

(٢) ديوان صالح جودت ص ٧٣ ، من قصيدة «رامي» .

وترى في الكُتُب قبل الناس أحباباً وسامر
عاكفاً كالراهب الهائم في ظل الشعائر
نابشاً بين التواريخ كجَلَّاب الحفائر
غارقاً بين القواميس كغواص الجواهر
تُرضع الأوراق بالحكمة من ثدي المحابر
وتُصلي لكتابٍ ذاهب الطبعة نادر
وتُضحى زهرة العمر وطاقات المحاجر
حافظاً كل قديم، دارساً كل مُعاصر
زاهداً في نعمة الدنيا، على الحرمان صابر
هاتفاً: يا عُصبة المال وطلّاب المظاهر
كل ما أطلب من دنياكمو: ديوان شاعر

ومنهم: خلف مولى يوسف بن بهلول البلنسي المعروف
بالبريلي^(١):

كان مفتي بلنسية في وقته، وعظيمها، ومن أهل العلم والجلالة، وله
كتاب في شرح المدونة واختصارها سماه «التقريب». وقد بذل النفيس لشراء
الكتب.

ذكر أنه لما أكمل خلف كتابه دخلت منه نسخة صقلية وعبد الحق بن
محمد بن هارون السهمي فقيه صقلية بها، فلما قرأه ونظر فيه إلى أقواله،
وما أدخله فيه من كتابه استحسنه وأراد شراءه فلم يتيسر له ثمنه، فباع حوائج
من داره واشتراه، فغلا الكتاب وتنافس فيه الناس عند ذلك.

* * *

(١) الديباج المذهب ص ٣٥٢/١.

ومنهم : أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن القَصْرِي^(١) :

كان فقيهاً صالحاً ورعاً، سريعَ الدمعة، له عنايةٌ بالعلم والرواياتِ وتصحيح الكتب وجمعِها. وكان يقول: لي أربعون سنةً ما جَفَّ لي قَلَمٌ — يعني من كثرة ما يَنْسَخُ بالليل والنهار — . وكان ربما باع بعضَ ثيابه واشترى بثمانه كتاباً أو رُقُوقاً لنسخ كتاب!

قال أبو بكر المالكي: وَوَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ سُوسَةَ بِرَسْمِ زِيَارَةِ يَحْيَى بْنِ عُمَرَ، فَوَجَدَهُ أَلْفَ كِتَابٍ، فَلَمْ يَجِدْ مَا يَشْتَرِي بِهِ رِقّاً يَكْتُبُهُ فِيهِ، فَبَاعَ قَمِيصَهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ! وَاشْتَرَى بِثَمَانِهِ رُقُوقاً، وَكَتَبَ الْكِتَابَ وَقَابَلَهُ، وَأَتَى بِهِ مَعَهُ إِلَى الْقَيْرَوَانِ.

* * *

ومنهم : العلامة الشيخ أحمد بن قاسم الشهير بالحَجَّار^(٢) :

قال الشيخ بكري الكاتب في ترجمته له: وَبَلَغَتْ قِيمَةُ مَكْتَبَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، مَعَ أَنَّهَا بِيَعَتْ بِغَيْرِ أَثْمَانِهَا! وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَحِبُّ اقْتِنَاءَ الْكُتُبِ، حَتَّى سَمِعْنَا أَنَّهُ رَأَى كِتَاباً يُبَاعُ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ دِرَاهِمٌ، وَكَانَ عَلَيْهِ ثِيَابٌ، فَتَزَعَّ بَعْضُهَا وَبَاعَهُ وَاشْتَرَى الْكِتَابَ فِي الْحَالِ.

* * *

ومنهم : الإمام أبو زرعة الرازي :

جاء في «تقدمة الجرح والتعديل» لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، في ترجمة الإمام أبي زُرْعَةَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الرَّازِيِّ،

(١) صفحات من صبر العلماء ص ١٩٤، نقلًا عن معالم الإيمان ١١/٣.

(٢) صفحات من صبر العلماء ص ٢٧٨، نقلًا عن أعلام النبلاء ٣١١/٧.

المولود سنة ٢٠٠هـ، والمتوفى سنة ٢٦٤هـ رحمه الله تعالى (١):

قال عبد الرحمن: سمعتُ أبا زُرعة يقول: خرجتُ من الرِّيِّ المرَّةَ الثانيةَ سنةَ سَبْعٍ وعشرين ومِئتين، وَرَجَعْتُ سنةَ اثنتين وثلاثين في أولها — فكانت رحلتُهُ هذه خَمْسَ سنوات — .

بَدَأْتُ فَحَجَجْتُ ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى مِصْرَ، فَأَقَمْتُ بِمِصْرَ خَمْسَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكُنْتُ عَزَمْتُ فِي بُدُوِّ قُدُومِي مِصْرَ أَنِّي أَقِلُّ الْمَقَامَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَيْتُ كَثْرَةَ الْعِلْمِ بِهَا، وَكَثْرَةَ الْإِسْتِفَادَةِ، عَزَمْتُ عَلَى الْمَقَامِ، وَلَمْ أَكُنْ عَزَمْتُ عَلَى سَمَاعِ كُتُبِ الشَّافِعِيِّ.

فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى الْمَقَامِ، وَجَّهْتُ إِلَى أَعْرَفِ رَجُلٍ بِمِصْرَ بِكُتُبِ الشَّافِعِيِّ، فَقَبَّلْتُهَا مِنْهُ بِثَمَانِينَ دِرْهَمًا أَنْ يَكْتُبَهَا كُلَّهَا، وَأَعْطَيْتُهُ الْكَاغِذَ — أَيِ الْوَرَقِ — ، وَكُنْتُ حَمَلْتُ مَعِيَ ثَوْبَيْنِ دَبِيقَيْنِ لَأَقْطَعَهُمَا — أَيِ اشْتَرِيَهُمَا مِنْ مِصْرَ لَأُفْصِلَهُمَا وَأَخِيطَهُمَا فِي بَلَدِي — لِنَفْسِي، فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى كِتَابَتِهَا أَمَرْتُ بِبَيْعِهِمَا، فَبِيعَا بِسِتِينَ دِرْهَمًا، وَاشْتَرَيْتُ مِثْلَهُ وَرَقَةً كَاغِذٍ بِعَشْرَةِ دِرْهَمٍ، كَتَبْتُ فِيهَا كُتُبَ الشَّافِعِيِّ.

* * *

ومنهم: الإمام الزاهد عبد الله بن مبارك (٢):

ذكر الصديقي قال: لما بلغ عبد الله بن المبارك دفع إليه أبوه خمسين ألف درهم يتجر بها، فطلب العلم حتى أفقدها، فلما انصرف لقيه أبوه فقال: ما جئت به؟ فأخرج إليه الدفاتر، فقال: هذه تجارتي. فدخل أبوه المنزل

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٢٦١.

(٢) ترتيب المدارك ١/ ٣٠٠.

فأخرج له أبوه ثلاثين ألف درهم أخرى وقال: هذه تَمَّ بها تجارتك،
فأنفقها.

* * *

ومنهم: الحافظ أبو عبد الله البَجَلِيُّ الرازي^(١):

هو الحافظُ المسنِدُ أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الصُّرَيْسِ
البَجَلِيُّ الرازيُّ، مُصَنِّفُ كتاب (فضائل القرآن).

قال بعض العلماء: سَمِعْتُ محمد بن أيوب يقول: آخِرُ قَدَمَةٍ قَدِمْتُهَا
البصرة، أَدَيْتُ أُجْرَةَ الْوَرَّاقِينَ عَشْرَةَ آلَافِ دَرَاهِمٍ.

* * *

ومنهم: عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فُطَيْسٍ، قاضي
الجماعة بقرطبة^(٢):

كان رحمه الله من كبار المحدثين، وصدور العلماء المسندين، حافظاً
للحديث، متقناً لعلومه، وله مشاركة في سائر العلوم، وجمع من الكتب في
أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان له سِتَّةُ
وَرَّاقِينَ، ينسخون له دائماً، وكان وقد رَتَّبَ لَهُم على ذلك راتباً معلوماً،
وكان لا يسمع بكتاب حسنٍ إِلَّا اشتراه أو استنسخه، ولما توفي اجتمع أهلُ
قُرطبة لبيع كتبه فأقاموا في بيعها مدة عام كامل في المسجد، وكان ذلك في
وقت الغلاء والفتنة؛ فاجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية يبلغ
صرفها ثمانمائة ألف درهم.

* * *

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٣١٧، نقلاً عن تذكرة الحفاظ ٦٤٣/٢.

(٢) الديباج المذهب ٤٧٨/١.

ومنهم : عبد الله بن المبارك العُكْبَرِي^(١) :

المُقرِيء الفقيه الحنبلي المكنى بأبي محمد، ويُعرف بابن نِيَال، المتوفى سنة ٥٢٨هـ رحمه الله تعالى، عن نيف وسبعين سنة: سَمِعَ - الحديث - من أبي نصر الزَّيْنَبِي، ...، وتفقه على أبي الوفاء بن عقيل، وأبي سعد البرداني، وكان يَصْحَبُ شافعاً الحنبلي، فأشار عليه بشراء كُتُب ابن عقيل، فباع ملكاً له! واشترى بثمانية كتاب «الفنون» وكتاب «الفصول»، ووقفهما على المسلمين، وكان خيراً من أهل السُّنَّة رحمه الله تعالى.

* * *

ومنهم : يحيى بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر الوزير^(٢) :

كانت له مصنفات حسنة في عدة فنون من العلم في: القراءات، والحديث، والأدب، وأجلّها كتاب «الإفصاح عن معاني الأحاديث الصحاح» شرح فيه أحاديث صحيح «البخاري» و«مسلم» وبيّن فقهها ولغتها ومعانيها، بألفاظ تعرب عن نبله وجلاله، وتفصح عن بعد مرماه في الفضل وكماله، وتنبىء عن غزارة علمه، وحسن تصويره وفهمه، وقرىء عليه في مجلس عام، جامع لأئمة أهل الإسلام، ثم إنّه رتب لحفظ هذا الكتاب، من المتعلمين، ألفاً وثمان مئة طالب، وجعل لهم مئة وأربعين معيداً لتحفيظهم وتفقيهم، بحيث لم يبق مسجد ولا مدرسة إلا ويلقى فيهما درس منه، وبعد حفظ الطلبة لدروسهم يحضرون مع معيديهم في حضرة

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٣٢١، نقلاً عن ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٨٥.

(٢) خريدة القصر ١/ ٩٨، ومعجم الألقاب ٢/ ٢٧٧، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص ٤٣٨، والذيل من طبقات الحنابلة ١/ ٢٥٢.

الوزير، فيقرؤون من حفظهم، فيوصل إليهم من المبار والأنعام، ما يدهش سائر الأنام.

ويقال: إنَّه أنفق على هذا الكتاب حتى جمعه مئتي ألف دينار، وثلاثة عشر ألف دينار.

* * *

عناية بعضهم بالكتب:

اشترى رجل كتاباً، فقيل له: اشتريت ما ليس من علمك، فقال: اشتريت ما ليس من علمي ليصير من علمي.

وقيل لآخر: ألا تشتري كتباً تكون عندك؟! فقال: ما يمنعي من ذلك إلا أنني لا أعلم، فقيل: إنما يشتريها من لا يعلم حتى يعلم.

وكان آخر يشتري كل كتاب يراه، فقيل له: إنك تشتري ما لا تحتاج إليه، فقال: ربما احتجت إلى ما لا أحتاج إليه.

كان بعض القضاة يشتري الكتب بالدين والقرض، فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أشتري شيئاً بلغ بي هذا المبلغ، قيل: فإنك تكثر؛ فقال: على قدر الصناعة تكون الآلة^(١).

* * *

ومنهم: الإمام محمد بن علي الشوكاني^(٢):

دخل الأديب يحيى بن المطهر، على العلامة محمد بن علي الشوكاني، فوجده داخل كمة (مكان ضيق في البيت)، ينقب عن الكتب،

(١) تقييد العلم ص ١٣٧.

(٢) الأدب اليمني ص ٩٣.

يقول الشوكاني واصفاً حالته تلك، وفرحته بالكتب: كنت في الكمة، ففتح الباب فرأيت الكتب فحصل معي حاصل، سالت معه الدموع مع أنها لا تسيل على بيت ولا أهل ولا مال، فقلت في تلك الحال:

سلام على تلك الدفاتر إن لي	إليها غراماً فوق كل غرام
سلام عليها إن حييت وإن أمت	فهذا وداع والدموع دوامي
على أنها ألفت مقاليد وصلها	إليّ فهامت بي كمثل هيامي
ولكنني لو عشت ما عشت لم أقل	شفيت غرامي أو قضيت مرامي

* * *

ومنها: الرئيس أبو علي ابن سينا:

قال القاضي ابن خلكان في «وفيات الأعيان»^(١)، في ترجمة الرئيس أبي علي بن سينا (الحسين بن عبد الله بن سينا)، العالم المتفنن الفيلسوف والطبيب المشهور، المولود سنة ٣٧٠هـ، والمتوفى سنة ٤٢٨هـ:

ولما بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ من عمره، كان قد أَتَقَنَ الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ وَالْأَدَبَ، وَحَفِظَ أَشْيَاءَ من أصول الدين والحساب والجبر والمقابلة، ثم أَحْكَمَ عِلْمَ المنطق وأَقْلِيدَسَ والمَجَسَّطِي، وفاق شَيْخَهُ: (الحكيم أبا عبد الله الثَّانِي) أضعافاً كثيرة، وكان مع ذلك يَخْتَلِفُ في الفقه إلى إسماعيل الزاهد، واشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلهي، وفتح الله عليه أبواب العلوم.

ثم رَغِبَ بعد ذلك في علم الطب، وتأمل الكتب المصنفة فيه، وعالَجَ تَأْدِيباً - أي تعلماً وتعليماً - لا تكسباً، وعِلِمَ الطَّبَّ حتَّى فاق فيه الأوائل والأواخر في أقل مدة، وأصْبَحَ فيه عديم النظير فقيده المثل، واختلَفَ إليه فضلاء هذا الفن وكبرأؤه، يقرؤون عليه أنواعه

(١) صفحات من صبر العلماء ص ١٣١، نقلاً عن الوفيات ١/ ١٥٢.

والمعالجات المقتبسة من التجربة، وسنُّه إذ ذاك نحو سِتِّ عَشْرَةَ سنة!

وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلةً واحدةً بكمالها، ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة، وكان إذا أشكلت عليه مسألةً توضَّأ وقصَّد المسجد الجامع، وصَلَّى ودعا الله عزَّ وجلَّ أن يُسهِّلَهَا عليه ويَقْتَحَ مُغْلَقَهَا له، وكان نادرةً عَصْرِهِ في علمه وذكائه وتصانيفه، وصنَّفَ ما يُقَارِبُ مِثَّةَ مصنَّف، ما بين مطوَّل ومختصرٍ ورسالةٍ، في فنون شتى.

* * *

ومنهم: عبد الكريم بن علي بن الحسن الرئيس الأثير^(١):

القاضي، أبو القاسم اللخمي، البيسانى، العسقلاني المولد المصري الدار، الشافعي، أخو القاضي الفاضل. عبد الرحيم كان له هوسٌ مُفْرِطٌ في تحصيل الكتب مُبالغاً في ذلك إلى الغاية القصوى، ملك منها جملةً عظيمةً؛ لم يُلْغِنا عن أحدٍ من الرؤساء أن كُتِبَ وصلت إلى مبلغ كتب عبد الكريم ولا قريباً منه إلا ما ذُكِرَ عن أخيه، ولم يُقَارِبْ هذا عبد الكريم، حتى قيل إنها مائتا ألف مجلَّدة. من كُلِّ كتابٍ نُسخُ.

* * *

ومنهم: أبو بكر محمد بن إبراهيم الرازي المعروف بالفقيه الحنفي^(٢):

كان يقعد في داره مستقبل الكعبة وكتبه بين يديه وهو في وسطها لا يلتذَّ بسواها رحمه الله.

* * *

(١) تاريخ الإسلام ٤٢/٢٥٠ و ٤٥/٦٨، والوافي ١٩/٨٢.

(٢) معجم السفر ص ١١٦، والجواهر المضيئة ٣/٩.

ومنهم : أحمد بن عبد الله المهدي أبو جعفر^(١) :

قيرواني من أصحاب أبي بكر ابن البباد، من أهل العناية بالعلم.
وكان في الدراسة والمطالعة آية، لا يكاد يسقط الكتاب من يده، حتى عند
طعامه.

* * *

ومنهم : محمد بن سحنون^(٢) :

حكى المالكي قال : كانت لمحمد بن سحنون، تسعة أسيرة. يريد لكل
سرير سرية. وكانت له سرية يقال لها أم قدام. فكان عندها يوماً، وقد شغل
في تأليف كتاب إلى الليل، فحضر الطعام فاستأذنته، فقال لها : أنا مشغول
الساعة. فلما طال عليها، جعلت تلقمه الطعام حتى أتت عليه، وتمادى هو
على ما هو فيه إلى أن أذن لصلاة الصبح، فقال : شغلنا عنك الليلة
يا أم قدام، هات ما عندك. فقالت : قد والله يا سيدي ألقمته لك، فقال لها :
ما شعرت بذلك.

* * *

ومنهم : عبد الملك بن حبيب الأندلسي^(٣) :

قال أبو عمر يوسف بن يحيى المغمامي : طرقت عبد الملك
ابن حبيب الأندلسي القرطبي يوماً بغلس، حرصاً على الاقتباس
منه، واستأذنت عليه، فأذن لي ودخلت، فإذا به جالس في مجلسه،
عاكف على الكتب، قد أحاطت به ينظر فيها، والشمعة بين يديه

(١) ترتيب المدارك ٢/ ٥٣٦.

(٢) ترتيب المدارك ٢/ ١١٤.

(٣) ترتيب المدارك ٢/ ٤٥، وصفحات من صبر العلماء ص ١١٩.

تَقْدُ، وَطَوِيلَةٌ عَلَيْهِ، - أَي عَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ طَوِيلَةٌ - .

فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ عَلَيَّ وَقَالَ لِي : يَا يُوسُفُ ، أَوَقَدْ انْسَلَخَ اللَّيْلُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ
وَقَدْ صَلَّيْنَا ، فَقَامَ إِلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ فَصَلَّاهَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَقْعَدِهِ ، وَقَالَ :
يَا يُوسُفُ ، مَا صَلَّيْتُ هَذِهِ الصَّلَاةَ إِلَّا بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ .

* * *

وَمِنْهُمْ : الْفَقِيهَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقُرَوِيُّ الْفَاسِيَّ^(١) :

جَاءَ فِي «نِيلِ الْإِبْتِهَاجِ بِتَطْرِيزِ الدِّيْبَاجِ» ، لِلْعَلَامَةِ أَحْمَدَ بَابَا الشُّبُّكْتِي
الْمَالِكِيِّ فِي تَرْجُمَةِ الْفَقِيهِ الصَّالِحِ الْمَالِكِيِّ (أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ
الْقُرَوِيِّ الْفَاسِيِّ) الْمَتَوَفَى سَنَةَ ٧٥٠ هـ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

« قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ الْقُسْنُطِينِيُّ فِي «رَحْلَتِهِ» : قَالَ لِي بَعْضُ الْفُقَهَاءِ :
دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ مُخْتَزِمٌ فِي كِسَائِهِ ، وَكُتِبَ الْفَقْهَ مَبْسُوطَةً بَيْنَ
يَدَيْهِ ، وَأَعْرَاقُهُ تَقْطُرُ عَلَيْهِ ، وَكِسَاؤُهُ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْوَسَخِ ! فَقُلْتُ لَهُ :
ارْزُقْ بِنَفْسِكَ ، وَاغْسِلْ كِسَاءَكَ ، فَقَالَ : لِي سِتَّةَ أَشْهُرٍ نَزُومٌ غَسَلَهَا وَمَا وَجَدْتُ
سَبِيلًا لِلذِّلِّ ، مِنْ أَجْلِ هَذَا الشُّغْلِ - يَعْنِي الْإِنْهَمَاكَ فِي الْعِلْمِ وَتَحْقِيقِ
مَسَائِلِهِ - ، فَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ وَانْصَرَفْتُ » .

* * *

وَمِنْهُمْ : الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ^(٢) :

قَالَ : كَانَتْ عِنْدِي صُنَادِقٌ مِنْ كُتُبٍ ذَهَبَتْ ، لَوْ بَقِيَتْ لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ
مِنْ أَهْلِي وَمَالِي .

* * *

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٢١٦ عن الابتهاج ص ١٧٩ ، وكفاية المحتاج ١/ ٢٨٩ .

(٢) ترتيب المدارك ١/ ١٢٣ .

ومنهم : يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام^(١) :

أبو زكريا الخطيب التبريزي الشيباني ، إمام اللغة والنحو ، تخرج عليه خلق كثير ، شرح الحماسة والمتنبي والمعلقات وغير ذلك ، وكانت حصلت له نسخة من التهذيب في اللغة للأزهري في عدة مجلدات لطاف ، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن عالم باللغة ، فدل على أبي العلاء المعري فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف ببغداد وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق ابن الخطيب .

* * *

ومنهم : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله^(٢) :

قال : كنت في أيام الطلب والتحصيل مُملقاً كأكثر طلبة العلم ، وكنتُ أشتري من الكتب ما أستطيعُ شراءه بالاعتطاع من نفقتي الضيقة ، بالنقد الحاضر أو بالدين الآجل إذا أمكن .

وعَرَضْتُ لي يوماً بعضُ كتبٍ نادرةٍ تهمني جداً ، ورَغِبْتُ في اقتنائها ، ولكنني كنتُ في إملاقٍ شديد ، فلا سبيلَ إلى شرائها ! وقلِقَ قلبي وخاطري من جَرَاءِ ذلك ، فَبِعْتُ (شالتي) التي ورِثْتُها من أبي رحمه الله تعالى في (سوق الحراج) ، واشتريتُ تلك الكتب ، وأرَحْتُ قلبي وخاطري ، وفرَحْتُ

(١) إنباه الرواة ٢٨/٤ ، ومعجم الأدباء ٢٦/٢٠ ، ووفيات الأعيان ١٩٢/٦ ، وتاريخ

الإسلام ٧٤/٣٥ ، وسير أعلام النبلاء ٢٦٩/١٩ ، والفلاكة والمفلوكين ص ٧١ ،

وصفحات من صبر العلماء ص ٧٠ .

(٢) صفحات من صبر العلماء ص ٢٦٩ .

بافتنائها ووصولي إليها فرحاً عظيماً أنساني فقد (الشالة) والحمد لله .

وكنْتُ في بعض الأحيان أنذُرُ الله تعالى صلاةَ كذا وكذا ركعةً، إذا حَصَلْتُ على الكتاب الفلاني، ووقَعْتُ لي واقعة في شأنِ الحصول على كتاب، أُسَجِّلُها هنا استطراداً لطرفتها :

لَمَّا كُنْتُ في القاهرة أيامَ دراستي في كلية الشريعة بالجامع الأزهر، أوصاني شيخنا العلامة الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، خلالَ ملازمتي له باقتناء كتاب «فتح باب العناية بشرح كتاب النُّقَاية» للعلامة الشيخ عليّ القاري، وحَضَّنِي على الحصولِ عليه حَضّاً أكيداً وكثيراً، مع علمِهِ أَنِي من هُوَاةِ الكتب النادرة النافعة، وكنْتُ أَظُنُّ أَنه مطبوعٌ في الهند، وقد مكثْتُ في القاهرة سِتَّ سنواتٍ حتى إنَّهَاءَ دراستي أسأَلُ عنه، وأنشدُهُ في كلِّ مكتبةٍ أَقْدَرُ وجودَه فيها، فلم أَظَفِرْ منه بخبرٍ ولا أثرٍ.

ولما عُدْتُ إلى بلدي حلب، ما فَتِنْتُ أَبَحَثُ عنه أيضاً في كلِّ بلدٍ أزوِّره أو مكتبة أرتادها، ولما كنْتُ أَظنه مطبوعاً في الهند، وكان هو من كتبِ فقهِ السادة الحنفية، كنْتُ أسأَلُ الكتبيين عن مطبوعاتِ الهند في الفقهِ الحنفي عامة، لعلِّي أَصلُّ إليه بهذه الطريقة، إذ قد يَجْهَلُونَ اسمَهُ، وكان في دمشق كُتُبُونَ قَدَمَاءُ خُبْرَاءُ في الكتب القديمة والنفيسة، وعندهم من قديمها ونفيسها الكثير، ولكنهم يُغَالُون به ويتشدَّدون في بيعه، منهم السيد عزَّت القُصَيَّباتي ووالدُهُ، والشيخ حَمْدِي السَّفَرُجَلَانِي، والسيد أحمد عبِيد .

فسأَلْتُ السيد عزت القُصَيَّباتي عن «فتح باب العناية» على أَنه من مطبوعاتِ الهند، فقال: هو عندي، وأُخْرِجَ لي كتاب «الْبِنَاية بشرح الهداية» للإمام العيني، المطبوع في الهند من مِثَّة عام سنة ١٢٩٣هـ، في ست مجلَّدَاتٍ ضخامٍ كبارٍ جداً، وكان هذا الكتابُ أَحَدَ الكتب النادرة النفيسة التي

أَبَحْتُ عَنْهَا، فَاشْتَرَيْتَهُ بِثَمَنِ غَيْرِ مُعَالَى فِيهِ، إِذْ كَانَ غَيْرَ الْكِتَابِ الْمَطْلُوبِ
الَّذِي سَمَّيْتُهُ لَهُ.

ثُمَّ سَأَلْتُ الشَّيْخَ حَمْدِي السَّفَرَجَلَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْكِتَابِ،
فَعَلِمْتُ مِنْهُ أَنَّهُ مَطْبُوعٌ فِي قَزَّانٍ مِنْ بِلَادِ رُوسِيَا، وَأَنَّهُ أُنْذِرُ مِنَ الْكِبَرِيَّةِ الْأَحْمَرِ
كَمَا يُقَالُ، وَأَنَّهُ طَوَّلَ حَيَاتِهِ وَاشْتَغَالَ بِالْكِتَابِ مَا مَرَّ بِهِ مِنْهُ سِوَى نَسْخَةٍ وَاحِدَةٍ،
كَانَ قَدْ بَاعَهَا لِلْعَلَامَةِ الْكُوْثُرِيِّ بِأَعْلَى الْأَثْمَانِ الَّتِي لَا تُعْقَلُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ
عِنْدِي الْبَلَدُ الَّذِي طُبِعَ فِيهِ الْكِتَابُ، وَضَعُفَ أَمْلِي بِالْحَصُولِ عَلَيْهِ!

وَلَمَّا أَتَانِ اللَّهُ لِي حَجَّ بَيْتِهِ الْكَرِيمِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَامَ ١٣٧٦ هـ، وَدَخَلْتُ مَكَّةَ
الْمَكْرَمَةَ: طَفِقْتُ أَسْأَلُ عَنْهُ فِي مَكْتَبَاتِهَا، لَعَلِّي أَجِدُهُ قَادِمًا مَعَ أَحَدِ
الْمُهَاجِرِينَ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ إِلَى بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ؟ فَلَمْ أَوْفُقْ لَذَلِكَ.

ثُمَّ سَاقَتْنِي عِنَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى كُتُبِي قَدِيمٍ مُنْزَوٍ فِي بَعْضِ الْأَسْوَاقِ
الْمُتَوَاضِعَةِ ثُمَّ فِي مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ، وَهُوَ الشَّيْخُ الْمُصْطَفَى بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّنْقِيطِيِّ
سَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى، فَاشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَعْضَ الْكِتَابِ، وَسَأَلْتُهُ — عَلَى يَأْسٍ — عَنْهُ،
فَقَالَ لِي: كَانَ عِنْدِي مِنْ نَحْوِ أَسْبُوعٍ، اشْتَرَيْتُهُ مِنْ تَرْكَةِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ
الْبُخَارِيِّينَ، وَبِعْتُهُ لِرَجُلٍ مِنْ بُخَارَى مِنْ عُلَمَاءِ طَشْقَنْدٍ بِثَمَنِ كَرِيمٍ، فَمَا كَدْتُ
أُصَدِّقُهُ حَتَّى جَعَلْتُ يَصِفُهُ لِي وَصْفًا مُثْبِتًا لِمَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَأَنَّهُ الْكِتَابُ الَّذِي أَلُوبُ
عَلَيْهِ، وَأَسْعَى مِنْذُ ذَهْرِ إِلَيْهِ!

فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الْعَالِمُ الطَّشْقَنْدِيُّ الَّذِي اشْتَرَاهُ؟ فَجَعَلَ يَتَذَكَّرُهُ تَذَكُّرًا
وَيُسَمِّيهِ لِي: (الشَّيْخُ عِنَايَةُ اللَّهِ الطَّشْقَنْدِيُّ). فَقُلْتُ: أَيْنَ مَسْكَنُهُ أَوْ مَحَلُّ عَمَلِهِ
أَوْ مُلْتَقَاهُ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي عَنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَقُلْتُ: كَيْفَ أَسْأَلُ عَنْهُ؟ قَالَ:
لَا أَدْرِي، فَازْدَدْتُ عِنْدَ ذَلِكَ يَأْسًا مِنَ الْحَصُولِ عَلَيْهِ أَوْ لِقَاءِ مُشْتَرِيهِ!

فَذَهَبْتُ بَعْدَ هَذَا أَسْأَلُ عَنْ (الشَّيْخِ عِنَايَةَ اللَّهِ) كُلَّ بَخَارِيٍّ أَرَاهُ فِي

المسجد الحرام أو في أسواق مكة، وصِرْتُ أذهبُ إلى المدارس والرُّبُطِ التي يُقالُ لي: فيها بُخاريُّون، لأسأل عن هذا الشيخ البخاري، حتى ذهبتُ إلى الأحياء الواقعة خارج مكة، إذ قيلَ لي: فيها بعضُ البخاريين، ولكن هيهات اللقاء بالمنشود عنه؟! وكم في مكة المكرمة من البخاريين الذين يُسمَوْنَ: عناية الله!

لقد أوصلني السؤال المتتابع إلى الشيخ عبد القادر الطشقندي البخاري الساعاتي رحمه الله في جهة حيِّ جَرَوَل من أطراف مكة، فسألته عن الشيخ الطشقندي، فعرفه وعيّن لي أسمه: (الشيخ مير عناية الطشقندي)، ولكن لا علم له بمستقره وملتقاه، فعند ذلك غلبني اليأس من لقاء هذا الشيخ الذي عنده «فتح باب العناية»! فصِرْتُ في أثناء طوافي حول الكعبة المعظمة زادها الله تشریفاً وتعظيماً، أطلبُ من الله تعالى أن يرشدني إلى ذلك الإنسان، وييسرَ لي اقتناء هذا الكتاب، وصِرْتُ أكرّرُ هذا الدعاء والطلب مرّاتٍ تلو مرّاتٍ، ومضى أسبوعٌ وأنا — عِلْمَ الله — في تشتتٍ بالٍ من حال البحث عن الكتاب وصاحبه.

حتى كنتُ يوماً أمشي في سوق باب زيادة من أبواب المسجد الحرام قبل توسعة المسجد، فرآني تاجرٌ دمشقيٌّ قديمٌ في مكة المكرمة، يقال له: أبو عَرَب، كان له متجرٌ هناك، فدعاني إلى متجره لما رآني شاميَّ السحنة والمظهر، يسألني عن الشام وأهلها، فسألته من شدة هوسي بالكتاب — وهو تاجرٌ دمشقيٌّ شامي — عن الشيخ البخاري؟! فقال لي: هذا ختنه زوج ابنته في الدكّان الذي أمامي، وهو أعرفُ الناس به، فوالله ما كدتُ أصدّق ذلك فرحاً وسروراً.

فذهبتُ إلى ختنه وسألته عنه، فاستغربَ قائلاً: ما الذي يدعوك للسؤال عنه وإلى لقائه؟ قلتُ: صار لي أكثر من أسبوع وأنا دائبُ البحث

عنه، فدلّني عليه جزاك الله خيراً، فأرشدني إلى منزله بالتعيين في حي
المِسْفَلَة، جوارَ قَهْوَةِ السَّقِيفَةِ، فذهبتُ إليه مرّةً بعدَ مرّةٍ ليلاً ونهاراً، حتى
لقيتهُ، فتنازَل لي عن الكتاب بالثمن الذي اختارَ وأحبَّ، فكانت عندي فرحةٌ
من فرحاتِ العُمُر .

وقد منَّ الله عليّ بنشر الجزء الأول من هذا الكتاب مُحَقَّقاً، وأسألُ الله
تعالى أن يَمَنَّ عليّ بنشر باقي الكتابِ بفضله وكرمه .

* * *

ومنهم : أ. جي . بي . تايلور^(١) :

قال : كلما ازددت في الكبر يتطور حكمك .

أحد أفراحي أن يكون عقلي متأثراً بكتاب جيد، وبدون الشعور بأن
عليّ الذهاب إلى آلة الطباعة لاحقاً .

ليس هناك أجمل من إحناء الرأس أثناء القراءة، فتغفو بسرعة، ثم
تستيقظ على ارتطام كتاب على الأرض، وعندئذ تقول لنفسك : حسناً الأمر
لا يهم كثيراً . إنه إحساس رائع .

* * *

ومنهم : أحمد الوائلي^(٢) :

قال لي والظلام ألقى جرائه	صاحب كنت أستلذ بيانه
قم معي فالزمان جد قصير	نتملى مشاهداً ريّانه

*

فرأى بسمه أظلت شفاهي كنت فيها مفئداً برهانه

(١) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٦٣ .

(٢) شعراء الغري ١/ ٢٩٧، من قصيدة بعنوان «ليلة في بغداد»، باختصار .

قال ماذا أرى فقلت تأمل
ما أنا من طففت عليه شمول
أنا من معشر إذا هداً السا
كان إلف الكتاب في هداة الـ
أنا سكري طرائف من خليل
لست من يملك الغرام عنانه
أثقلته وطففت ميزانه
مر أو أطبق الدجى أجفانه
لـ وكانت قيثاره قرآنه
يأخذ العلم والثقى عنوانه

* * *

ومنهم: أبو محمد عبد الله بن أبي هاشم مسرور التجيبي
المعروف بابن الحجّام^(١):

كانت له تأليفات ومصنفات في أنواع من العلوم. واقتنى كتباً كثيرة
كلّها بخط يده.

قال الشيخ أبو الحسن بن القاسبي رحمه الله: ترك أبو محمد سبعة
قناطير كتب كلّها بخط يده.

وزاد غيره: إنه لما توفي رُفع جميعها إلى سلطان الوقت، فأخذها
ووضعها في القصر ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه.

وفي رواية: إنه لما اشتد به المرض قال له بعض أصحابه: نخشى أن
يأخذ السلطان كتبك إن قدّر الله تعالى عليك بالموت ويمنع الانتفاع بها،
وأنت قد تعبت فيها وضبطّها، فحبسها على المسلمين، ووجّه ثلثها إلى
أبي محمد بن أبي زيد، وثلثها إلى موضع آخر، والثلث الآخر إلى موضع
آخر، ففعل ما أمره. فلما كان الغد قال لهم: لم أقدر البارحة أن أنام
لما فقدتُ كتبتي فردّوها عليّ. فردّوا عليه ثلثها وتركوا الثلث الآخر عند
ابن أبي زيد، فتوفي حينئذ، فوجه السلطان في الوقت، فأخذ كل ما كان

(١) ترتيب المدارك ٣٤١/٢، ورياض النفوس ٤٢٣/٢.

عنده من الكتب، ولم يسلم منها إلاّ الثلث الذي كان عند ابن أبي زيد .

* * *

ومنهم : محمد بن أحمد السفاريني :

كان محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني لا يقتني شيئاً من الأمتعة والأسباب الدنيوية سوى كتب العلم، فإنه كان حريصاً على جمعها ويقول دائماً: أنا فقير من الكتب^(١).

* * *

ومنهم : الدكتور كاران سينغ^(٢) :

• لدي حب هائل للكتب، ولدي مشاركة مدى الحياة معها. كل فلس استثمرته في كتاب هو استثمار جميل جداً ومحتمل. البشرية ستكون أفقر إلى ما لا نهاية من كل وجهة نظر لو لم تكن الكتب العظيمة قد غذّت ورعت الحضارة البشرية عبر العصور.

• أعتقد بأن علينا البدء بحركة لتشجيع كل طفل بأن يمتلك كتاباً. يجب على كل طفل أن يتشجع ليدرك أن بين ممتلكاته الثمينة كتباً لديها مكان خاص.

• هناك نظرية عبّر عنها بعض الأشخاص أن الكتاب سيكون مهجوراً بحلول القرن الحادي والعشرين لأنه بكل بساطة سيكون لديك الكمبيوتر، ويمكنك أن تدوّنه حسبما تريد.

شخصياً، وأرجو أن أكون مصيباً، أنا لا أعتقد بأن لهذا الخوف من أساس، لأنه كما ألمح لي شخص ما عند اختراع الراديو والتلفزيون قالوا

(١) مختصر طبقات الحنابلة ص ١٤٠ .

(٢) أفلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٦٣ .

نفس الشيء ، لكن نمو صناعة نشر الكتاب استمرت .

* * *

ومنهم : داووف بن خيتي المصري^(١) :

يقول داووف بن خيتي — أحد حكماء المصريين — لابنه يوم صاحبه إلى المدرسة لأول مرة : يا بني ضع قلبك وراء كتبك وأحبها كما تحب أمك ، فليس هناك شيء تعلو منزلته على الكتاب . واعلم يا بني أنه ما من طبقة من الناس إلا فوقها طبقة أخرى تحكمها ، إلا الحكيم فهو الوحيد الذي يحكم نفسه .

* * *

ومنهم : عبد الملك بن محمد الثعالبي^(٢) :

قال : وكثيراً ما أذكرُني أكل الوجبة وأنا أنظر في كتابٍ جديد وقع إليّ ولا أصبر عنه إلى وقت فراغي من الأكل ؛ وسمعت أبا نصر سهل بن المرزبان يقول : كثيراً ما أفعل مثل ذلك .

* * *

ومنهم : أبو العباس مأمونُ بنُ مأمونٍ خوارزم شاه^(٣) :

قال : همّتي كتابٌ أنظرُ فيه ، وحبیبٌ أنظرُ إليه ، وكريمٌ أنظرُ له .

* * *

(١) أنيس الجليس ص ١٦ .

(٢) اللطائف والظرائف ص ٦٦ .

(٣) خاص الخاص ص ٥٣ ، وقال الثعالبي : «سمعتة يقول في تقسيم النظر ما لم أسمع مثله ظرفاً وكهانة وبلاغة» ، واللفظ واللطائف ص ٢٤ ، وبرد الأكباد ص ١١٨ ، ومطالع البدور ١٧٨/٢ ، وحماسة الظرفاء ٣٣٦/١ ، والرواية فيه : «لذتي في نظرات ثلاث : كتاب مفيد أنظر فيه ، ووجه مليح أنظر إليه ، وشيء آخر أنظر له» ، وفي زهر الربيع ص ٥٧٩ «عن بعض الملوك» .

- ومنهم : ثعلب ، وأبو بكر الخياط ، وابن الفرات :
- حِكِي عَنْ ثَعْلَبَ أَنَّهُ كَانَ لَا يُفَارِقُهُ كِتَابُ يَدْرُسُهُ ، فَإِذَا دَعَاهُ رَجُلٌ إِلَى دَعْوَةٍ شَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُوسِّعَ لَهُ مِقْدَارَ مِسْوَرَةٍ يَضَعُ فِيهِ كِتَابًا وَيَدْرُسُ .
 - وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الْخِطَّاطُ النَّحْوِيُّ يَدْرُسُ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ حَتَّى فِي الطَّرِيقِ ، وَكَانَ رُبَّمَا سَقَطَ فِي جُرْفٍ ، أَوْ خَبَطَتْهُ دَابَّةٌ .
 - وَحِكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ كَانَ يَشُدُّ فِي وَسْطِهِ خَيْطًا إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَدْرُسُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَسْقُطَ إِذَا نَعَسَ .
 - وَكَانَ ابْنُ الْفَرَاتِ لَا يَتْرُكُ كُلَّ يَوْمٍ إِذَا أَصْبَحَ أَنْ يَحْفَظَ شَيْئًا وَإِنْ قَلَّ^(١) .

* * *

ومنهم : بَعْضُ الْكُتَّابِ^(٢) :

قَالَ : كُنَّا إِذَا دَخَلْنَا عَلَى أَبِي الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ رَأَيْنَا إِلَى جَانِبِهِ فِي مَجْلِسِ الْعَمَلِ زُهَاءَ مِائَةِ مُجَلَّدَةٍ ، فَتَنَكَّرُ ذَلِكَ ، فَفَطِنَ يَوْمًا لِإِنْكَارِنَا ، فَقَالَ : إِنِّي أَحْفَظُ جَمِيعَ مَا فِي هَذِهِ الْكُتُبِ ، فَإِذَا اشْتَغَلْتُ بِالْعَمَلِ عَنْ دَرْسِهَا أَحْضَرْتُهَا عِنْدِي ، فَكَلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا ذَكَرْتُ مَحْفُوظِي مِنْهَا ، فَقَامَ لِي مَقَامَ الدَّرْسِ !

ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ مِّنَّا : خُذْ أَتِيهَا شَتَّى ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ مِنْهَا كِتَابًا وَقَالَ : هُوَ الثَّامِنُ مِنْ كِتَابِ كَذَا ؛ فَابْتَدَأَ أَبُو الْفَضْلِ فَقَرَأَ مِنْ أَوَّلِهِ صَدْرًا ، ثُمَّ مِنْ وَسْطِهِ ، ثُمَّ مِنْ آخِرِهِ ، فَتَحَقَّقَ عِنْدَنَا أَنَّهُ صَدَقَ مَا قَالَ ، وَعَجِبْنَا مِنْ حِفْظِهِ وَعِنَايَتِهِ وَحِرْصِهِ .

(١) الحث على حفظ العلم ص ٤٠ ، والجامع على الحث على طلب العلم ص ٧٨ .

(٢) الجامع على الحث على طلب العلم ص ٧٩ .

وَكَانَ يَأْخُذُ ابْنَهُ أَبَا الْفَتْحِ كُلَّ يَوْمٍ بِدَرْسِ أَلْفِي يَتِّ قَبْلَ الْغَدَاءِ، وَكَانَ يَحْفَظُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتِي أَلْفِ يَتِّ.

* * *

ومنهم: ياقوت الحموي^(١):

لَمَّا أَلَفَ الْعَلَامَةُ ياقوت الحموي رحمه الله تعالى كتاب «معجم الأدباء»، واطَّلَعَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَدْبَاءِ، مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ، فَاسْتَحْسَنُوهُ، وَالتَّمَسُّوهُ لِيَنْسَخُوهُ، فَشَخَّ عَلَيْهِمْ وَبَخَلَ بِذَلِكَ وَقَالَ:

... فَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ، وَقَدْ نَظَّمْتُ لِأَلِيٍّ هَذَا الْكِتَابِ، وَأَبْرَزْتُهُ فِي أَبْهَى مِنَ الْحُلِيِّ عَلَى تَرَائِبِ الْكَعَابِ، فَاسْتَحْسَنُوهُ. وَالتَّمَسُّوهُ لِيَنْسَخُوهُ، فَوَجَدْتُ فِي نَفْسِي شُحًّا عَلَيْهِمْ، وَبُخْلًا بِعَطْفِ جَدِّهِ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهُ مَنِّي بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِ الْجَبَانِ، وَالسُّودَاوِينَ مِنَ الْعَيْنِ وَالْجَنَانِ، مَعَ كَوْنِي غَيْرَ رَاضٍ لِنَفْسِي بِذَلِكَ الْمَنَعِ، وَلَا حَامِدٍ لَهَا عَلَى ذَلِكَ الصَّنْعِ، لَكِنَّهَا طَبِيعَةٌ عَلَيْهَا جُبِلْتُ، وَسَجِيَّةٌ إِلَيْهَا جُبِرْتُ، حَتَّى قُلْتُ فِيهِ مَعَ اغْتِرَافِي بِقِلَّةِ بَضَاعَتِي فِي الشَّعْرِ، وَعِلْمِي بِرِكَائِكَ نَظْمِي وَالنَّثْرُ:

فَكَمْ قَدْ حَوَى مِنْ فَضْلِ قَوْلٍ مُحَبَّرٍ	وَمِنْ نَثْرِ مِضْقَاعٍ وَمِنْ نَظْمٍ ذِي فَهْمٍ
وَمِنْ خَبَرٍ حُلُوِّ طَرِيفٍ جَمَعْتُهُ	عَلَى قَدَمِ الْأَيَّامِ لِلْعُرْبِ وَالْعُجَمِ
تُرْتَحُّ أَعْطَافِي إِذَا مَا قَرَأْتُهُ	كَمَا رَتَحْتُ شُرَابَهَا ابْنَةُ الْكُرْمِ
وَلَوْ أَنَّي أَنْصَفْتُهُ فِي مَحَبَّتِي	لَجَلَدْتُهُ جِلْدِي وَصَنَدَقْتُهُ عَظْمِي
عَزِيزٌ عَلَى فَضْلِي بِأَلَّا أُطِيعَهُ	عَلَى بَذْلِهِ لِلطَّائِفِينَ عَلَى الْعِلْمِ
وَلَوْ أَنَّي أَسْطِيعُ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ	لَمَا زَالَ مِنْ كَفِّي وَلَا غَابَ عَنْ كُمِّي

(١) معجم الأدباء ١/ ٦٣، وتاريخ إربل ١/ ٣٢٠، وصفحات من صبر العلماء

وَقَدْ قَرَأْتُ بِحِطِّ أَبِي سَعْدٍ السَّمْعَانِيِّ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامَةَ
الْمَقْرِيِّ فِي هَذَا النَّشْوَارِ:

إِنِّي لِمَا أَنَا فِيهِ مِنْ مُنَافَسَتِي فِيمَا شَغِفْتُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ
لَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ الْمَوْتَ يُدْرِكُنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْقُضِي مِنْ حُبِّهَا أَرْبِي

✱

وَمَجْمُوعَةٍ فِيهَا عُلُومٌ كَثِيرَةٌ يَقَرُّ بِمَا فِيهَا عُيُونُ الْأَفَاضِلِ
الَّذُ مِنْ التُّغْمَى وَأَخْلَى مِنَ الْمُنَى وَأَحْسَنُ مِنْ وَجْهِ الْحَبِيبِ الْمُوَاصِلِ
حَكَتْ رَوْضَةً حَاكَتْ يَدُ الْقَطْرِ وَشَيْهَا وَمَسَّكَ رِيَّاهَا، نَسِيمُ الْأَصَائِلِ
أُطَالِعُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ فَأَجْتَلِي عَقَائِلَ يُغْلِي مَهْرَهَا كُلُّ عَاقِلِ
وَأَمْنَعُهَا الْجُهَّالَ فَهِيَ حَبِيبَةٌ (جَرَى حُبُّهَا مَجْرَى دَمِي فِي مَفَاصِلِي)

تَضْمِينُ نِصْفِ بَيْتٍ لِلْمُتَنَبِّي.

وَاعْلَمْ أَنِّي لَوْ أُعْطِيتُ حُمْرَ النَّعَمِ وَسُودَهَا، وَمَقَانِبَ الْمُلُوكِ وَبُنُودَهَا،
لَمَّا سَرَّنِي أَنْ يُنْسَبَ هَذَا الْكِتَابُ إِلَيَّ سِوَايَ، وَأَنْ يَقُورَ بِقَصَبِ سَبْقِهِ الْآيَ.
لِمَا قَاسَيْتُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ، وَطَوَيْتُ فِي تَكْمِيلِهِ مِنْ طَوْلِ الشَّقَّةِ،
فَإِنِّي عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي لَمْ أَقِفْ عَلَى بَابٍ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِ أَجْتَدِيهِ، وَلَا أُخْصِي
عَدَدَ مَا وَقَفْتُ عَلَى الْأَبْوَابِ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي فِيهِ، فَلَا غَرْوَ أَنْ أَمْنَعُهُ مِنْ مُلْتَمِسِيهِ،
وَأَحْجُبُهُ مِنَ الرَّاعِبِينَ فِيهِ.

عَلَى أَنِّي مَا زِلْتُ أُعَاتِبُ نَفْسِي عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ، وَأَعِدُّهُ مِنَ الْأَمْرِ
الْفَظِيعِ، وَالْخُلُقِ الشَّنِيعِ، إِلَى أَنْ وَقَفْتُ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي أَلْفَهُ مُحَمَّدُ بْنُ
عَبْدِ الْمَلِكِ التَّارِيخِيُّ فِي أَخْبَارِ النُّحَوِيِّينَ، وَقَدْ قَالَ فِي دِيبَاجَتِهِ: وَلَمْ أَقْصِدْ
بِهَذَا الْكِتَابِ لَهْوَاً وَلَا لِعِبَاءَ، وَلَا سَمَحْتُ نَفْسِي بِبَذْلِهِ، وَلَا طَابَتْ يَدُهُ
وَإِخْرَاجِهِ إِلَى غَيْرِ أَبِي الْحُسَيْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّؤُوزْبَارِيِّ الْكَاتِبِ،

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاؤُهُ، فَإِنَّهُ لِي كَمَا قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةٍ فِي ابْنِهِ إِيَّاسَ بْنِ مُعَاوِيَةَ،
وَقَدْ قِيلَ لَهُ: كَيْفَ ابْنُكَ؟ فَقَالَ: خَيْرُ ابْنٍ، كَفَانِي أَمْرَ الدُّنْيَا، وَفَرَّغَنِي لِأَمْرِ
الْآخِرَةِ.

ثُمَّ قَالَ: وَمَا أُخْصِي عَدَدَ مَنْ انْقَطَعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْإِخْوَانِ فِي رَدِّنَا إِيَّاهُ
عَنْ هَذَا الْكِتَابِ، فَحَيْثُ خَفَّفْتُ عَنْ نَفْسِي اللَّوْمَ، إِذْ كَانَ التَّأْسِي مِنْ أَخْلَاقِ
الْقَوْمِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّفْسَ بِخَيْلَةٍ بِالتَّقَائِسِ، شَحِيحَةٌ بِإِبْرَازِ الْعَرَائِسِ.

هَذَا وَإِنَّمَا يَشْتَمِلُ كِتَابُهُ عَلَى ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ تَرْجَمَةً، نَقَلْتُ زُبْدَهَا إِلَى
هَذَا الْكِتَابِ، فَلِمَ أَلَامُ إِذَا أَخْفَيْتُهُ عَلَى طَالِبِيهِ؟ وَحَجَبْتُهُ عَنْ خَاطِبِيهِ؟ وَقَدْ
أَقْسَمْتُ أَلَّا أَسْمَحَ بِإِعَارَتِهِ، مَا دَامَ فِي مُسَوَّدَتِهِ، لِئَلَّا يُلَحَّ طَالِبٌ بِالتِّمَاسِهِ،
وَلَا يُكَلِّفَنِي إِبْرَازَهُ مِنْ كِتَابِهِ، فَحَمَلَهُمْ مِنْعِي عَلَى أَخْذَانِهِ وَتَصْنِيفِ شُرُوهَا
فِي أَسْتَوَائِهِ، وَمَا أَظْهَرَهُمْ يَشْقُونَ غُبَارَهُ، وَيُحْسِنُونَ تَرْتِيبَهُ وَإِسْطَارَهُ، وَإِنْ
وَفَّقْتُ لِنَظَرِ الْجَمِيعِ فَسَتَعْرِفُ الظَّالِعَ مِنَ الضَّالِّعِ.

فَإِذَا هَدَّبْتُهُ وَنَفَّخْتُهُ وَبَيَضْتُهُ، فَنَمَتَّعَ بِهِ، فَإِنَّهُ كِتَابٌ أَسْهَرْتُ لَكَ فِيهِ
طَرْفِي، وَأَنْضَيْتُ فِي تَخْصِيلِهِ طَرْفِي وَطَرْفِي. وَقَدْ حَصَلَتْهُ عَفْوًا، وَمَلَكَتُهُ
صَفْوًا، فَاجْعَلْ جَائِزَتِي دُعَاءَ يَزْكُو غَرْسُهُ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ، وَاحْمَدْنِي فِي
بُسْطِهِ وَالْفَرْشِ، وَادْكُرْنِي فِي صَالِحِ دُعَائِكَ، فَرُبَّ دَعْوَةٍ صَادَقَتْ إِجَابَةً،
وَرَمِيَّةٌ حَصَلَتْ إِصَابَةً.

وَلَوْ أَنْصَفَ أَهْلُ الْأَدَبِ، لَاسْتَعْنَوْا بِهِ عَنِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ، وَلَكِنِّي
أَخَافُ أَنْ يَأْتِيَهُ النِّقْصُ مِنْ جِهَةِ زِيَادَةِ فَضْلِهِ، وَأَنْ يَقْعُدَ بِقِيَامِ جَدِّهِ عِظَمُ خَطَرِهِ
وَنُبْلَاهُ.

وَأَسْتَشِيرُ لَهُ أَمْرَيْنِ مُتَبَعُهُمَا مِنْ قِلَّةِ الْإِنْصَافِ، وَاجْتِنَابِ الْحَقِّ
وَالْإِنْحِرَافِ، أَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: هَلْ هُوَ إِلَّا تَصْنِيفُ رُومِيٍّ مَمْلُوكٍ؟ وَمَا عَسَى

أَنْ يَأْتِيَ بِهِ، وَلَيْسَ فِي أَتْبَاءِ جَنْسِهِ لَهُ نَظِيرٌ، وَمَا كَانَ فِي أُمَّتِهِ رَجُلٌ خَطِيرٌ؟
لِاسْتِيلَاءِ التَّقْلِيدِ عَلَى الْعَالَمِ وَالْبَلِيدِ؛ فَهُمْ لَا يَنْظُرُونَ مَا قِيلَ، إِنَّمَا يَسْأَلُونَ
عَمَّنْ قَالَ، وَنِعْمَ الْعَوْنُ لِلْعَالِمِ الْقَوُولِ، حُسْنُ الْإِعْقَادِ وَالْقَبُولِ. وَالْأَمْرُ
الْآخَرُ: قُصُورُ الْهَمَمِ، الْغَالِبُ عَلَى أَكْثَرِ الْأُمَمِ، إِذْ كُلُّ هَمَّةٍ تَحْصِيلُ الْمَأْكُولِ
وَالْمَلْبُوسِ، وَلَا تَسْمُو هِمَّتُهُ إِلَى تَشْرِيفِ الثُّغُوسِ.

وَأَعْلَمُ حَبَاكَ اللَّهُ بِحُسْنِ رِعَايَتِهِ، وَأَمَدَّكَ بِفَضْلِ هِدَايَتِهِ، أَنَّ هَذَا الْفَنَّ
مِنَ الْعِلْمِ، لَيْسَ مِنْ بَابِهِ مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِلْمَعَاشِ، أَوْ لِيُحْصَلَ الزَّيْنَةُ
وَالرِّيَاشَ، وَلَا هُوَ مِمَّا يَنْفَقُ فِي الْمَدَارِسِ، أَوْ يُنَاطَرُ بِهِ فِي الْمَجَالِسِ، إِنَّمَا
هُوَ عِلْمُ الْمُلُوكِ وَالْوُزَرَاءِ، وَالْجَلَّةِ مِنَ النَّاسِ وَالْكُبَرَاءِ، يَجْعَلُونَهُ رَيْبَعًا
لِقُلُوبِهِمْ، وَنُزْهَةً لِنُفُوسِهِمْ، تَرْتَاخُ إِلَيْهِ أَرْوَاحُهُمْ، وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ أَفْرَاحُهُمْ،
فَهُوَ رَيْبَعُ الثُّغُوسِ النَّفِيسَةِ، وَرَأْسُ مَالِ الْعُلُومِ الرَّئِيسَةِ.

* * *

ومنهم : محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتّاني الإدريسي :

ترجم له محمود محمد شاكر فقال^(١) : ولهذا الرجل إحساس
علمي عجيب، فهو لا يكادُ يسمعُ بأديب أو فقيه أو عالم أو فيلسوف إلاَّ حنَّ
إليه وقلقَ إلى رؤيته، ورغب في التحدث إليه وسبر غوره، فلا تصرفه
شواغله وهو في دار الغربة عن أن يقدم أهل العلم — أيًّا كانوا — بالزيارة، بل
تراه يبدؤهم بها، ويرحل من بلد إلى بلد لأن فيه عالماً جليلاً قد قرأ آثاره
أو سمع به.

وأنت فظنَّ كيف تقدَّرُ رجالاً من أقصى المغرب بفاس، لا يُذكر أمامه

(١) مجلة المقتطف، إبريل/نيسان ١٩٣٣م ص ٤٨٣، «وهذا الخير واللذان بعده
أفادنيها الأخ محمد العجمي».

اسم عالم أو غيره في مصر أو الشام أو الجزيرة العربية أو العراق أو الهند أو الأفغان أو الترك إلا عرفه وقصّ لك من أخباره وعدّد لك من كتبه . ومن هؤلاء الناشئ والمغمور الذي لا يعرفه أهل بلده ، على حين أنه منهم بمنزلة البنان من راحته . بل . . . يسمع اسم الرجل يراه أمامه فيطمئن قليلاً ثم يسأله من أي بلدة هو ، فما يجيب حتى يسأله عن علماء هذه البلدة من مات منهم ومن حي ، وعن كتبهم كيف كان مصيرها ، ثم يعدّد له بعض ما ألفوا . . . ويذكر له روايته عنهم إن كان روى عنهم شيئاً من حديث رسول الله ﷺ أو غير ذلك .

فمن أجل هذا الإحساس العلمي المركّب فيه أتيح له أن يجمع مكتبة في داره بفاس تُعدّ من أغنى المكاتب الخاصة وأنفسها في العالم العربي كلّها ، فيها من النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد في غيرها . وهو لا يكاد يسمع بكتابٍ نادرٍ حتى يسارع إلى استنساخه أو تصويره بالفوتوغراف . وها هو قد نزل مصر فجمع من شوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سمع دور كتبنا وبصرها ثم غفلت عنها . ويجلس هذا الرجل في نُزله فيأتيه الوراقون بالمخطوطات حديثها وعتيقها ، فما يفتح أحدها حتى يعرف ما الكتابُ ومن صاحبه ، ويفرح بالكتاب النادر فرح الذي ضنّ عليه الزمن طويلاً ثم جاد .

وبالله أشهد صادقاً لكأنني أرى الكتاب بين يديه يكاد يحنّ إليه حنين القلب الممزّق المفطور إلى سبب من أسباب سلوته وراحته ، ولكأنني أراه يُمسك الكتاب براحته كما يمسك أحداً الشيء فيه من آثار قلبه وحبّه وآماله ورغباته ما فيه ، ويلقي عليه نظرة عاطفة تكاد تحييهِ من عطفها وحنانها وحبّها وأشواقها .

هذا هو الرجل العالم المتيّم بالكتب ، الذي يطّلع جاهداً على آثار

الناس وما ينشرون في الكتب والصحف والمجلات ويعي أسماءهم ويسأل عنهم ويرغب في رؤيتهم ويرحل إليهم بادئاً بالزيارة.

وإن تعجب فعجب لهذا الرجل الذي اتسع أفقه حتى ألف ما أناف على مائتي كتاب فيها موضوعات عجيبة لم يسبق إليه بمثل تحقيقه ودقته على الأسلوب الذي يفهمه عن أهله، ومن عرف مذاهب القوم في كتبهم ومؤلفاتهم.

* * *

ومنهم : عبد الحميد العلوجي :

كان رئيس تحرير مجلة المورد العراقية المشهورة . وكانت مكتبته تضم خمسة عشر ألف مجلد، وقد ظن بعض الأدباء أنه جمعها من إهداءات الكتاب، فقال يدفع ذلك^(١) :

(...) فأنا جمعتها بتبديد أرباح العلوة ورأس مالها في شراء المطبوعات، وبتحويل المكافآت المالية التي كنت أنقاضها عن مقالاتي ومؤلفاتي إلى ما يدعم مكتبي، أما راتبي فقد كنت أحرم نفسي من الفانيلة أو الرباط، وأحياناً أحرم زوجتي من حذاء، وأطفالي من تفاحة مستوردة، لأصرفه على شراء ما تطبعه المطابع، وهذا كله يعني أنني جمعتها بعرق جبيني، وبجوع غير قاتل، والجنون فنون...)!

* * *

ومنهم : محمد جمال الدين القاسمي :

فمن رسالة له إلى محمد نصيف يقول^(٢) : ويقول لي صديقنا محمد

(١) موسوعة المفكرين والأدباء العراقيين ١٩٤/٤ .

(٢) جمال الدين القاسمي وعصره، تأليف : ظافر القاسمي .

أفندي كرد علي: إن الرحلة ضرورية لي، لما يرى من إكبابي على ما أنا عليه، ولا تجوال لي ولا رياضة في البلدة، لذلك يقول لي: إن لم ترتض في مثل هذه الأوقات وتسترح، وإلا فأخاف على صحتك. ولكن ماذا أصنع؟ ولا أرى والله الصحة والنشاط إلا فيما أنا عليه، وإذا تركت القلم أو الكتاب فأراني كالسمك إذا فارق الماء . . .

ومن رسالة له أخرى إلى محمود شكري الألوسي لما أهداه كتابه «غرائب الاغتراب» قال^(١):

صادف ليلة جاءني أن كُنْتُ في صُداغ، وقد عَقَدَ آلي حولي الاجتماع، وأنا أқاسي من الآلام ما يمنعني من الكلام، فلما ناولنيه شقيقي بعد العشاء رأيتني وقد سرى إليَّ نسيم النَّشاط والشفاء، فغالبت نفسي، ونبهتُ لمطالعتِهِ قلبي وحسي، وقلت: لأتأسينَ بشيخ الإسلام الأنصاري؛ فقد كان يستشفي بمطالعة العلم ومذاكرة أولي الفطنة والفهم، وبقيت أسامره معظم اللَّيْلِ وهو يرقُّ لي ويُنيلني من منادمته أعظم النيل، وقد أصبحت بحمد الله وما بي ألم، وكانت بركة الاستشفاء به من أجلِّ النعم.

* * *

ومنهم: سليمان الشاذكوني:

حكى أبو الحسين بن قانع أنه سمع إسماعيل بن الفضل يقول^(٢):

رأيت سليمان الشاذكوني في النوم، فقلت: ما فعل الله بك

(١) الرسائل المتبادلة بين محمد جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي، لمحمد بن ناصر العجمي ص ١٢٠.

(٢) تاريخ بغداد ٤٨/٩، والمنتظم ٢١٤/١١، وتاريخ الإسلام ١٧٩/١٧، وسير أعلام النبلاء ١٧٩/١٧، والوافي ٣٧٩/١٥، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٥٩ نقلًا عن فتح المغيـث ص ١٥٧.

يا أبا أيوب؟ فقال: غفر الله لي، قلت: بماذا؟ قال: كنت في طريق أصبهان أمر إليها فأخذتني مطرة، وكانت معي كتب، ولم أكن تحت سقف ولا شيء، فانكببت على كتبي حتى أصبحت وهدأ المطر، فغفر لي الله بذلك.

* * *

ومنهم: إبراهيم بن إسحاق الحربي:

قال رجل له^(١): كيف قويت على جمع هذه الكتب؟ فغضب وقال: بلحمي ودمي؛ بلحمي ودمي!!

وقال أحمد بن سلمان النجاد القطيعي^(٢): أَضَقْتُ إِضَاقَةً شَدِيدَةً، فَمَضَيْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الْحَرْبِيِّ لِأُبَيِّنَ مَا أَنَا فِيهِ.

فقال لي: لَا يَضِقُ صَدْرُكَ، فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ وَرَاءِ الْمَعُونَةِ، وَإِنِّي أَضَقْتُ مَرَّةً حَتَّى انْتَهَى أَمْرِي فِي الْإِضَاقَةِ إِلَى أَنْ عَدِمَ عِيَالِي قُوَّتَهُمْ! فَقَالَتْ لِي الزَّوْجَةُ: هَبْ أَنِّي أَنَا وَإِيَاكَ نَصْبِرُ، فَكَيْفَ نَصْنَعُ بِهَاتَيْنِ الصَّبِيَّتَيْنِ؟ فَإِنَّهُمَا لَا تَصْبِرَانِ عَلَى مَا نَصْبِرُ عَلَيْهِ، فَهَاتِ شَيْئاً مِنْ كُتُبِكَ حَتَّى نَبِيعَهُ أَوْ نَرْهَنَهُ! وَتَفَرَّجَ بِهِ، فَضَمِنْتُ بِذَلِكَ، وَشَحَّتُ نَفْسِي بِالْكَتُبِ، وَقُلْتُ لَهَا: اقْتَرِضِي لِهَمَا شَيْئاً وَأَنْظِرِي بَقِيَّةَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

وكان لي بيتٌ في دِهْلِيزِ دَارِي فِيهِ كُتُبِي، فَكُنْتُ أَجْلِسُ فِيهِ لِلنَّسْخِ

(١) تاريخ بغداد ٣٣/٦، والمنتظم ٢٨١/١٢، وإنباه الرواة ١٩٩/١، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٣٢ نقلاً عن مناقب الإمام أحمد ص ٥٠٨.

(٢) تاريخ بغداد ٣٢/٦، وطبقات الحنابلة ٨٧/١، وإنباه الرواة ١٩٩/١، ومعجم الأدباء ١١٥/١، وتاريخ الإسلام ١٠٣/٢١، وسير أعلام النبلاء ٣٦٨/١٣، والمنهج لأحمد ٢/٢٥٤، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٢٧.

والتَّظَر، فلما كان في تلك الليلة إذا دأق يدق الباب، فقلت: مَنْ هذا؟ فقال: رجلٌ من الجيران، فقلت: أَدْخُل، فقال أطفئ السَّراج حتى أَدْخُل، فكَبَيْتُ على السَّراج شيئاً وقلت: أَدْخُل، فدخل الدَّهْلِيزَ فَوَضَعَ فيه صُرةً كبيرة، وقال لي: إِنَّا أَصْلَحْنَا لَصِيبَانَا طعاماً، فأحبينا أن يكون لك وللصَّيَّانِ فيه نصيب، وهذا شيء آخر، فوضَّعَه إلى جانب الصُّرةِ الكبيرة، وقال: تَصْرِفُهُ في حاجتك. وأنا لا أعرف الرجل وتركني وانصرف.

فدعوتُ الزوجة وقلتُ لها: أَسْرِجِي السَّراج، فأسْرَجَتْ وجاءت، وإذا الصُّرةُ مِنْدِيلٌ له قيمة، وفيه خمسون وَسَطاً في كل وَسَطٍ لونٌ من طعام، وإلى جانب الصُّرةِ كِيسٌ فيه ألفُ دينار، فقلتُ للزوجة: أَنْبِهِي الصَّيَّانَ حتى يأكلوا، ولما كان الغَدُ قَضَيْنَا دَيْناً كان علينا من ذلك المال.

وكان وقتَ مجيءِ الحاجِّ من خُرَاسان، فجلستُ على بابِ داري من غَدِ تلك الليلة، وإذا جَمَّالٌ يَقُودُ جَمَلَيْنِ عليهما حِمْلانِ وَرَقاً خُرَاسَانِيَّاً، وهو يَسْأَلُ عن منزلِ إبراهيمَ الحربي، فانتَهَى إِلَيَّ، فقلت: أنا إبراهيمُ الحربي، فَحَطَّ الحِمْلَيْنِ وقال: هذانِ الحِمْلانِ أَنْفَذَهُمَا لك رجلٌ من أهلِ خراسان، فقلتُ: مَنْ هو؟ فقال: قد استحلَفَنِي أن لا أقولَ مَنْ هو. فأخذتُهُما منه، ودعوتُ اللهَ لمرسلهما وللحامل.



٤- فصل في

أخبارهم في الحزن والهم على فقد الكتب والمصاب بها

عبد الحميد بن عبد الرحيم^(١) :

أجل مصائب الرجل العليم مصائبه بأسفار العلوم
إذا فقد الكتاب فذاك خطب عظيم قد يجلّ عن العظيم
وكم قدمات من أسفٍ عليها أناس في الحديث وفي القديم

* * *

الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون^(٢) :

قال ياقوت: كَانَ مِنَ الْمُحِبِّينَ لِلْكِتَابِ وَأَفْتِنَائِهَا، وَالْمُبَالِغِينَ فِي
تَحْصِيلِهَا وَشِرَائِهَا، وَحُصِّلَ لَهُ مِنْ أَصُولِهَا الْمُتَفَنِّةِ وَأُمّهَاتِهَا الْمُعَيَّنَةِ، مَا لَمْ
يُحْصَلْ أَحَدٌ لِلْكَثِيرِ.

وَكَانَ مَعَ اغْتِبَاطِهِ بِالْكِتَابِ وَمُنَافَسَتِهِ، وَمُنَاقَشَتِهِ فِيهَا جَوَاداً بِإِعَارَتِهَا،
وَلَقَدْ قَالَ لِي يَوْماً - وَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ مُسَارَعَتِهِ إِلَى إِعَارَتِهَا لِلطَّلَبَةِ: مَا بَخِلْتُ
بِإِعَارَةِ كِتَابٍ قَطُّ وَلَا أَخَذْتُ عَلَيْهِ رَهْناً. وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ فَقَدَ كِتَاباً فِي
عَارِيَةٍ قَطُّ. فَقُلْتُ: الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَخُلُوصُ نِيَّتِكَ فِي إِعَارَتِهَا لِلَّهِ حَفِظَهَا
عَلَيْكَ.

(١) تقييد العلم ص ١٥٠.

(٢) معجم الأدباء ٩/ ١٨٤، وطرائف الأدباء ص ١٠٧، ومقدمة التذكرة الحمدونية ١/ ١٠.

ثُمَّ تَقَاعَدَ بِهِ الدَّهْرُ وَبَطَلَ عَنِ الْعَمَلِ ، فَرَأَيْتُهُ يُخْرِجُهَا وَيَبِيعُهَا وَعَيْنَاهُ
تَذْرِفَانِ بِالْذُّمُوعِ كَالْمُفَارِقِ لِأَهْلِهِ الْأَعَزَّاءِ ، وَالْمَفْجُوعِ بِأَحْبَابِهِ الْأَوْدَاءِ .

فَقُلْتُ لَهُ : هَوْنٌ عَلَيْكَ — أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَكَ — فَإِنَّ الدَّهْرَ ذُو دُولٍ ، وَقَدْ
يُسْعِفُ الزَّمَانُ وَيُسَاعِدُ ، وَتَرْجِعُ دَوْلَةُ الْعِزِّ وَتُعَاوِدُ ، فَتَسْتَخْلِفُ مَا هُوَ أَحْسَنُ
مِنْهَا وَأَجْوَدُ .

فَقَالَ : حَسْبُكَ يَا بَنِيَّ ، هَذِهِ نَتِيجَةُ خَمْسِينَ سَنَةً مِنَ الْعُمْرِ أَنْفَقْتُهَا فِي
تَحْصِيلِهَا ، وَهَبْ أَنَّ الْمَالَ يَتَيْسَّرُ ، وَالْأَجَلَ يَتَأَخَّرُ — وَهِنَاتٌ — فَحِينَئِذٍ
لَا أَخْصُلُ مِنْ جَمْعِهَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى الْفِرَاقِ ، الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ تَلَاقٍ .
وَأَنْشَدَ بِلِسَانِ الْحَالِ :

هَبِ الدَّهْرَ أَرْضَانِي وَأَعْتَبْ صَرْفُهُ
وَأَعْقَبِ بِالْحُسْنَى وَفَكَ مِنَ الْأَسْرِ
فَمَنْ لِي بِأَيَّامِ الشَّبَابِ الَّتِي مَضَتْ
وَمَنْ لِي بِمَا قَدْ مَرَّ فِي الْبُؤْسِ مِنْ عُمْرِي ؟؟

* * *

أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي^(١) :

قال سعيد بن المبارك بن الدهان النحوي : ذكر أبو الفتح في النوادر ،
أن كتب أبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي احترقت
بالبصرة في ربيع الأول سنة خمس وثلاثمائة بدار أبي الريان الأهوازي
الكاتب ، وكان قد أسكنه إياها ، ولم يكن بالدار تلك الساعة ، فلما علم جاء
إلى الدار فوق من غلامه المفتاح وكان الخشب ساجاً فلم ينكسر ، فصعدوا

(١) بغية الطالب ٥ / ٢٢٧١ .

إلى السطوح وكان للدرجة باب مغلق فلم يفتح وقويت النار فحالت بينه وبين الكتب، وكان في الدار أثاث كثير لصاحبها، فغشي على الشيخ، وحمل على الظهر إلى دار أخرى لأبي الريان، فبقي يوماً وليلة لا ينطق، وثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا العسير بالكراهية، وبقي واجماً سنة لا يقرىء ولا يقرأ.

وكان أبو الريان يخدمه ويسليه بكل ما يقدر عليه، وكانت الكتب أربعمائة مجلد، فأعطاه ثلاثمائة دينار مغربية وأربعين حزمة كاغد، وكان يستحبه ويقول له: الناس يقولون عنك صحفي لأنك عجزت عن العلم بعد مضي الكتب. وكان قد سلم له المجلد الأول من كتاب سيبويه لأنه كان معه، وكان لأبي الريان نسخة بخط السيرافي فوهبها له وعاد إلى القراءة.

وقال عثمان بن جني^(١): حدثني أبو علي أنه وقع حريق بمدينة السلام، فذهب به جميع علم البصريين، قال: وكنت كتبت ذلك كله بخطي وقرأته على أصحابنا، فلم أجد من الصندوق الذي احترق شيئاً البتة إلا نصف كتاب الطلاق عن محمد بن الحسن، فسألته عن سلوته وعزائه عن ذلك، فنظر إليّ معجباً ثم قال: بقيت شهرين لا أكلم أحداً حزناً وهماً، وانحدرت إلى البصرة لغلبة الفكر عليّ وأقمت مدة ذاهلاً متحيراً.

وفقد الكتاب كفقد الصواب فيا هؤل من قد أضاع الكتب

* * *

(١) بغية الطالب ٢٢٧٢/٥، ومعجم الأدباء ٢٥٦/٧، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٦٣.

ابن طباطبا^(١) :

إذا فجع الدهرُ امرءاً بخليله تسلى ولا يسلى لفقدِ الدفاترِ

* * *

عبد الصمد بن أحمد المقرئ المحدث^(٢) :

هو عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر بن أبي الحسين ابن أبي الجيش بن عبد الله البغدادي القطفتي، المقرئ المحدث، النحوي. ذكره صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق في مشيخته، فقال: هو شيخ بغداد كلها، إليه انتهت رئاسة القراءات والحديث بها.

كان من العلماء العاملين، والأئمة الموصوفين بالعلم والفضل والزهد. وصنف الخطب التي انفرد بفنها وأسلوبها، وما فيها من الصنعة والفصاحة، وجمع منها شيئاً كثيراً.

ذهب في واقعة بغداد مع كتب له أخرى بخطه وأصوله، حتى كان يقول: في قلبي حسرتان: ولدي، وكتبي، فإنه كان له ولد اسمه أحمد — وبه يكنى — صالح فاضل حسن السمات، خلفه بمسجد قمرية لما رتب هو شيخاً برباط سوسيان في زمن المستعصم. وكان حسن الصوت حسن القراءة، وعدم في الواقعة، وبقي يتأسف عليه وعلى كتبه.

* * *

القاضي ربيع بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري^(٣) :

كان آخر القضاة بقرطبة أعادها الله للإسلام! لما استولت الرُّوم عليها،

(١) محاضرات الأدباء ١/ ١٢٠، والتذكرة الحمدونية ٤/ ٢٨٦.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٢٩٢.

(٣) تاريخ قضاة الأندلس ص ١١٨.

وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال من عام ٦٣٣ هـ فتحول إلى
إشبيلية، وبها توفي إثر انتقاله إليها.

ويقال: إنه ما هاله عظيمُ الرزء في مفارقة المال والوطن عند الحاجة
إليه مع سنّ الشاخة، ولا بلغ لديه شيءٌ من ذلك مبلغ الرزء فيما تلف له من
كتبه، رحمه الله ونفعه بمصابه!

* * *

محمد بن يوسف الكريمي^(١):

فقد له مجموع بخطه فقال في ذلك:

مجموعي ضاع رده يا صمد قد بان تصبّري به والجَلَد
اتهمت أني بعتة من سفه هذا ولدي وهل يباع الولد

* * *

أبو بكر بن محمد بن شاذي التقي الحِصْنِي الشافعي^(٢):

ارتحل إلى حلب، ثم إلى القاهرة، ثم عاد لبلده، ثم سافر إلى هراة،
وأقام هناك خمسة أعوام إلى أن برع، وعاد من العراق، فحجَّ. ودخل
القاهرة بعد أن اقتطع بمكان يقال له: وادي السَّبَّاع، وأخذ جميع ما معه من
كتب وغيرها، فألقيت الكتب بالبرية لعدم التفاتهم إليها، ولكنه لم يجد
محملاً لها فتركها، ونجا بنفسه مع أخذ يسير ممّا أمكنه، وتأسّف كثيراً
بسببها، حتى إنّه صار كلّما تذكّر يتألّم.

وأنشد لنفسه:

يا عينُ لا تجزعي ممّا جرى وارضي بتقدير العزيز الغفور

(١) خلاصة الأثر ٤/ ٢٨٠.

(٢) الضوء اللامع ١١/ ٧٦، والقبس الحاوي ٢/ ٣٨٧.

واتلي على الطّاعين في ظلمهمُ ألا إلى الله تصيرُ الأمورُ

* * *

أبو الفتح ابن جنّي^(١) :

جاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقفطي، في ترجمة (الشريف الرّضّي) . . . : وكان الرّضّي من أهل الفضل والأدب والعلم والذكاء وحِدّة الخاطر من صِغَرِه . ذكره أبو الفتح بنُ جنّي في «مجموع» له جَمَعَهُ ، وذكرَ في بعض «مَجَامِيعِهِ» أنَّ هذا (المجموع) سُرقَ منه في طريقِ فارس! وتأوّه عليه كثيراً!! ومات وهو عَادِمٌ له!

ثم إنَّ هذا المجموع حَصَلَ في بعضِ وقوفِ مدينة أصبهان، ولما توجّه إليها سعيدُ بنُ الدّهّان البغداديّ، وَجَدَ «المجموع» المذكور، فنقل منه مجلّداً واحداً، ولم أرَ سِوَاهُ بخطِّ سعيدِ المذكور.

* * *

ابن الملّقن^(٢) :

هو الإمام الحافظ (عُمَر بن علي بن أحمد الواديّ أشي) الشهير بابن المُلَقِّن، المولود بالقاهرة سنة ٧٢٣هـ، والمتوفى سنة ٨٠٤هـ رحمه الله تعالى، وقد بَلَغَتْ مؤلّفاتُهُ نحوَ ثلاثِ مِئَةِ مصنّف.

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٢٦٣، نقلاً عن إنباه الرواة ٣/ ١١٤ .

(٢) طبقات الشافعية لابن شهبة ٣/ ٣٧٣، وإنباه الغمر ٥/ ٤٥، وذيل الدرر الكامنة ص ١١٢، ووجيز الكلام ١/ ٣٦٢، والضوء اللامع ٦/ ١٠، والقبس الحاوي ٢/ ١٢، وشذرات الذهب ٩/ ٧١، والبدر الطالع ١/ ٥٠٨، ومقدمة طبقات الأولياء ص ٣٥، ونزهة النظر ص ٥٥، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٧١، ومن مصادره: الاغتباط بمعرفة من رُمي بالاختلاط ص ١٩ .

قال السخاوي في الضوء اللامع : قال شيخنا الحافظُ ابنُ حجر العسقلاني : وكان عنده من الكتب ما لا يدخلُ تحت الحَصْرِ .

وقد أعانه على تكوين هذه الخزانة الضخمة «كثرة المال، ورخاء الأسعار، وقلة العيال» كما يقول المقرئزي . ذلك أن زوج أمه «عيسى المغربي» قد أحسن استثمار ماله . . . فأنشأ ربعا، تكلف ستين ألف درهم، فكان يكتفي ابن الملقن بأجرته، وتوفر له بقية ماله وغيرها بحيث قال شيخنا: إنه بلغه أنه حضر في الطاعون بيع كتب بعض المحدثين، فكان الوصي لا يبيع إلا بالنقد الحاضر . قال ابن الملقن: فتوجهت إلى منزلي فأخذت كيساً من الدراهم، ودخلت الحلقة فصبيته، فصرت لا أزيد في كتاب شيئاً إلا قال: بيع له، فكان فيما اشتريته مسند الإمام أحمد بثلاثين درهماً . وقال المقرئزي: إنه كان يتحصل له من ريع كل يوم مثقال ذهب .

ثم إنها احترقت مع أكثر مسوداته في أواخر عمره، فقَدَ أكثرها! وتغيَّرَ حاله بعدها! فحجَّبه ولده إلى أن مات .

وقال شيخنا - الحافظُ ابنُ حجر - أيضاً في «معجمه»: إِنَّهُ قَبْلَ احْتِرَاقِ كُتُبِهِ كَانَ مُسْتَقِيمَ الذَّهْنِ، وَلَمَّا احْتَرَقَتْ كُتُبُهُ أَنْشَدَهُ شَيْخُنَا مِنْ نَظْمِهِ مُخَاطَباً لَهُ:

لَا يُزْعَجَنَّكَ يَا سِرَاجَ الدِّينِ إِنْ
لَعَبْتَ بِكُتُبِكَ أَلْسُنُ النِّيرانِ
لِلَّهِ قَدْ قَرَّبَتْهَا فَتَقَبَّلَتْ
وَالنَّارُ مُسْرِعَةٌ إِلَى الْقُرْبَانِ
وقال أيضاً:

أَلَا يَا سِرَاجَ الدِّينِ لَا تَأْسَ إِنْ غَثَّ
لِرَبِّكَ قَدْ قَرَّبَتْهَا فَتَقَبَّلَتْ
بِكُتُبِكَ نَارُ مَا لِمَعْرُورِهَا عَارُ
كَذَلِكَ الْقُرْبَانُ تَأْكُلُهُ النَّارُ

* * *

فاجعة أسامة بن منقذ^(١) :

وهذه فاجعةٌ كُبْرَى من فواجع العلماءِ بفقدِ الكتبِ، تنزِلُ بأسامة بن منقذ أمير بلدة شَيْزَر وقلْعَتِها، وأحدِ الشجعانِ والعلماءِ الأدباءِ في عصره، ولد سنة ٤٨٨هـ وتوفي سنة ٥٨٤هـ، وقد حَلَّتْ به هذه الداهيةُ الدهيئةُ قبل سنة ٥٦٩هـ، في حياةِ المَلِكِ العادلِ نور الدين الشهيد رحمهما الله تعالى.

قال الأميرُ أسامةٌ في كتابه «الاعتبار»، الذي دَوَّن فيه مُجَمَّلَ سيرته، — وهو يتحدَّثُ عن هذه الفاجعة المؤلمة على مَدَى العُمُر — :

ثم اتَّصَلْتُ بِخِدْمَةِ المَلِكِ العادلِ نور الدين رحمه الله، وكاتَبَ المَلِكُ الصالحَ — بَنُ رُزَيْكٍ في مصر — في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلَّفوا بمصر، وكان مُحْسِنًا إِلَيْهِمْ. فرَدَّ الرَّسُولَ واعتَذَرَ بأنَّه يخافُ عليهم من الإفرنج، وكتَبَ إِلَيَّ يقول: تَرَجُّعُ إلى مصر وأنتَ تَعْرِفُ ما بيني وبينك، وإن كنتَ مستوحِشاً من أهل القصر، فتَصَلُّ إلى مكة، وأُنْفِذْ لك كتاباً بتسليم مدينةِ أَسْوَانَ إِلَيْكَ، وأُمِدُّكَ بما تتَقَوَّى به على محاربةِ الحَبْشَةِ، فأَسْوَانُ تُغَرُّ من ثغور المسلمين، وأُسَيِّرُ إِلَيْكَ أَهْلَكَ وَأَوْلَادَكَ.

ففاوضْتُ المَلِكَ العادلَ واستطلعتُ أمرَه، فقال: يا فلانُ، ما صَدَّقْتُ متى تَخْلُصُ من مصر وفتِنَها، تعودُ إليها؟! العُمُرُ أَقْصَرُ من ذلك، أنا أُنْفِذُ — من — يأخُذُ لأهْلِكَ الأمانَ من مَلِكِ الإفرنج، وأُسَيِّرُ من يُحْضِرُهُمْ. فأُنْفِذُ رحمه الله مَنْ أَخَذَ أمانَ المَلِكِ في البَرِّ والبحر، وسَيَّرْتُ الأمانَ مع غلام لي وكتابَ المَلِكِ العادلِ وكتابي إلى المَلِكِ الصالح، فسَيَّرُهُمْ في عَشَارِيٍّ من الخاصِّ إلى دِمْيَاط، وَحَمَلْ لَهُمْ كُلَّ ما يَحْتَاجُونَهُ مِنَ النِّفَقَاتِ والزاد، وَوَصَّي بِهِمْ.

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٢٦٩.

وأقلعوا من دِمياط في بُطْسَة من بُطس الإفرنج، فلما دَنَوْا من عَكَّا
والملك — لا رحمه الله — فيها، نَفَذَ قوماً في مركبٍ صغير، كَسَرُوا البُطْسَة
بِالْفُؤُوسِ، وأصحابي يَرَوْنَهُمْ، وَرَكَبَ وَوَقَفَ على الساحل، ونُهِبَ كُلُّ
ما فيه! فخرَجَ إليه غلامٌ لي سِباحَة، والأمانُ معه، وقال له: ما هذا أمانك؟
قال: بلى، ولكن هذا رَسْمُ المُسْلِمِينَ: إذا انكسَرَ لهم مَرَكَبٌ على بلدٍ، نَهَبَهُ
أهلُ ذاك البلد! قال: فَتَسِينَا؟ قال: لا.

وَأَنزَلَهُمْ — لعنه الله — في دار، وَفَتَشَ النساءَ، حتى أَخَذَ كُلُّ ما معهم،
وقد كان في المركب حُلِيٌّ أودَعَهُ النساءُ، وَكِسَوَاتٌ وجواهرٌ وسُيُوفٌ وسِلَاحٌ
وذهَبٌ وَفِضَّةٌ، بنحوٍ من ثلاثين ألفَ دينار، فأخَذَ الجميعَ، وَنَفَذَ لَهُمْ خَمْسَ
مئة دينار، وقال: تَوَصَّلُوا بِهِذِهِ إلى بلادِكُمْ، وكانوا رجالاً ونساءً في خمسين
نَسْمة. وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ مع المَلِكِ العادلِ في بلادِ المَلِكِ مسعود: رَغْبَانِ
وَكِسُونِ.

فهوَنَ عَلَيَّ سَلامَةُ أولادي وأولادِ أَخِي حِرْمانَ ما ذَهَبَ من المال، إِلَّا
ما ذَهَبَ لي من الكتب! فَإِنَّها كانت أربعةً آلافٍ مجلِّدٍ من الكتبِ الفاخرة،
فإنَّ ذهابَها حَزَازَةٌ في قلبي ما عِشْتُ! فهذه نِكَباتُ تُرْعِزُ الجبالَ، وَتُفْنِي
الأموالَ، والله سبحانه يُعَوِّضُ بِرَحْمَتِهِ، وَيَخْتِمُ بِلُطْفِهِ وَمَغْفِرَتِهِ.

* * *

عَلَيَّ بنِ إِبْراهيمِ بنِ عَلِي بنِ مَعْتوقِ بنِ عَبْدِ المَجِيدِ بنِ وَفَا،
المَعْرُوفِ بِابْنِ الثَّرَدَةِ^(١):

قدم إلى دمشق مراتٍ ووعظ بها بالجامع الأموي، ثم حصل له خلط
سوداوي فتغير حاله، وكان يدَّعي في هذه الحالة أنه كانت له ببغداد كتب

(١) أعيان العصر ٢٤٩/٣، وفوات الوفيات ٤٦٣/٢، والدرر الكامنة ٧٦/٣.

تقدير ألفي مجلدة، وأن جماعة من التجار الذين قدموا دمشق اغتصبوها وقدموا بها دمشق وأباعوها، وكان ذلك كله من مخيلة السوداء، فساءت حاله وأضرّت به.

وكان إذا دفع إليه أحد شيئاً من دراهم أو غيرها لا يقبل منه، ويقول: مَنْ أنت؟ أظنّ عندك شيء من كتبي فأنت تُبرطلني على ذلك؟! ولا يقبل لأحد شيئاً إلا بعد الجهد.

وكان قد أتى إلى بعض الحكّام وادّعى عنده، وهو في هذه الحالة، على التجّار الذين أخذوا كتبه، فقال له القاضي: يا شيخ علاء الدّين، قولك دعوى، ألك بيّنة تشهد بذلك؟ فقال له: كيف يكون لي بيّنة، وقد صفعوك منها بمئتي مجلد؟! يعني دفعوها برطيلاً، فضحك القاضي والحاضرون منه. وكتب - وهو في هذه الحالة - قصّة للأمير سيف الدين يلبغا اليعقوبي نظماً:

عن قتل قوم للظواهر زوّقوا
ويُرى عليهم في المهابة رونق
في أخذه وتألّوا وتملّقوا
فأمر بهم أن يقتلوا أو يُشنقوا
ما فيهم من في كلام يصدّق
كالسهم ظل من الرميّة يمرّق
منهم إليك وكنم لقلبي أحرّقوا
أنى اتجهت وللأعادي أذلّقوا
نحو الشام وبينهم قد مزّقوا
إلا كأنك حائط لا ينطق
عنهم ورأسك من حيائك مُطرّق

يا نائب السلطان لا تك غافلاً
قوم لهم وقع وذكر في الورى
وإذا رأوا شيئاً عليه تحيلوا
ما هم تجار بل لصوص كلّهم
المين دأبهم إذا ما حدّثوا
مرّقوا من الدين الحنيف بأسرهم
كم أستغيث وكم أضجّ وأشتكي
سدّوا عليّ الطرّق بغياً منهم
وأثوا بمالي من لامة طبّعهم
وأراك لا تجدي إليك شكاية
ماذا جوابك حين تُسأل في غد

وإذا ركبت، لك الملوك تُطرق؟
 فالبغي مَصْرَعَةٌ وفِعْلٌ مُؤَبَّقٌ
 فالحقُّ حقٌّ واضحٌ هو مُشْرَقٌ
 في الأرض بغيّاً منهم وتجوّقوا
 أو أتهموا أو أشأموا أو أعرقوا
 أو أجموا أو أرعدوا أو أبرقوا
 فبقاؤه للناس ضُرٌّ مُقْلِقٌ
 ليُكْفَ عنك اللّه شرّاً يطرق
 ورؤوسهم مهما حَيّت تُحَلِّق
 وبُنودُ نصرِكَ عاليات تخفّق

ما أنت راع والأنام رعيّة
 كُنْ مُنْصَفَ المَظْلُومِ من غُرْمائه
 واكشف ظُلامةَ مَنْ شكا مِنْ خصمه
 لا تَعْفُ عن قوم سَعَوْا لفسادهم
 وانصب لهم شَرَكَ الرّدى إِنْ أَنْجَدُوا
 لا تنبرق منهم وَإِنْ هُمْ أَسْرَجُوا
 ومتى ظفرت بمُفْسِدٍ لا تُبْقِه
 واكفّف أَكْفَ الظّالِمين عن الورى
 لا زلت سيفاً للأعادي قاطعاً
 وبقيت في مَجْدٍ رفيع لا يَهِي

* * *

الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم
 الشيباني القفطي، يعرف بالقاضي الأكرم^(١) :

قال صاحبه وخديّته العلامة ياقوت الحموي: هو أحدُ الكتاب
 المشهورين المبرزين في النظم والنثر.

ولد في ربيع سنة ثمان وستين وخمسائة بمينة قفط من الصعيد الأعلى
 بمصر، ونشأ بالقاهرة، واجتمعتُ بخدمته في حلب، فوجدته جَمَّ الفضل،

(١) معجم الأدباء ١٥/١٨٧، ومفرج الكروب ٤/٣١٢، وتاريخ الإسلام ٤٧/٣٢٥،
 وسير أعلام النبلاء ٢٣/٢٢٧، والعبر ٣/٢٥٥، والوافي ٢٢/٣٣٨، والطالع
 السعيد ص ٤٣٦، وفوات الوفيات ٣/١١٧، وعيون التواريخ ٢٠/٢٦، ومراة
 الجنان ٤/١١٦، وبغية الوعاة ٢/٢١٢، وشذرات الذهب ٧/٤٠٨، وأعلام
 النبلاء ٤/٣٩٦، والعلماء العزّاب ص ١٤٣، وصفحات من صبر العلماء
 ص ٢٧١، ومقدّمة إنباه الرواة ١/٢٠، والمحمدون من الشعراء ص ت.

كثير الثَّبل، عظيم القَدْر، سَمَحَ الكَفِّ، طَلَقَ الوجه، حُلُوَ البِشَاشَة.

وكنْتُ أَلَا زِمُ مَنْزَلَهُ وَيَحْضُرُ أَهْلُ الْفَضْلِ وَأَرْبَابُ الْعِلْمِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا فَاتَحَهُ فِي فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ، كَالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَعِلْمِ الْقُرْآنِ وَالْأَصُولِ وَالْمَنْطِقِ وَالرِّيَاضَةِ وَالنَّجُومِ وَالْهَنْدَسَةِ وَالتَّارِيخِ وَالْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَجَمِيعِ فُنُونِ الْعِلْمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا قَامَ بِهِ أَحْسَنَ قِيَامٍ، وَانْتَضَمَ فِي عِقْدِهِمْ أَحْسَنَ انْتِظَامٍ...

وكان القاضي الأكرم المذكورُ جَمَاعَةً لِلْكَتَبِ، حَرِيصاً عَلَيْهَا جَدًّا لَمْ أَرْ - مَعَ اسْتِمَالِي عَلَى الْكَتَبِ وَبَيْعِي لَهَا وَتِجَارَتِي فِيهَا - أَشَدَّ اهْتِمَاماً مِنْهَا، وَلَا أَكْثَرَ حَرَصاً مِنْهُ عَلَى اقْتِنَائِهَا، وَحَصَلَ لَهُ مِنْهَا مَا لَمْ يَحْصُلْ لِأَحَدٍ، وَكَانَ مَقِيماً بِحَلَبَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَشَأَ بِمِصْرَ، وَأَخَذَ بِهَا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِنَصِيبٍ.

وقال المؤرِّخ ابنُ شاکر الکتبی:

وَجَمَعَ مِنَ الْكَتَبِ مَا لَا يُوصَفُ، وَقَصَدَ بِهَا مِنَ الْآفَاقِ، وَكَانَ لَا يُحِبُّ مِنَ الدُّنْيَا سِوَاهَا، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ دَارٌ وَلَا زَوْجَةٌ، وَأَوْصَى بِكُتُبِهِ لِلنَّاصِرِ صَاحِبِ حَلَبَ، وَكَانَتْ تُسَاوِي خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ^(١).

وقال النويري: كان مُجِبًّا لِلْكَتُبِ، جَمَّاعاً لَهَا، جَمَعَ مِنْهَا مَا لَمْ يَجْمَعَهُ أَحَدٌ مِنْ أَمْثَالِهِ، وَاشْتَهَرَ بِالرَّغْبَةِ فِيهَا، وَالْمُغَالَاةِ فِي أَثْمَانِهَا، فَقَصَدَهُ النَّاسُ بِهَا مِنَ الْآفَاقِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ مِنْهَا أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ، بِالْخَطِّ الْمَنْسُوبِ، وَخُطُوطِ الْمَشَايِخِ وَالْمُصَنِّفِينَ، وَلَمْ يَقَعْ لَهُ كِتَابٌ مَلِيحٌ فَرَدَّهُ، بَلْ يَبَالِغُ فِي إِرْضَاءِ صَاحِبِهِ بِالثَّمَنِ، فَإِذَا مَلَكَهُ اسْتَوْعَبَ قِرَاءَتَهُ، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي خَزَائِنِهِ، ثُمَّ يَشِخُّ فِي

(١) قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في كتابه صفحات من صبر العلماء ص ٢٧٢: وَيَقَعُ فِي حِسْبَانِي أَنَّ (خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ) فِي زَمَنِ تَعَادُلِ عَشْرَةِ مِلايين رِيالٍ سَعُودِي فِي زَمَنَّا أَوْ تَزِيدُ.

إِخْرَاجِهِ ، فَلَا يَكَادُ يُظْهِرُ عَلَيْهِ أَحَدًا ، صِيَانَةً لَهُ وَضَنَاءَ بِهِ !

قال الحافظ مُحِبُّ الدِّينِ ابْنُ النُّجَّارِ : كُنَّا عِنْدَهُ لَيْلَةَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَجَرَى بَحْثُ أَقْصَى إِلَى اعْتِبَارِ كَلِمَةٍ وَكَشَفِهَا مِنْ كِتَابِ الصُّحَّاحِ . فَقَالَ لِبَعْضِ مَمَالِيكِهِ : اذْهَبْ إِلَى الْمُؤَيَّدِ — يَعْنِي أَخَاهُ — وَأَحْضِرْ مِنْ عِنْدِهِ نُسْخَةَ مِنْ الصُّحَّاحِ . . قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ : وَالْمَوْلَى مَا عِنْدَهُ نُسْخَةٌ مِنَ الصُّحَّاحِ ؟ ! فَقَالَ : وَحَيَاتِكَ — يَا مُحِبُّ — عِنْدِي خَمْسُ نُسَخٍ ، وَمَا يَطِيبُ عَلَى قَلْبِي أَنْ أُخْرِجَ مِنْهَا نُسْخَةً — لَا سِوَمَا بِاللَّيْلِ ، وَنَحْتَاجُ إِلَى إِدْخَالِ الضُّوءِ .

وله في شَغْفِهِ بِالْكَتَبِ حِكَايَاتٌ كَثِيرَةٌ .

قال الصَّلاحُ الصَّفْدِيُّ : مِنْهَا أَنَّهُ وَقَعَ لَهُ نُسْخَةٌ مَلِيحَةٌ مِنْ كِتَابِ «الْأَنْسَابِ» لِابْنِ السَّعْيَانِيِّ بِخَطِّهِ ، يُعَوِّزُهَا مُجَلَّدٌ مِنْ أَصْلِ خَمْسَةِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْحَثُ عَنْهُ وَيَطْلُبُهُ مِنْ مَطَّائِهِ ، فَلَمْ يَحْصُلْ عَلَيْهِ ! وَبَعْدَ أَيَّامٍ — مِنْ يَأْسِهِ مِنْ الْحُصُولِ عَلَيْهِ — اجْتَازَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بِسُوقِ الْقَلَانِسِيِّينَ بِحَلَبٍ ، فَوَجَدَ أَوْزَاقًا مِنْ كِتَابِ «الْأَنْسَابِ» الْمَفْقُودِ عِنْدَهُ ، فَأَحْضَرَهَا إِلَيْهِ ، فَأَحْضَرَ الْوَزِيرُ الصَّانِعُ ، وَسَأَلَهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : اشْتَرَيْتُهُ فِي جُمْلَةٍ أَوْزَاقٍ ، وَعَمِلْتُهُ قَوْلَ الْبَلِّ لِلْقَلَانِسِ !

فَحَدَّثَ عِنْدَ الْوَزِيرِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْوُجُومِ مَا لَا يُمَكِّنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ ! حَتَّى إِنَّهُ بَقِيَ أَيَّامًا لَا يَرَكُبُ إِلَى الْقَلْعَةِ — مَقَرُّ الْحُكْمِ وَالْوِزَارَةِ — ، وَقَطَعَ جُلُوسَهُ ، وَأَحْضَرَ مِنْ نَدَبٍ عَلَى الْكِتَابِ كَمَا يُنْدَبُ عَلَى الْمَيِّتِ الْمَفْقُودِ الْمُوَيَّسِّ مِنْهُ ! وَحَضَرَ عِنْدَهُ الْأَعْيَانُ يُسَلُّونَهُ كَمَا يُسَلَّى مِنْ فَقْدِهِ لَهُ عَزِيزُ !

وَفِي كِتَابِهِ «الْإِنْبَاءِ» نَجْدُهُ كَثِيرًا مَا يَفْخَرُ بِأَنَّهُ اقْتَنَى كِتَابًا بِخَطِّ مُؤَلِّفٍ مَعْرُوفٍ ، أَوْ نَاسِخٍ مَشْهُورٍ ، أَوْ عَثَرَ عَلَى نُسْخَةٍ فَرِيدَةٍ مِنْ كِتَابٍ لَا تَوْجَدُ عِنْدَ سِوَاهُ .

وَقَدْ جَمَعَ مَقْدَارًا وَافِرًا مِنَ التَّعْلِيقَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالطَّرَفِ الَّتِي تَعُودُ

العلماء أن يضعوها على ظهور الكتب . ولما اجتمع له قدر صالح منها رأى أنها تستأهل أن تكون كتاباً ، فكان كتاب «نهضة الخاطر ونزهة الناظر في أحاسن ما نقل من ظهور الكتب» .

وقال ياقوت : كَانَ صَفِيُّ الدِّينِ الْأَسْوَدُ عِنْدَ نُزُولِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ بِحَلَبَ قَدْ عَرَضَ كِتَاباً لَهُ يُعَرِّفُ بِالتَّذَكُّرَةِ لِابْنِ مُسَيْلِمَةَ — وَكَانَ مَعْرُوفاً بِالْبَغَاءِ — أَحَدِ كُتَابِ مِصْرَ يَشْتَمِلُ عَلَى قَوَائِنِ الْكِتَابَةِ وَآيِينَ الدَّوْلَةِ الْعُلَوِيَّةِ ، وَأَخْبَارِ مُلُوكِ مِصْرَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، فِي اثْنَيْ عَشَرَ مُجَلِّدًا ، وَدَفِعَ لَهُ فِيهِ مَا سَمَحَ بَيْعِهِ . وَغُرِضَ عَلَى الصَّاحِبِ الْكَبِيرِ جَمَالِ الدِّينِ الْأَكْرَمِ أَدَامَ اللَّهُ عُلاَّهُ وَكَبَتْ أَعْدَاءُهُ ، فَأَرَادَ شِرَاءَهُ — وَاتَّفَقَ رَحِيلُ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ إِلَى نَوَاحِي الْجَزِيرَةِ — فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ثَمَنَهُ وَزِيَادَةً فِي مِثْلِهِ وَافِرَةً ، فَلَمَّا عَلِمَ صَفِيُّ الدِّينِ أَنَّ الْمُشْتَرِيَ هُوَ الْوَزِيرُ أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ ضَنَّ بِالْكِتَابِ وَأَعْتَبَطَ ، وَأَخْتَجَّ وَخَلَطَ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ قَدَّمَهُ لِلْخِزَانَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ .

فَكَتَبَ الصَّاحِبُ الْوَزِيرُ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ الْقَيْلَوِيِّ — وَكَانَ وَسِيطُهُ فِي شِرَاءِ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ — مَا هَذِهِ نُسخَتُهُ :

العِزَّةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ :

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْ حَبِيبٍ فَشَاقَنِي

إِلَيْهِ وَزَادَ الْقَلْبَ وَجْدًا عَلَى وَجْدِ

وَكِدْتُ لِمَا أَضْمَرْتُ مِنْ لَاعِجِ الْهَوَى

وَوَجْدًا عَلَى مَا فَاتَ أَقْضِي مِنَ الْوَجْدِ

وَقَفْتُ عَلَى الْكِتَابِ الْكَرِيمِ الصَّادِرِ عَنِ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ الْقَضَائِيِّ الْعِزِّيِّ — لَا زَالَتْ سِيَادَتُهُ تَتَجَدَّدُ ، وَسَعَادَتُهُ تَتَأَكَّدُ ، وَفَوَاضِلُهُ تَتَرَدَّدُ ، وَفَضَائِلُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ تَصْدُرُ ، وَفِي الْمَجَالِسِ تُورَدُ — وَعَلِمْتُ إِشَارَتَهُ فِي التَّذَكُّرَةِ الْمُسَيْلِمِيَّةِ وَالنِّيَّةِ فِي حَمْلِهَا إِلَى الْخِزَانَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ . وَلَقَدْ زُفْتُ إِلَى أَجَلِّ

خَاطِبٍ، وَرَقِيتْ بَعْدَ انْحِطَاطِهَا إِلَى أَسْنَى الْمَرَاتِبِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ بِكْرِ فِكْرِ
أَكَابِرٍ، فَمَا هِيَ إِلَّا بِنْتُ عِدَّةِ آبَاءٍ، وُلِدَتْ عَلَى فِرَاشِ عَوَاهِرٍ، كَانَ عَلَيْهِ الْبَغَاءُ
فِي الْعَالَمِينَ عِلَامَةً، أَعْنِي ابْنَ مُسَيْلَمَةَ ذَا الدَّاءِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ،
فَجَاءَتْ ذَاتَ غَرَامٍ لَا يَشْفِي قَطْمَهَا إِلَّا السُّودَانُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ نَاكِحَهَا
الثَّانِي لَا تَفْقَ الْأَلْوَانَ، وَأَبَى اللَّهُ لَهَا إِلَّا أَنْ تُهْدَى إِلَى الْمَقَرِّ الْأَزْفَعِ، وَأَنْ يَقَعَ
الْإِتْنَاءُ بِالْبَغْيِ مِنَ الْهُمَامِ الْأَرْوَعِ، وَلَسْتُ يَأْسَأَ عَلَى عَدَمِهَا، وَلَا رَاجِيًا شِفَاءَ
كَلِمِي بِكَلِمِهَا:

تَحْمَلْ أَهْلُهَا عَنِّي فَبَانُوا عَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَاءُ

وَكَاثِي بِسَامِيهِ عَرَضَ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى مَنْ لَا أَسْمِيَهُ، فَقَرَنَ حَاجِيَتِي،
وَلَوَى شَفِيتِي، وَلَمَسَ عُثُونُهُ تَعَجُّبًا، وَأَمَالَ عِطْفِيهِ تَظَرُّفًا، وَقَالَ: أَذْكَرْتَنِي
سَجَعَ الْكُفَّانِ، وَأَسْمَعَنِي قَعْقَعَةَ صَغْصَعَةِ بَنِ صَوْحَانَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى
مَا يَصِفُونَ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْثَةُ مَضْذُورٍ، صَدَرَ نَافِثُهَا بِصَفْقَةِ الْمَغْبُورِ.

وَأَمَّا سُؤَالُهُ عَمَّا حَصَلَ مِنَ الْكُتْبِ فِي غَيْبَتِهِ، فَمَا هِيَ إِلَّا
الْبَحْرُ جَادَ بِدُرِّهِ، وَمَكَّنْتَنِي مِنْ لُجَّةٍ وَسَوَاحِلِهِ، حَصَلَ مِنْ نَفَائِسِهَا
أَعْلَاقُ نَفِيسَةٍ، وَأُضْحَتْ عَلَى بُغْضِ الْمَزَاحِمِ عَلَيْهَا مَوْقُوفَةٌ حَبِيسَةٍ، لَوْ امْتَدَّتْ
يَدُ إِلَيْهَا لَشَلَّتْ، وَلَوْ سَعَتْ إِلَيْهَا قَدَمٌ لَمَا أَقَلَّتْ جُثَّتَهَا وَلَا اسْتَقَلَّتْ،
لَا ابْنُ الْعَدِيمِ يَغْدُمُهَا، وَلَا الْقِيلَوِيُّ يُقْلَلُهَا، وَلَا الصَّفِيُّ يَصْطَفِيهَا،
وَلَا الْمَجْدُ يَخْتَرِلُهَا،

«خَلَا لَكَ الْجَوْ فَيِضِي وَأَصْفِرِي»

وَتَعْدَادُ الْمُجَدِّدِ مِنْهَا يَقْصُرُ عَنْهُ الْكِتَابُ، وَيَقْصُرُ دُونَهُ الْخِطَابُ، وَاللَّهُ
الْمَوْفَّقُ.

* * *

أبو الشبل عاصم بن وهب^(١) :

أخبر الحسن بن عليّ الشَّيباني قال : دخلتُ على أبي الشبل عاصم بن وهب يوماً فوجدتُ تحت مخدّته ثلثَ قرطاس ، فسرقتُه منه ولم يَعْلَمْ بي .

فلما كان بعد أيام جاءني فأنشدني لنفسه يرثي ذلك الثلثَ القرطاس :

فَكَرَّ تَعْتَرِي وَحَزَنٌ طَوِيلُ	وَسَقِيمٌ أَنْحَى عَلَيْهِ التُّحُولُ
لَيْسَ يَبْكِي رَسْمًا وَلَا طَلَلًا مـ	حَّ كَمَا تُنْدَبُ الرُّبَا وَالطُّلُولُ
إِنَّمَا حَزْنُهُ عَلَى ثُلُثٍ كَأَـ	نَ لِحَاجَاتِهِ فَعَالَتْهُ غُولُ
كَانَ لِلسَّرِّ وَالْأَمَانَةِ وَالْكَتـ	مَانِ إِنْ بَاحَ بِالْحَدِيثِ الرِّسُولُ
كَانَ مِثْلَ الْوَكِيلِ فِي كُلِّ سَوِيـ	إِنْ تَلَكَّأَ أَوْ مَلَّ يَوْمًا وَكَيْلُ
كَانَ لِلْهَمِّ إِنْ تَرَكَمَ فِي الصِّدـ	رَ فَلَمْ يُشَفَّ مِنْ عِلِيلٍ غَلِيلُ
لَمْ يَكُنْ يَبْتَغِي الْحِجَابَ مِنَ الْحـ	جَّابِ إِنْ قِيلَ لَيْسَ فِيهَا دُخُولُ
إِنْ شَكَأَ حَاجِبًا تَشَدَّدَ فِي الْإِذـ	نَ فَلِلْحَاجِبِ الشَّقِيّ الْعَوِيلُ
يُرْفَعُ الْخَيْرُ عَنْهُ وَالرِّزْقُ وَالْكَؤُـ	سُوءُهُ فَهُوَ الْمَطْرُودُ وَهُوَ الذَّلِيلُ
كَانَ يُثْنَى فِي جَيْبِ كُلِّ فِتَاةٍ	دُونَهَا خَنْدَقٌ وَسُورٌ طَوِيلُ
يَقِفُ النَّاسُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يُدـ	خَلَ الْقَصْرَ غَادَةً عُطْبُولُ
فَلِذَا أُبْرَزَتْهُ بَاحَ بِهِ فِي الْـ	قَصْرِ مَسْكٍ وَعَنْبِرٍ مَعْلُولُ
وَلَهُ الْحَبُّ وَالْكَرَامَةُ مِمَّنـ	بَاتَ صَبًا وَالشَّمُّ وَالتَّقْبِيلُ
لَيْسَ كَالْكَاتِبِ الَّذِي بِأَبِي الْخـ	طَّابَ يُكْنَى قَدْ شَابَهُ التَّنْفِيلُ
ذَا كَرِيمٌ يُدْعَى ، وَهَذَا طَفِيـ	لِيٌّ وَهَذَا وَذَا جَمِيعًا دَلِيلُ
ذَاكَ بِالْبَشْرِ وَالْجَمَاعَةِ يُلْقَى	وَلِهَذَا الْحِجَابُ وَالتَّنْكِيلُ
لَمْ يَفِدْ وَفْدُهُ الزَّمَانَ عَلَى الْآلـ	سَنَ مِنْهُ عَطْفٌ وَلَا تَنْوِيلُ
كَانَ مَعَ ذَا عَدْلِ الشَّهَادَةِ مَقْبُـ	لًا إِذَا عَزَّ شَاهِدًا تَعْدِيلُ

(١) الأغاني ٢٠٩/١٤ ، والتذكرة الحمدونية ٢٩٢/٤ .

وَإِذَا مَا أَلْتَوَى الْهَوَى بِالْأَلْفِيهِ
فَهُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي قَوْلُهُ يَبِ
فَلْتَن شَتَّتَ الزَّمَانُ بِهِ شَمَ
لَقَدِيمًا مَا شَتَّتَ الْبَيْنَ وَالْأَلِ
لَا تُلْمَنِي عَلَى الْبُكَاءِ عَلَيْهِ
مَنْ فَلَمْ يَرْعَ وَاصِلًا مَوْصُولُ
مَنْ الْأَلْفَيْنِ جَائِزٌ مَقْبُولُ
لَ دَوَاتِي وَحَانَ مِنْهُ رَحِيلُ
فَقَةُ مِنْ صَاحِبٍ، فَصَبْرٌ جَمِيلُ
إِنَّ فَقَدَ الْخَلِيلِ خَطْبٌ جَلِيلُ

قال: فرددته عليه، وكان أنهم به أبا الخطاب الذي هجاه في هذه القصيدة، فقال لي: ويلك، نُجِّيتَ ووقع أبو الخطاب بلا ذنب!! ولو عرفتُ أنك صاحبها لكان هذا لك، ولكنك قد سلمت.

* * *

أبو هلال العسكري:

قال في كتاب أكلته الأرضة^(١):

وَجَلِيسُ حَسَنُ الْمَحَدِ	ضَرَّ مَأْمُونُ الْمَغِيبِ
مَيِّتٌ يَخْبِرُ حَيًّا	بِخَفِيَّاتِ الْغَيْبِ
أَبْلَسٌ غَيْرُ لَبِيبِ	وَهُوَ فِي حَالِ اللَّيِّبِ
جَاهِلٌ غَيْرُ أَدِيبِ	وَهُوَ عَوْنٌ لِلْأَدِيبِ
أَخْرَسٌ غَيْرُ خَطِيبِ	وَلَهُ لَفْظُ الْخَطِيبِ
مَفْحَمٌ يَنْظُمُ شِعْرًا	مِثْلَ إِقْبَالِ الْحَبِيبِ
سَاكِتٌ يَرُوِي حَدِيثًا	مِثْلَ إِعْرَاضِ الرَّقِيبِ
نَمَقَّتْهُ الْكَفُّ حَتَّى	هُوَ كَالْوَشِيِّ الْقَشِيبِ
مِنْ سَوَادٍ وَيِضَاضِ	كَشِبَابٍ وَمَشِيبِ
فِيهِ إِمْتِنَاعٌ لِأَبْصَا	رٍ وَأَنْسٌ لِلْقُلُوبِ

(١) ديوان المعاني ص ٥٢٧، وديوان العسكري ص ٦٥.

دَبَّ فِيهِنَّ دَيْبٌ كَانَ مِنْ شَرِّ الدَّيْبِ
 مِنْ صَغِيرَاتِ جِسْمٍ وَكَبِيرَاتِ الذَّنُوبِ
 أَخَذَتْ مِنْهَا نَصِيْبًا فَالتَوَى مِنْهَا نَصِيْبِي
 أَفْرَحْتُ قَلْبَ جَهْوَلٍ وَكَوَتْ قَلْبَ لَيْبِ
 وَيْلَ هَاتِيكَ الْمَعَانِي مِنْ بَدِيعٍ وَغَرِيبِ
 وَأَفَانِيْنَ كَلَامٍ بَيْنَ سَهْلٍ وَصَلِيبِ
 مِنْ بَدِيعٍ وَفَصِيحٍ وَصَحِيحٍ وَمَصِيبِ
 بُدِّلَ الْإِفْصَاحُ مِنْهُ نَّ بِإِفْسَادٍ عَجِيبِ
 فَنَجُومُ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ سَمَّ تَهَاوَتْ لِلْغُرُوبِ
 كُلُّ شَيْءٍ سَوْفَ يَفْنَى عَنْ بَعِيدٍ وَقَرِيبِ

* * *

عبد الله بن محمد المعتز :

قال في أرضة وقعت في كتبه^(١):

لَمْ أَبْكِ رُبْعًا مُقْفِرًا وَلَا طَلَّلَ وَلَا حَبِيبًا قَطَعَ الْوَضْلَ وَمَلَّ
 كُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنَامِ مُعْتَزَلِ عَلَى السَّيْرِ دُونَ ذَمِّي مُنْسَدِلِ
 عَلَى الَّذِي يَمْلِكُ رِزْقِي مُتَّكِلِ لَا رَاجِيًّا لِدَوْلَةٍ مِنَ الدُّوَلِ
 وَلَا أَخَافُ أَجَلًا عَلَى أَمَلِ شَغْلِي إِذَا مَا كَانَ لِلنَّاسِ شُغْلُ
 دَفَنْتُ فَقِهِ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ غَزَلِ لَا عَايِسِي وَلَا يَرَى مِنِّي زَلَلِ
 تَخَالُهُ مُكْتَحِلًا وَمَا اكْتَحَلَ رَاكِبٌ كَفَّ أَيْنَمَا شَاءَتْ رَحَلِ

(١) ديوان ابن المعتز ٢/ ٢٠٠، ورسائل ابن المعتز ص ١٢٧ وص ١٤٢، وديوان المعاني ص ٥٢٨، وريحانة الألبا ٢/ ٤٨٢.

أَرْقَطُ ذُو لَوْنٍ كَثِيبٍ الْمُكْتَهَلُ
وَهُوَ دَلِيلٌ لِمَقَالٍ وَعَمَلُ
وَيَذِكُرُ النَّاسِي مَا كَانَ أَفْلُ
يُخَاطِبُ اللَّحْظَ بِنُطْقٍ لَا يَكُلُ
فَدَبَ فِيهِنَ دَيْبٌ قَدْ أَكَلَ
يَبْنِي أَنَايِبَ لَهُ فِيهَا سُبُلُ
مِثْلُ الْعُرُوقِ لَا تَرَى فِيهَا خَلَلَ
حَتَّى تَرَى الْعَالِمَ مَهْجُورَ الْمَحَلِ
قَدْ فَاتَهُ الْعِلْمُ الْقَدِيمُ فَاَنْخَزَلُ
وَصَيَّرَ الْكُتُبَ سَحِيقاً مُنْسَحَلُ

وَإِنْ مَلِلْتُ قُرْبَهُ مِنِّي اعْتَزَلُ
وَلَا يَحُلُّ مَوْضِعاً حَتَّى تَحُلُ
يَقِيمُ وَزْنَ الْعَقْلِ حَتَّى يَغْتَدِلُ
كَأَنَّهُ يَنْشُرُ عَنْ رَقْمِ الْحُلِّ
وَلَا يَمَلُّ صَاحِباً حَتَّى يُمَلُّ
عَصَا سُلَيْمَانَ فَظَلَّ مُنْجَدِلُ
بِالْمَاءِ وَالطَّيْنِ وَمَا فِيهَا بَلَلُ
يَأْكُلُ أَثْمَارَ الْعُقُولِ لَا أَكُلُ
يَعُودُ وَقَافاً وَقَدْ كَانَ بَطَلُ
فَأَوْدَعَ الْقَلْبَ هُمُوماً تَشْتَعَلُ

* * *

أحمد الصافي النجفي :

قال في عث الكتب^(١) :

يَأْكُلُ مِنْهَا مَا شَاءَ مُتَخَبِئاً
لَا يَشْتَكِي تَخْمَةً وَلَا تَعْباً
لَمْ يُبْقِ مِنْهُ رَأْساً وَلَا ذَنْباً
وَعَدَتْ لِلْعَجْزِ حَائِراً غَضِيباً
يَلْعَنُ شِعْرِي أَمَّالَهُ وَأَبَا
لِذَاكَ يَهْوَى الْأَشْعَارَ وَالْكَتُوبَ؟
يَتْلُو، لِذَا رَاحَ يَأْكُلُ الْأَدْبَا؟

الْعَثُ بِالْكَتَبِ مَوْلَعٌ أَبْدأُ
يَلْهَمُ أَحْلَى أَشْعَارَهَا، طَرِبَا
كَمْ آيَ قَوْلٍ بِالْأَكْلِ أَنْقَصَهُ
فَحَارَ فِكْرِي فِي كَشْفِ غَائِبِهِ
وَصَحْتُ بِالْعَثِ، ثَائِراً، صَخْباً
هَلْ يَأْتِرَى الْعَثُ يَعِشِقُ الْأَدْبَا
أَهُوَ الْأَدِيبُ الْأَمِيُّ يَعْجِزُ أَنْ

* * *

(١) الشلال ص ٢١٠.

علي باكثر :

قال في وصف الفراش وتساقطه عليه حين المطالعة^(١) :

ألا شئت الله شمل الفراش	فعسكره إن أتى الليل جاش
يشوئني في مطالعتي	ويلزمني نائماً في الفراش
فبعداً له ثم بعداً له	فيا ليتَه مأكلاً للحناش
إذا ما قرأت كتاباً أتى	يهزول هزولة بانتعاش
كأن الكتاب عدو له	فيُضِي إليه سهاماً تراش
متى ضربته يدي ضربة	تماوت ثم على الفور عاش
وقد رمت أهلكه جملةً	فلُبِّي مما يعانيه طاش
فأقتل هذا وأضرب ذا	فذا في احتضار وذا في ارتعاش
فجئن إليّ محاربةً	عظماً سماناً كمثّل الكباش
فأصطادهن ولكنهن	هن الظباء وإنّي (خراش) ^(٢) !
ألا قبح الله تلك الوجوه	وتلك الجسوم وتلك الرياش

* * *

محمد بن يسير :

هجمت شاة منيع البقال على دار محمد بن يسير، وهو غائب، وكانت له قراطيس فيها أشعار وآداب مجموعة، فأكلتها كلّها، فقال في ذلك^(٣) :

(١) ديوان أزهار الربا في شعر الصبا ص ٨٥.

(٢) معنى البيت تضمين لقصة معروفة في التراث عن رجل يدعى (خراش)، أراد أن يصيد ظبية فتجمعت حوله ظباء كثيرة، جاءت في قول الشاعر القديم :

تفرقت الظباء على (خراش) فلم يعرف (خراش) ما يصيد

(٣) الأغاني ١٤ / ٣٠ ما عدا البيت الثالث، ورواية تقييد العلم ص ١٤٧ : أتى الأصمعي رجل فسأله أن يكتب له شيئاً من العلم، فكتب له ؛ فلما كان بعد أيام عاد =

قل لبغاة الآداب ما وصلت
ضمنوا علمها الدفاتر والحب
إن اشتريتهم يوماً لأهلكم
فإن عجزتم ولم يكن علف
منها إليكم فلا تضيعوها
— ربحسن الكتاب أو عوها
شاة لبوناً فلا تجيعوها
يشبعها عندكم فبيعوها

* * *

أحمد الصّافي النّجفي :

قال قصيدة بعنوان «يغرق في الصحراء»^(١) :

بعثت بديواني العزيز لموطني
فجاء بريدٌ ثم ثان وثالث
فجاء بريد النّحس من بعدُ مخبراً
فقلت طريق البرّ كان طريقه
أيغرق ديوان له البر مسلك
فقالوا أتى سيل فغطاه غمره
فقلت انظروا يا أيها الناس واعجبوا
ويظهر لي أن السما بعدما غدت
درب أنني أرسلت سفري فجهزت
فلاقت كتابي في الطريق كتائب

من السحب روى قطرها السهل والوعرا

فأضحت جميع الكائنات طروبة
إلى مرسل الأمطار مسدية شكرا
ولم تدر أن الغيث لم يك رحمة
لها بل بلاء لي، فأسعدتها قسرا

= إليه، فقال: يا أبا سعيد، إن ذلك القرطاس الذي كتبت له سقط مني فأكلته الشاة، فأحب أن تكتب لي غيره ثانياً فكتب له، وكتب: «الآيات».

(١) التّيار ص ٩٦.

ولو عرفت أسدت لسفري شكرها
فكانت تسليه بشكر، فقد مضى
وأمسيت دون الكون وجهي عابس
ولو أنني أرسلت سفري مكرراً
فيا ليت لي سفرأ أكرر طبعه
فتغدو أهالي البر لا تشتكي ظما
وتصبح لا محتاجة من حكومة
ويا ليت وجه الكون ما انفك باسمأ

فسفري من الأمطار في شكرها أخرى
ضحيتها كي ترتوي، وقضى حرا
تصوّب عيني للسما نظراً شزرا
لدامت به الصحراء زاهية خضرا
إذا ظل منه السيل مندققاً نهرا
ولا تشتكي جدباً ولا تشتكي فقرا
لري ولا تحتاج أن تحفر البئرا
إذا كان وجهي عابسأ منه مزوراً



٥- فصل في أخبارهم في بيع كتبهم للضرورة والحزن عليها

أنشد علي بن محمد بن ثابت الخولاني المعروف بالحداد المهدوي^(١) :

قَالَتْ وَأُبَدَّتْ صَفْحَةً كَالشَّمْسِ مِنْ تَحْتِ الْقِنَاعِ
بَغَتْ الدَّفَاتِرَ وَهِيَ آ خِرُّ مَا يُيَاغِ مِنَ الْمَتَاعِ
فَأَجْبَتْهَا وَيَدِي عَلَى كِبْدِي وَهَمَّتْ بِانْصِدَاعِ
لَا تَعْجِبِي مِمَّا رَأَيْتَ بَتِ فَنَحْنُ فِي زَمَنِ الضِّيَاعِ

* * *

أبو الحسن علي بن أحمد الفالي الأديب^(٢) :

حكى الخطيب أبو زكرياء يحيى بن علي التبريزي اللغوي : أن
أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك الفالي الأديب كانت له نسخة

(١) معجم السفر ص ٢٤٠ ، وأخبار وتراجم أندلسية ص ٧٥ ، ومعجم البلدان
٢٣١ / ٥ ، ونفع الطيب ١٥٣ / ٤ ، والتكملة ١٥٢ / ٣ ، وما عدا الثالث في
المحاضرات في اللغة والأدب ٤٧٠ / ٢ ، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٦٧ .

(٢) المنتظم ١٠ / ١٦ ، ومعجم الأدباء ٢٢٨ / ١٢ ، ووفيات الأعيان ٣١٦ / ٣ ، وسير
أعلام النبلاء ٥٥ / ١٨ ، ومراة الجنان ٥٦ / ٣ ، والفلاكة والمفلوكين ص ١١٧ ،
وبغية الوعاة ٧٨ / ١ ، والمزهر ٩٥ / ١ ، وشذرات الذهب ١٧١ / ٥ ، ونزهة الجليس
٦٠ / ٢ ، ونسمة السحر ٣٦٤ / ٢ ، وموسوعة الكنايات العامة ٥٣٨ / ١ ، وموسوعة
الأدب الضاحك ٨٤ / ١ ، وروضات الجنات ١٩٠ / ٦ ، وذيل سمط اللآلئ
٨٩ / ٣ ، والمحاضرات في اللغة والأدب ٤٦٩ / ٢ ، وديوان الشريف المرتضى
٥٢ / ١ ، وآمال المرتضى ٩ / ١ ، والمحدث الفاصل ص ٤٥ ، وصفحات من صبر =

بكتاب «الجمهرة» لابن دُرَيْد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها واشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الطاهر بستين ديناراً، وتصفّحها فوجد بها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفالي وهي:

أَنِسْتُ بِهَا عَشْرِينَ حَوْلًا وَبِعْتُهَا	لَقَدْ طَالَ وَجَدِي بَعْدَهَا وَحْنِي
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنِّي سَأَيْعُهَا	وَلَوْ خَلَّدْتَنِي فِي السَّجُونِ دِيُونِي
وَلَكِنْ لَضَعْفٍ وَافْتِقَارٍ وَصِيبَةٍ	صَغَارَ عَلَيْهِمْ تَسْتَهْلُ شَأُونِي
فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَابِقَ عِبْرَةٍ	مَقَالَةَ مَكْوِيٍّ الْفُؤَادِ حَزِينِ:
«وَقَدْ تَخْرَجَ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ	كَرَائِمَ مَنْ رَبٍّ بِهِنَ ضَنِينِ»

فلما قرأ الأبيات أرجع له النسخة ووهب له الدنانير.

* * *

عبد الكريم القيسي :

كتب على ظهر كتاب اضطر لبيعه^(١):

قَسَمًا لَوْلَا مَعَادَاةُ الزَّمَنِ وَاحْتِيَاجِي مِنْ كِتَابِي لِلثَّمَنِ

= العلماء ص ٢٦٤ (وانظر الحاشية)، ومجلة الرسالة سنة ١٦ (١٩٤٨م) مجلد ٢، عدد ٧٩٣ ص ١٠٣٦.

وفي بعضها وقع تحريف في اسمه إلى القالي وأن المشتري هو أبو بكر بن بديل التبريزي وفي بعضها دون ذكر اسمه.

والبيت الأخير تضمين وهو لأبي سلمة الكلابي في ذيل الأمالي ص ١٩٠، وسمط اللآلئ ٨٩/٣، ومع بيت آخر في مجموعة المعاني دون نسبة ص ٤٠٤، والأعرابي في معجم الأدباء ٢٢٩/١٢، وعيون الأخبار ٢٣٧/١، وحماسة الظرفاء ١٨٤/١، ومجالس ثعلب ص ١٨، ومحاضرات الأدباء ٤٧١/١ و ٦٣٨/٢، وبهجة المجالس ٣٣٠/١، والعقد الفريد ٤٦٩/٣، والفاضل للشوَّاء ص ١٩٩.

(١) ديوان عبد الكريم القيسي ص ٣٣٢.

مَا بِهِ نَفْسِي لِيَبْعَ سَمَحَتْ وَلَوْ اعْتَضْتُ بِهِ مُلْكَ الْيَمَنِ

* * *

أُنشِدُ أَحْمَدَ الصَّافِي النَجْفِي^(١):

قَدْ جَاءَنِي يَوْمًا لِشِعْرِي مُشْتَرٍ يَغْدُو عَلَيَّ لِبَيْعِهِ وَيَرْوَحُ
فَأَجَبْتُهُ شِعْرِي إِذَا حَقَّقَتْهُ رُوحِي، فَقُلْ لِي هَلْ تُبَاعُ الرُّوحُ!

* * *

الْأَدِيبُ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ السَّحُولِي^(٢):

قَالَ: وَقَدْ اضْطُرَّ إِلَى بَيْعِ كِتَابِ «حَاشِيَةِ الْخَبِصِيِّ عَلَى الرَّضِيِّ»:

فَارَقْتُهُ وَاحْتِيَاجِي إِلَيْهِ مِثْلَ قَمِيصِي
عَلَى سِوَاهِ فَوَّادِي مَا عَشْتُ غَيْرَ حَرِيصِ
لَكِنِّي لَمْ أَجِدْ عَنْ فِرَاقِهِ مِنْ مَحِيصِ
فَمَرْحَالِي لِمَا أَنْ مَرَّ وَهُوَ خَبِصِي

وَفِيهِ تَوْرِيَّةٌ بِالْخَبِصِ، الْأَكْلُ الْمَعْرُوفُ.

* * *

أُنشِدُ الْعَبْدِيَّ^(٣):

إِنِّي أَتَيْتُ بِأَمْرِ تَقْشَعْرُ لَهُ أَعْلَى الذُّوَابَةِ أَمْرًا مَفْظَعًا عَجِبَا
لَمَّا عَمِدْتُ كِتَابَ اللَّهِ أَرَهُنَّ أَيقِنْتُ أَنَّ زَمَانَ النَّاسِ قَدْ كَلَبَا

(١) أشعة ملونة ص ٢٣.

(٢) الأدب اليميني ص ٨٩.

(٣) أخبار الدولة العباسية ص ٤٠٥.

وما عمدتُ كتابَ الله أرهنته إلا ولم يبقَ هذا الدهرُ لي نشبا

عيسى بن عبد العزيز بن بللبخت بن عيسى العلامة أو موسى
الجزولي اليزدكتني المراكشي النحوي^(١):

حج ولزم العلامة عبد الله بن بري وأخذ العربية عن جماعة، وكان
علامة لا يشق غباره في النحو مع جودة التفهيم وحسن العبارة، وأتى في
مقدمته بالعجائب حتى إن الشخص يعرف المسألة من النحو معرفة جيدة وإذا
رآها في الجزولية يدور رأسه فيها، واسم هذه المقدمة «القانون»، وكان ينكر
أنها له تورعاً لأنها نتائج بحوثه على ابن بري وبحوث رفقائه، وبللبخت جده
رجل بربري، وجزولة بطن من البربر.

وقال الذهبي: وقرأت بخط محمد بن عبد الجليل الموقاني أن
الجزولي قاسى بمدة مقامه بمصر كثيراً من الفقر ولم يدخل مدرسة، وكان
يخرج إلى الضياع يؤم يقوم فيحصل ما ينفقه في غاية الصبر، ورجع إلى
المغرب فقيراً مدقعاً، فلما وصل إلى المرية أو نحوها رهن كتاب ابن السراج
الذي قرأه على ابن بري وعليه خطه فأنهى المرتهن أمره إلى الشيخ
أبي العباس المغربي أحد الزهاد بالمغرب، وكان يصاحب بني
عبد المؤمن، فأنهى أبو العباس ذلك إلى السلطان فأمر بإحضاره وقدمه
وأحسن إليه.

(١) تاريخ الإسلام ٢٦٤/٤٣، وسير أعلام النبلاء ٤٩٧/٢، والفلاكة والمفلوكين
ص ٩٦، وصفحات من صبر العلماء ٢١٥.

محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي،
صاحب «القاموس»^(١) :

اقتنى كتباً كثيرة حتى قيل عنه أنه قال: اشتريت كتاباً بخمسين ألف
مثقال ذهباً.

وكان لا يسافر إلا وصحبته منها أحمال، ويخرجها في كل منزل وينظر
فيها ويعيدها. وكانت طلبته، ومع ذلك فكان يملق أحياناً بحيث يحتاج إلى
بيع بعض كتبه.

* * *

بعض أهل العلم^(٢) :

قال: ينبغي للمرء أن يذخر أنواع العلوم، وإن لم تكن له بمعلوم، وأن
يستكثر منها ولا يعتقد الغنى عنها، فإنه إن استغنى عنها في حال، احتاج
إليها في حال؛ وإن سئهما في وقت، ارتاح إليها في وقت؛ وإن شغل عنها
في يوم، فرغ لها في يوم؛ وأن لا يسرع ويعجل، فيندم ويوجل؛ فربما عجل
المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده، ثم رame فتعذر عليه مرامه، وابتغى
إليه وصولاً، فلم يجد إليه سبيلاً؛ فأتعبه ذلك وأنصبه، وأقلقه طويلاً وأرقه،
كالذي حكى عن بعض العلماء، قال:

بعت في بعض الأيام كتاباً ظننت أنني لا أحتاج إليه، فلما كان ذات يوم
هجس في صدري شيء كان في ذلك الكتاب، فطلبتة في جميع كتبتي فلم

(١) ذيل الدرر الكامنة ص ٢٧٩، وأنباء الغمر ١٦١/٧، وبغية الوعاة ٢٧٤/١،
والضوء اللامع ٨١/١٠، ودرة الحجال ٣١٧/٢، ونزهة الجليس ١٩٠/٢،
وصفحات من صبر العلماء ص ٢٧٣.

(٢) تقييد العلم ص ١٣٦، ١٣٧.

أجده، فاعتمدت أن أسأل عنه عالماً عند الصباح؛ فما زلت قائماً على رجلي إلى الصباح، قيل: فهلاً قعدت؟ قال: لطول أرقى وشدة قلقي.

وباع آخر كتاباً، ظن أنه لا يحتاج إليه، ثم إنه احتاج إليه فالتمس نسخة به، فلم يجدها بعارية ولا ثمن؛ وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلى بلده فشخص إليه، وسأله الإقالة وارتجاع الثمن منه، فأبى عليه. فسأله إعارته لنسخ الكلمة منه، فلم يجبه، فانكفاً قافلاً وآلى على نفسه أن لا يبيع كتاباً أبداً.

وباع آخر كتاباً ظن أنه لا يحتاج إليه ثم إنه احتاج إلى كلمة منه، فقصد صاحبه، وسأله أن يكتبه تلك الكلمة، فقال: والله ما تكتبها إلا بثمان الكتاب كله، فرد عليه ثمن الكتاب وكتب تلك الكلمة.

وقيل لآخر: ألا تبيع من كتبك التي لا تحتاج إليها؟ فقال: إن لم أحتج إليها اليوم احتجت إليها بعد اليوم.

واحتاج بعض النجارين إلى بيع فأسه ومنشاره فباعهما، وحزن عليهما، وندم على بيعهما، إلى أن رأى جاراً له من أهل العلم في سوق الوراقين، وهو يبيع كتبه، فقال: إذا باع العالم آتته، فالصانع أعذر منه؛ وسلا بذلك.

* * *

جحظة البرمكي^(١):

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لِي كَاتِبٌ وَلَا عَلَى بَابٍ مَنْزِلِي حَاجِبٌ
وَلَا حِمَارٌ إِذَا عَزَمْتُ عَلَى رُكُوبِهِ، قِيلَ: جَحْظَةُ رَاكِبٌ

(١) ديوان جحظة ص ٣٥، ومعجم الأدباء ٢/ ٢٥١، والمنتخب من كُنَايَاتِ الْأَدْبَاءِ ص ١٨.

وَلَا قَمِيصٌ يَكُونُ لِي بَدَلًا مَخَافَةً مِّنْ قَمِيصِي الذَّاهِبِ
وَأُجْرَةُ الْبَيْتِ فَهِيَ مُفْرَحَةٌ أَجْفَانِ عَيْنِي بِالْوَابِلِ السَّائِبِ
إِنْ زَارَنِي صَاحِبٌ عَزَمْتُ عَلَى يَبِّعْ كِتَابَ لِّشَبْعَةَ الصَّاحِبِ
أَصْبَحْتُ فِي مَعْشَرٍ تَشْتُمُّهُمْ فَرَضُ مِنَ اللَّهِ لَزِبٌ وَاجِبِ
فِيهِمْ صَدِيقٌ فِي عُرْسِهِ عَجَبٌ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَمْرَهَا، عَاجِبِ
تَحْسِبُهَا حُرَّةً وَحَافِرُهَا أَرْقُ مِنْ شِعْرِ خَالِدِ الْكَاتِبِ

* * *

وَأُنْشِدُ أَيْضًا^(١):

حَسْبِي ضَجْرْتُ مِنَ الْأَدَبِ وَرَأَيْتُهُ سَبَبَ الْعَطَبِ
وَهَجْرْتُ إِغْرَابَ الْكَلَا مَ وَمَا حَفِظْتُ مِنَ الْخُطَبِ
وَرَهْنْتُ دِيْوَانَ الثَّقَا بُضٍ وَاسْتَرَحْتُ مِنَ الثَّعَبِ

* * *

مجير الدين محمد ابن تميم الإسعدي^(٢):

قال على لسان من باع مجلدًا بدرهم ورُدَّ عليه:

عرضتُ كتابي كي يُباعَ بدرهم على مشتري عند الوفاء شحيح
رَأَى خَطُّهُ ذَا عِلَّةٍ فَأَعَادَهُ «ومن يشتري ذَا عِلَّةٍ بصحيح؟»

* * *

محمد بن عبد الله المعروف بحافي رأسه^(٣):

كتب إلى الأمير نور الدين علي بن مسعود الصوابي:

(١) ديوان جحظة ص ٣٧، ومعجم الأدباء ٢/ ٢٥٥.

(٢) ديوان مجير الدين ابن تميم ص ٢٤، والغيث المسجم ١/ ١٥، وقطر الغيث

ص ٩، والمخللة ص ٤٥٨، والمسلك السهل ص ٤٣٤.

(٣) الوافي ٣/ ٣٦٦، وفوات الوفيات ٣/ ٤١٠.

وحسبي أن أرى وجه الصواب (ي)
بقيت من المجوس بلا كتاب

شكوت إليك نور الدين حالي
وكتبي بعثها ورهنت حتى

* * *

العبّاس بن العبّاس الهمداني^(١) :

كان العبّاس قد باع بعض كتبه ، فكتب إليه الأستاذ أبو محمد القرطبي

في ذلك :

نَهَباً وَأَصْبَحَ عَنْ سِوَاهَا مُعْزَلاً
عَمَداً وَيُضْبِحُ فِي الْكِتَابَةِ أَغْزَلاً

تُبِّئْتُ عَبَّاساً تَوَزَّعَ كُتُبُهُ
فَعَجِبْتُ مَنْ بَطَلَ يَبِيعُ سِلَاحَهُ

فأجابه أبو الفضل رحمه الله :

أَقْصَرُ فَإِنَّكَ غَيْرُ مُتَّهِمِ الْقَلَى
بِأُصُولِ أَشْجَارِ شَرِيتُ مُمَوَّلاً

يَا مَوْئِلِي وَلَقَدْ تَخَذْتُكَ مَوْئِلاً
بِعَثُ الدَّوَاوِينِ الْأُصُولِ لِكَي أَرَى



(١) الذيل والتكملة ١١٢/٥ ، وأعلام مالقة ص ٢٧٨ .

٦- فصل في قتلى الكتب والمكفوفين بها

ممن قتله الكتاب : عمرو بن بحر الجاحظ^(١) :

وقد تقدّم أن موت عمرو بن بحر الجاحظ كان بسقوط مجلّدات العلم عليه سنة ٢٥٥هـ رحمه الله تعالى .

ومنهم : العلامة المحدث ، إمام النحو ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني المشهور بثعلب^(٢) .

كان سبب وفاته أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر وكان قد لحقه صمم لا يسمع إلا بعد تعب ، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق ، فصدمته فرس فألقته في هُوّة ، فأخرج منها وهو كالمختلط ، فحمل إلى منزله على تلك الحال ، وهو يتأوه من رأسه ، فمات ثاني يوم ، سنة ٢٩١هـ رحمه الله تعالى .

* * *

(١) شذرات الذهب ٣/٢٣٢ . وانظر ص ١٨ من هذا الكتاب .

(٢) نور القبس ص ٣٣٧ ، وإنباه الرواة ١/١٨٥ ، ومعجم الأدباء ٥/١٠٦ ، ووفيات الأعيان ١/١٠٤ ، وإشارة التعيين ص ٥٢ ، وتاريخ الإسلام ٢٢/٨٤ ، والبداية والنهاية ١١/٩٨ ، ومرة الجنان ٢/٢١٩ ، والبلغة ص ٦٦ ، وبغية الوعاة ١/٣٩٧ ، وشذرات الذهب ٣/٣٨٤ ، وروضات الجنّات ١/٢١٢ ، وموسوعة الكنايات ٣/١٥٦ .

ومنهم: الإمام العلم، صاحب العربية، ومنشئ علم العروض،
أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، البصري المتوفى
سنة ١٧٠ هـ رحمه الله تعالى^(١):

كان سبب موته أنه قال: أريد أن أُقَرِّبَ نوعاً من الحساب تمضي به
الجارية إلى البيع فلا يمكنه ظلمها. ودخل المسجد وهو يُعْمَلُ فِكْرُهُ في
ذلك، فصدمته سارية وهو غافل عنها بفكره، فانقلب على ظهره، فكانت
سبب موته. وقيل: بل كان يقطع بحراً من العروض.

* * *

ومنهم: الإمام العلامة، بحر العربية، (أبو جعفر النحاس)
أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري المتوفى سنة ٣٣٨ هـ
رحمه الله تعالى^(٢):

كان سبب وفاته أنه جلس على دَرَجِ المقياس على شاطئ النيل وهو
في أيام زيادته، وهو يُقَطِّعُ بالعروض شيئاً من الشعر، فقال بعض العوام:
هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار، فدفعه برجله في النيل فلم
يوقف له على خبر.

* * *

(١) إنباه الرواة ١/٣٨١، ومعجم الأدباء ١١/٧٣، ووفيات الأعيان ٢/٢٤٨، والوافي
١٣/٣٨٦، والغيث المسجم ١/٥٦، وسرح العيون ص ٢٦٩، وبغية الوعاة
١/٥٦٠، ونزهة الجليس ١/١١٨، وقطر الغيث ص ٢٤.

(٢) إنباه الرواة ١/١٣٧، ومعجم الأدباء ٤/٢٥٥، ووفيات الأعيان ١/١٠٠، وإشارة
التعيين ص ٤٥، والمقفى ١/٧١٥، وتاريخ الإسلام ٢٥/١٥٦، وسير أعلام
النبلاء ١٥/٤٠٢، والوافي ٧/٣٦٤، والغيث المسجم ١/٥٦، والبلغة ص ٦٢،
والفلاكة والمفلوكين ص ٨٥، وبغية الوعاة ١/٣٦٢، ونزهة الجليس ١/١١٧،
وقطر الغيث ص ٣٠.

ومنهم: أَبُو أُسَامَةَ اللَّغَوِيُّ النَّحْوِيُّ، جُنَادَةُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحُسَيْنِ
الْهَرَوِيُّ^(١):

فَقَتَلَهُ الْحَاكِمُ مِنَ الْمُلُوكِ الْمِصْرِيِّ، الْمُتَنَسِّبَةَ إِلَى الْعَلَوِيِّينَ، فِي سَنَةِ
تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ.

فَلَقَدْ كَانَ يَقْرَأُ فِي مَجْلِسِهِ بِمِصْرَ فِي جَامِعِ الْمِقْيَاسِ، وَهُوَ الَّذِي فِيهِ
الْعُمُودُ، الَّذِي يَنْتَبِرُونَ بِهِ زِيَادَةَ النَّيْلِ مِنْ نَقْصِهِ.

وَأَتَّفَقَ فِي بَعْضِ السِّنِينَ، أَنَّ النَّيْلَ لَمْ يَزِدْ زِيَادَةً تَامَةً، فَقِيلَ لِلْحَاكِمِ
حِينَئِذٍ: إِنَّ جُنَادَةَ رَجُلٌ مَشْهُومٌ، يَقْعُدُ فِي الْمِقْيَاسِ، وَيُلْقِي النَّحْوَ، وَيُعْزِمُ
عَلَى النَّيْلِ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَزِدْ.

وَكَانَ مِنْ حِدَّةِ الْحَاكِمِ وَتَهَوُّرِهِ، وَمَا عُرِفَ مِنْ شَوْءِ سِيرَتِهِ، لَا يَتَشَبَّثُ
فِيمَا يَفْعَلُهُ، وَلَا يَبْحَثُ عَنْ صِحَّةِ مَا يَبْلُغُهُ، فَأَمَرَ مِنْ سَاعَتِهِ بِقَتْلِهِ، فَقَتَلَهُ
— رحمه الله —.

* * *

ومنهم: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ
الرَّحْمَنِ، الْحَافِظُ الْعَلَامَةُ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقَضَاعِيُّ، الْبَلْكَاسِيُّ،
الكَاتِبُ، الْأَدِيبُ، الْمَعْرُوفُ بِالْأَبَارِ وَبَابِنِ الْأَبَارِ^(٢):

قُتِلَ مَظْلُومًا بَتُونُسَ عَلَى يَدِ صَاحِبِهَا فِي الْعَشْرِينَ مِنَ الْمَحَرَّمِ سَنَةِ
٦٨٥ هـ، وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ أَعْدَائِهِ ذَكَرَ عِنْدَ صَاحِبِ تُونُسَ أَنَّهُ أَلْفَ تَارِيخًا،
وَأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِيهِ فِي جَمَاعَةٍ، وَقِيلَ هَذَا فُضُولِي يَتَكَلَّمُ فِي الْكِبَارِ، فَطُلِبَ وَأُحْسِنَ
بِالْهَلَاكِ، فَقَالَ لِعَلَامِهِ: خُذِ الْبَغْلَةَ وَأَمْضِ بِهَا حَيْثُ شِئْتَ، فَهِيَ لَكَ. فَلَمَّا

(١) معجم الأدباء ٧/٢١٠، وبغية الوعاة ١/٤٨٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٤٨/٣٦٤، وانظر الحاشية.

دخل قتلوه. فنعوذ بالله من شرّ التّاريخ، ومن شرّ كل ذي شرٍّ، رحمه الله تعالى.

* * *

ومنهم: محمد بن زكريا الرازي الطيب^(١):

كان سبب عماء أنه صتّف للملك منصور بن نوح بن سامان أحد الملوك السامانية، كتاباً في الكيمياء فأعجبه ووصله بألف دينار وقال: أريد أن تُخرج ما ذكرتَ من القوّة إلى الفعل، فقال: إن ذلك مما يحتاج إلى مؤنّ وآلات وعقاقير صحيحة وإحكام صنعة، فقال له الملك: كلّ ما تريده أحضره إليك وأمدّك به.

فلما كعّ عن مباشرة ذلك وعمله فقال الملك: ما اعتقدتُ أن حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة يشغل بها قلوب الناس ويُتعبهم فيما لا فائدة فيه، والألف دينار لك صلة، ولا بد من عقوبتك على تخليد الكذب في الكتب. وأمر أن يُضرب بالكتاب الذي عمله على رأسه إلى أن يقطّع، فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء في عينيه، ولم يسمح بقدحها، وقال: قد رأيت الدنيا.

* * *

ومنهم: أبو محمد، سعيد بن المبارك بن الدهان البغداديّ النحويّ^(٢):

خرج عن بغداد قاصداً إلى دمشق، فاجتاز بالموصل وبها وزيرها

(١) عيون الأنباء ص ٤١٩، ووفيات الأعيان ٦٠/٥، والوافي ٧٦/٣، ونكت الهميان ص ٢٤٨، وروضات الجنات ٧/٢٨٨.

(٢) خريدة القصر (قسم العراق) ٢١/٣، وإنباه الرواة ٤٨/٢، ومعجم الأدباء ٢٢٢/١١، ووفيات الأعيان ٣٨٣/٢، وتاريخ الإسلام ٣٩٢/٣٩٢، وسير أعلام =

جمال الدين محمد الإصبهاني الجواد، فأكرمه وصدّره بالموصل للإفادة، وكانت كُتبه قد تخلّفت ببغداد، فاستولى الغرق في تلك السّنة على البلد، فسيّر من يحضرها إليه إن كانت سالمة، فوجدها قد غرقت، وكان خلف داره مدبغة قد غرقت أيضاً، وفاض الماء منها إلى داره، فتلفت الكتب بهذا السّبب زيادة على إتلاف الغرق، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره.

فلما حملت إليه على تلك الصّورة أشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح منها ما أمكن، فبخرها باللاذن ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لا ذناً، فطلع ذلك إلى رأسه وعينه فأحدث له العمى وكفّ بصره.

* * *

ومنهم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري:

قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح في كتابه «صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط، وحمايته من الإسقاط والسّقط»^(١)، وهو يترجم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صاحب «الصحيح»، المولود سنة ٢٠٤هـ، والمتوفى سنة ٢٦١هـ رحمه الله تعالى:

«وكان لموته سبب غريب، نشأ من غمرة فكرية علمية، فقرأت بنيسابور حرّسها الله وسائر ديار الإسلام وأهله، فيما انتخبته من «تاريخها» — للحاكم النيسابوري — ، على الشيخ الزكيّ أبي الفتح منصور بن

= النبلاء ١٠/٥٨٢، والمختصر المحتاج إليه ص ١٩١، والوافي ١٥/٢٥٣، ونكت الهميان ص ١٥٩، والفلاكة والمفلوكين ص ١٣١، وروضات الجنان ٤/٥٥، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٦٨.

(١) صفحات من صبر العلماء ص ١٢٣، وتاريخ بغداد ٣/١٠٣.

عبد المنعم حفيد الفُراوي، وعلى الشَّيْخَةِ أُمُّ المؤيَّد زينب ابنة أبي القاسم
عبد الرحمن بن الحسن الجُرْجاني رحمهما الله وإيانا، عن . . .

قال الحاكمُ أبو عبد الله الحافظ: سمعتُ أبا عبد الله محمد بن
يعقوب، سمعتُ أحمد بن سَلَمَةَ - رفيقَ مسلم في الرحلة - يقول: عُقِدَ
لأبي الحُسَيْنِ مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة، فذُكِرَ له حديثٌ
لم يعرفه، فانصرف إلى منزله وأوقَدَ السَّراج، وقال لمن في الدار: لا يَدْخُلَنَّ
أحدٌ منكم هذا البيت.

ف قيل له: أُهْدِيَتْ لَنَا سَلَةٌ فِيهَا تَمْرٌ، فقال: قَدِّمُوهَا إِلَيَّ، فَقَدِّمُوهَا إِلَيْهِ،
فَكَانَ يَطْلُبُ الْحَدِيثَ وَيَأْخُذُ تَمْرَةً تَمْرَةً يَمْضَغُهَا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ فَنِيَ التَّمْرُ!
ووجَدَ الْحَدِيثَ.

قال الحاكم: زادني الثقةُ من أصحابنا أنه منها مَرَضٌ ومات!



٧- فصل في تعظيمهم وإجلالهم للكتب

بدر الدّين محمد بن جماعة في الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم^(١):

قال: إذا نسخ من الكتاب أو طالعّه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسي الكتب المعروف كيلا يسرع تقطيع حبله.

وإذا وضعها في مكان مصفوفة فلتكن على كرسي أو تحت خشب أو نحوه، والأولى أن يكون بينه وبين الأرض خلوة، ولا يضعها على الأرض كيلا تتنّدى أو تبلى.

وإذا وضعها على خشب ونحوه جعل فوقها أو تحتها ما يمنع تأكل جلودها به، وكذلك يجعل بينها وبين ما يُصادفها أو يُسندُها من حائط أو غيره.

وإذا وضع الكتاب على أرض أو تحت فلتكن الغاشية التي من جهة البسملة وأول الكتاب إلى فوق، ولا يكسر وضع الرّدة في أثناؤه كيلا يسرع تكسيرها، ولا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات الصغير كيلا يكسر تساقطها.

ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها، ولا مخدّة ولا مروحة ولا مكبساً ولا مسنداً ولا متكأً، ولا مقتلة للبق وغيره ولا سيما في الورق، فهو على الورق أشد.

(١) تذكرة السامع ص ١٧٠، وعرف البشام ص ١٧.

ولا يطوي حاشية الورقة أو زاويتها، ولا يعلم بعود أو شيء جاف، بل بورقة أو نحوها، وإذا ظفر فلا يكبس ظفره قوياً.

ويراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها وشرف مصنفها وجلالتهم، فيضع الأشرف أعلى الكل، ثم يراعي التدرج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، والأولى أن يكون في خريطة ذات عروة في مسمار، أو وتد في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثم كتب الحديث الصّرف كصحيح مسلم، ثم تفسير القرآن ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب، ثم العروض.

فإن استوى كتابان في فن فالأعلى أكثرهما قرآناً أو حديثاً، فإن استويا فبجلالة المصنّف، فإن استويا فأقدمهما كتابة وأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا فأصحهما.

* * *

الإمام برهان الدين الزرنوجي^(١):

قال: من تعظيم العلم تعظيم الكتاب، فينبغي لطالب العلم ألا يأخذ الكتاب إلا بطهارة.

وحكي عن الشيخ الإمام شمس الأئمة عبد العزيز بن أحمد بن نصر الحلواني، أنه قال: إنما نلتُ هذا العلم بالتعظيم، فإني ما أخذتُ الكاغد إلا بطهارة.

والشيخ الإمام شمس الأئمة السرخسي محمد بن محمد كان مبطوناً، وكان يكرّر في ليلة، فتوضأ في تلك الليلة سبع عشرة مرة، لأنه كان لا يكرّر إلا بطهارة، وهذا لأن العلم نورٌ، والوضوء نورٌ، فيزداد نور العلم به.

(١) تعليم المتعلم ص ٥١.

ومن التعظيم الواجب ألاَّ يُمَدَّ الرَّجُلُ إلى الكتاب، ويضعَ كَتَبَ التفسيرِ فوق سائرِ الكتبِ، ولا يضعَ على الكتابِ شيئاً آخرَ من محبرةٍ وغيرها.
وكان أستاذنا شيخُ الإسلامِ بُرْهانُ الدِّينِ رحمه الله، يحكي عن شيخٍ من مشايخنا، أنَّ فقيهاً كان وَضَعَ المِحْبَرَةَ على الكتابِ، فقال له بالفارسيَّة: برنيابي (لا تجد النفع من علمك).

وكان أستاذنا القاضي الإمامُ الأجلُّ فخرُ الدين الحسن بن منصور الفرغاني المعروف بقاضي خان يقول: إنَّ لم يُردْ بذلك الاستخفاف فلا بأس بذلك، فالأولى أن يُحترزَ عنه.

* * *

علي بن محمد التالوتي^(١):

سئل عن وضع الكتاب على الأرض، فقال: اختلف في جوازه ومنعه متأخرو أهل تونس وبجاية.

* * *

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري^(٢):

كان جميلُ الكُتُبِ متهمّاً بها، كان يمسكها في سبابي^(٣) الشَّرب وغيرها إكراماً لها وصيانة.

* * *

عبد الكريم زاده الحنفي^(٤):

كان من عادة المولى محمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم، الشهير

(١) كفاية المحتاج ١/٣٦٤.

(٢) المكتبة الأندلسية ١٢/٤٣٧، ومقدمة سمط اللآلئ ١/١.

(٣) السبائب: شقق رفاق من الكتان.

(٤) شذرات الذهب ١٠/٥٥٥.

بعبد الكريم زاده الحنفي، أن لا يكتب بالقلم الذي يكتب به اسم الله تعالى،
ولا ينام ولا يضطجع في بيت كُتِبَ به تعظيماً للعلم.

* * *

أحمد بن الحُصَيْن بن عبد الملك بن عطف^(١) :

كان أعلى أهل عصره همة في اقتناء الكتب وأشدّهم اعتناءً بها. ينتخبها
ويتخذ لأعلاقتها صوانات وحفاظ، وجمع منها في كل فنّ الكثير النفيس.

* * *

الإمام أبو محمد عبد الرحيم بن محمد ابن الزجاج^(٢) :

قال محمد بن عمر بن رشيد: جرى لي مع الشيخ الإمام أبي محمد
عبد الرحيم بن محمد ابن الزجاج في حالة سماع جزء عليه في ليلة: أني
رمقت الشيخ وهو قد ضعف عن القعود، فإنه كان غايةً في ضعف البدن، قد
نهكه السنّ والمرض والسفر. وكان لي وعاء أحمل فيه كتبتي، فدعمت ركبته
به، فنظر إليّ نظر المغضب، وأشار إليّ أن استعمال مثل هذا امتهان، وأبى
من ذلك رضي الله عنه.

* * *

بعض الحكماء^(٣) :

رأى بعض الحكماء رجلاً يبتذل كتاباً، فقال له: بينت عن نقصك،
وبرهنت عن جهلك؛ فما أهان أحد كتاب علم إلاّ لجهله بما فيه، وسوء
معرفته بما يحويه.

ورأى آخر رجلاً قد جلس على كتاب، فقال: سبحان الله يصون ثيابه

(١) الذيل والتكملة ٩٧/١، وتاريخ الإسلام ٩٧/٣٧.

(٢) ملء العيبة ٢٥٧/٥.

(٣) أدب الإملاء ص ١٤٦.

ولا يصون كتابه ؛ لصون الكتاب أولى من صون الثياب .

* * *

أنشد عبد الله بن عمر بن أحمد الوحيدى^(١) :

صُنَ الْكِتَابَ وَلَا تَجْعَلْهُ مِندِيلاً وَلَا يَكُنْ صَوْنُهُ لِلدَّرْسِ تَعْطِيلاً
وَسَلَّ فَقِيهَكَ فِيمَا أَنْتَ جَاهِلُهُ فَرُبَّمَا كُنْتَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَسْئُولاً

* * *

أحمد بن حنبل^(٢) :

قال نعيم بن ناعم أبو حاتم : وسألتُ أحمدَ بنَ حنبلٍ : أَيَضَعُ الرَّجُلُ
الْكِتَابَ تَحْتَ رَأْسِهِ ؟ قَالَ : أَيَّ كِتَابٍ ؟ قُلْتُ : كِتَابَ الْحَدِيثِ ، قَالَ : إِذَا خَافَ
أَنْ تُسْرِقَ فَلَا بَأْسَ ، وَأَمَّا أَنْ يَتَّخِذَهُ وِسَادَةً فَلَا .

* * *

القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي^(٣) :

قال : كل كراسة لا يحزم أنفها ، ولا يكون الجلد دفعها عرضة للضياع ،
وما مكانها من الخزانة إلا مسترق الوداع .



(١) صلة الصلة ٣/١٠٢ ، وتاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٤ .

(٢) طبقات الحنابلة ١/٣٩١ ، والمقصد الأرشد ٣/٦٩ ، والمنهج الأحمد ٢/١٦٧ .

(٣) مطالع البدور ٢/١٧٨ .

٨- فصل في عزلتهم وأنسهم بمجالسة الكتب ومناذمتها عوضاً عن الأصحاب

قال بعضهم^(١):

ولفساد الزمان، وقلة من يسكن إلى مودته، ويؤمن من خلته أثر أهل
الفضل مجالسة الكتب، وجعلوها عوضاً مما فاتهم من مجالسة الأصحاب،
ووصفوها ووصفوا نفوسهم بالإقبال عليها.

ومن ذلك قول الشاعر أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني^(٢):

مَا تَطَعَّمْتُ لَذَّةَ الْعَيْشِ حَتَّى	صِرْتُ لِلْيَتِّ وَالْكِتَابِ جَلِيسًا
لَيْسَ شَيْءٌ أَغْزَّ عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ	فَلِمَ أَبْتَغِي سِوَاهُ أَنْيسًا
إِنَّمَا الدُّلُّ فِي مُخَالَطَةِ النَّاسِ	فَدَعَهُمْ وَعِشْ عَزِيزًا رَئِيسًا

* * *

(١) عين الأدب والسياسة ص ٢٤٨.

(٢) اللطائف والظرائف ص ١٢٥، وتحسين القبيح ص ٥٠، والمنتظم ٣٦/١٥،
وصفة الصفوة ٢/٢٦٧، ومعجم الأدباء ١٩/١٤، ووفيات الأعيان ٣/٢٨٠،
وشرح المضمون ص ٤، وغرر الخصائص ص ٤٦٦، ومراة الجنان ٢/٣٨٧،
والبداية والنهاية ١١/٣٣٢، والمخلاة ص ٥٩، والكشكول ص ٦٩١، وشذرات
الذهب ٤/٣٥٥، ورحلة ابن معصوم ص ٢٨٨، ونفحة اليمن ص ٢٤٩،
وروضات الجنات ٥/٨٧، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٥٦، ومعجم حكمة
العرب ص ٣٣٨، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩، ومعجم الحكم والأمثال
ص ٤٢٨.

ومن كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي^(١):

قال الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي رحمه الله تعالى، في العزلة ومجالسة الكتب:

مَنْ عَرَفَ الشَّرْعَ كَمَا يَنْبَغِي، وَعَلِمَ حَالَةَ الرُّسُولِ ﷺ وَأَحْوَالَ الصَّحَابَةِ
وَأَكَابِرِ الْعُلَمَاءِ؛ عَلِمَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى غَيْرِ الْجَادَّةِ، وَإِنَّمَا يَمْشُونَ مَعَ
الْعَادَةِ...

يَتَزَاوَرُونَ فَيُغْتَابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَوْرَةَ أَخِيهِ،
وَيَحْسُدُهُ إِنْ كَانَتْ نِعْمَةً، وَيَشْمَتُ بِهِ إِنْ كَانَتْ مُصِيبَةً، وَيَتَكَبَّرُ عَلَيْهِ إِنْ نَصَحَ
لَهُ، وَيَخَادِعُهُ لِتَحْصِيلِ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ الْعَثَرَاتِ إِنْ أَمَكَنَ...
هَذَا كُلُّهُ يَجْرِي بَيْنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الزُّهْدِ لَا الرَّعَاعِ.

فَالْأَوَّلَى بِمَنْ عَرَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَعَرَفَ الشَّرْعَ وَسِيرَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ
الانقطاع عن الكلِّ.

فَإِنْ اضْطُرَّ إِلَى لِقَاءٍ مُنْتَسِبٍ إِلَى الْعِلْمِ وَالْخَيْرِ؛ تَلَقَّاهُ وَقَدْ لَبَسَ دِرْعَ
الْحَذَرِ، وَلَمْ يُطْلَمْ مَعَهُ الْكَلَامُ، ثُمَّ عَجَّلَ الْهَرْبَ مِنْهُ إِلَى مَخَالَطَةِ الْكُتُبِ الَّتِي
تَحْوِي تَفْسِيرًا لِنِطَاقِ الْكَمَالِ.

وَقَالَ: وَلَا تَحْسُنِ الْيَوْمَ الْمَجَالِسَةَ إِلَّا لِكِتَابٍ يَحْدُثُكَ عَنْ أَسْرَارِ
السَّلَفِ؛ فَأَمَّا مَجَالِسَةُ الْعُلَمَاءِ؛ فَمَخَاطَرَةٌ؛ إِذْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ذِكْرِ الْآخِرَةِ
فِي الْأَغْلَبِ، وَمَجَالِسَةُ الْعَوَامِّ فِتْنَةٌ لِلدِّينِ؛ إِلَّا أَنْ يَحْتَرِزَ فِي مَجَالِسِهِمْ
وَيَمْنَعَهُمْ مِنَ الْقَوْلِ، فَيَقُولُ هُوَ، وَيَكْلِفُهُمُ السَّمَاعَ، ثُمَّ يَسْتَوْفِرُ لِلْبَعْدِ عَنْهُمْ.

وَلَا يُمْكِنُ الْانْقِطَاعُ الْكُلِّيُّ إِلَّا بِقَطْعِ الطَّمَعِ، وَلَا يَنْقَطِعُ الطَّمَعُ إِلَّا

(١) ص ٤٧٦ و ٥٦٠ و ٥٨٣ و ٣٩٤.

بالقناعة باليسير، أو يتَجَرُّ بتجارة، أو أن يكون له عَقَارٌ يَسْتَعْلَهُ؛ فإنه متى احتاجَ تَشَتَّتَ الهمُّ، ومتى انقطعَ العالمُ عن الخلقِ وقَطَعَ طَمَعُهُ فيهم وتَوَقَّرَ على ذِكْرِ الآخرة؛ فذاك الذي يَنْفَعُ وَيُنْتَفَعُ به.

والله الموفقُ.

وقال: كانَ المريدُ في بدايةِ الزَّمانِ، إذا أَظْلَمَ قلبُهُ أو مَرِضَ لُبُّهُ، قَصَدَ زيارةَ بعضِ الصالحينَ، فأنجلى ما أَظْلَمَ.

واليومَ؛ متى حَصَلَتْ ذَرَّةٌ مِنَ الصَّدقِ لمريدٍ، فردَّته في بيتِ عَزَلَةٍ، ووجدَ نَسِيماً مِنْ رَوْحِ العافية، ونوراً في باطنِ قلبِهِ، وكادَ هُمُّهُ يجتمعُ وشتاتُهُ يَنْتَظِمُ، فخرجَ، فلقيَ مَنْ يُؤمُّ إِلَيْهِ بعلمٍ أو زُهْدٍ؛ رأى عندهُ البطالينَ، يجري معهم في مَسَلِّكَ الهَدْيَانِ الذي لا يَنْفَعُ، ورأى صورتهُ صورةَ مُنَمَّسٍ، وأهونَ ما عليه تضييعَ الأوقاتِ في الحديثِ الفارغِ؛ فما يرجعُ المريدُ عن ذلك الوطنِ؛ إلَّا وقد اِكْتَسَبَ ظُلْمَةً في القلبِ، وشتاتاً في العزمِ، وغَفْلَةً عن ذِكْرِ الآخرةِ، فيعودُ مريضَ القلبِ، يَتَعَبُ في معالجتهِ أياماً كثيرةً، حتَّى يعودَ إلى ما كانَ فيه، وربَّما لم يَعُدْ؛ لأنَّ المريدَ فيه ضَعْفٌ؛ فإذا رأى شيخاً قد جَرَّبَ وعَرَفَ، ثم يؤثِّرُ البطالةَ؛ لم يَأْمَنْ أن يَتَّبِعَهُ الطَّبِيعُ.

فالأوَّلَى للمريدِ اليومَ أن لا يزورَ إلَّا المقابرَ، ولا يفاوضَ إلَّا الكُتُبَ، التي قد حَوَتْ محاسِنَ القومِ، وَلَيْسَتَيْنِ بِاللَّهِ تعالى على التوفيقِ لمراضيه؛ فَإِنَّهُ إن أَرَادَهُ هِيأُةً لما يُرضيه.

وقال: فَإِنْ أَرَدْتَ اللَّذَّةَ والراحةَ؛ فعليكَ أَيُّهَا العالمُ بعقرِ بيتِكَ، وكنْ معترلاً عن أهلِكَ؛ يَطْبُ لَكَ عَيْشُكَ، واجعلْ للقاءِ الأهلِ وقتاً؛ فإذا عَرَفُوهُ؛ تَصَنَّعُوا للقاءِكَ، فكانتِ المعاشرةُ بذلك أجودَ.

وليكنْ لك مكانٌ في بيتِكَ تَخْلُو فيه، وتحادثُ سطورَ كُتُبِكَ، وتجري.

فِي حَلَبَاتِ فِكْرِكَ! واحترس من لقاءِ الخَلْقِ، وخصوصاً العوام! واجتهد في كَسْبِ يُعْفُكَ عن الطمع! فهذه نهايةُ لَذَّةِ العَالِمِ فِي الدُّنْيَا.

وقد قيلَ لابنِ المَبَارِكِ: مَا لَكَ لَا تَجَالِسُنَا؟ فَقَالَ: أَنَا أَذْهَبُ فَأَجَالِسُ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ. وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي كُتُبِهِ.

وَمَتَى رُزِقَ الْعَالَمُ الْغَنَى عَنِ النَّاسِ وَالْخُلُوةِ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ فَهْمٌ يَجْلِبُ التَّصَانِيفَ؛ فَقَدْ تَكَامَلَتْ لَذَّتُهُ، وَإِنْ رُزِقَ فَهْمًا يَرْتَقِي إِلَى مُعَامَلَةِ الْحَقِّ وَمُنَاجَاتِهِ؛ فَقَدْ تَعَجَّلَ دُخُولَ الْجَنَّةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ.

نَسَأُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هِمَّةً عَالِيَةً تَسْمُو إِلَى الْكَمَالِ، وَتَوْفِيقًا لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ؛ فَالْسَالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ أَفْرَادًا.

* * *

وَأَنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ ابْنَ الْحَدَّادِ الْأَنْدَلُسِيَّ (١):

وَكِتَابِي مُحَدَّثِي وَجَلِيسِي	ذَهَبَ النَّاسُ فَانْفَرَادِي أَنْيْسِي
وَإِخْتِلَالًا وَكُلَّ خُلُقٍ بَيْسٍ	صَاحِبٌ قَدْ أَمِنْتُ مِنْهُ مَلَالًا
يَلْتَقِي الْحَيُّ مِنْهُ بِالْمَرْمُوسِ	لَيْسَ فِي نَوْعِهِ بِحَيٍّ وَلَكِنْ

* * *

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمَبَارِكِ (٢):

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمَبَارِكِ يُكْثِرُ الْجُلُوسَ فِي بَيْتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا

(١) ديوان ابن الحدّاد ص ٢٢٨، ونفح الطيب ١١٥/٤، والتكملة ٣٢٣/١.

(٢) الجليس الصالح ١٦٣/١، وحلية الأولياء ١٦٤/٨، والزهد الكبير ص ٩٧، وتاريخ بغداد ١٥٤/١٠، ومحاضرات الأدباء ٣٣/١، الجامع لأخلاق الرّواي ٣٧١/٢، وتقييد العلم ص ١٢٦، والآمال الخميسية ٢١/١، وترتيب المدارك ٣٠٣/١، وتاريخ دمشق ٤٥٨/٣٢، وصفة الصفوة ١٣٧/٤، وسلوة الأحزان =

تَسْتَوْحِشُ؟ فقال: كيف أَسْتَوْحِشُ وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

وفي رواية قال: قيل لابن المُبارك: يا أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، تكثر القعود في البيت وحدك، قال: أنا وحدي؟ أنا مع النبي ﷺ وأصحابه. — يعني النظر في الحديث — .

وفي رواية أخرى: وأنا مع الأنبياء والأولياء والحكماء والنبي ﷺ وأصحابه.

وقال شقيق بن إبراهيم البلخي^(١): قلنا لعبد الله بن المبارك: إذا صَلَّيْتَ معنا، لم لا تَجْلِس معنا؟ قال: أَذْهَبُ أَجْلِسُ مع الصحابة والتابعين.

قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: أَذْهَبُ أَنْظُرُ في علمي فَأَدْرِكُ آثارهم وأعمالهم، ما أَصْنَعُ معكم؟ أنتم تَغْتَابُونَ الناس، فإذا كانت سنة مائتين فالْبُعْدُ من كثير من الناس أَقْرَبُ إلى الله، وَفِرَّ من الناس كَفَرَارِكَ من أَسَدٍ، وَتَمَسَّكَ بِدِينِكَ يَسْلَمَ لَكَ لِحْمُكَ وَدَمُكَ.

* * *

بعض مشايخ محيي الدين بن عربي^(٢):

قال محيي الدين بن عربي: دخلت على بعض من مشايخي وقد

= ص ٨٢، وشرح المضمون ص ٥، وصيد الخاطر ص ٣٩٤، والروضتين ص ٦٦٥، وتاريخ الإسلام ١٢/٢٣٥، وسير أعلام النبلاء ٨/٣٨٢ وص ٣٩٨، ونظم العقيان ص ٤، والزهد والرقائق ص ٤٤، وديوان ابن مبارك ص ١٦ وص ٧٧.

(١) صفة الصفوة ٤/١٣٧، وتقييد العلم ص ١٢٦، وحلية الأولياء ٨/١٦٤، وتاريخ الإسلام ١٢/٢٣٥، وسير أعلام النبلاء ٨/٣٩٨، والزهد والرقائق ص ٤٤.

(٢) محاضرة الأبرار ٨/١.

جلس في حضيرة من كتبه وقال : إذا أردتُ محادثة الحقِّ أحتدُّ المصحف ، فلا أزال أناجيه ويناجيني ، وإذا أردتُ محادثة الرسول ﷺ ، أخذتُ كتاب حديث ، وكذلك كل من أردتُ مناجاته من الأولين والآخرين ، ثم إنني أجالس من لا يَنِمُّ بمجلسي ولا ينقل حديثي .

* * *

محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري^(١) :

قال يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري : دخلت على أبي في الصيف الصائف وَقَتَ القائلة وهو في بيت كتبه وبين يديه السراجُ وهو يُصَنِّفُ ، فقلتُ له : يا أبة هذا وقتُ القائلة ودخانُ هذا السراج بالنهار يؤذيك ، فلو نَفَسْتَ عن نفسك . فقال : يا بُني تقول لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ؟!

* * *

محمد بن زياد أبو عبد الله ابن الأعرابي^(٢) :

عَنْ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ أَبِي أَيُّوبَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ شُجَاعٍ ،

(١) تاريخ بغداد ٤١٩/٣ ، ومعجم الألقاب ٢٦٩/٣ ، وسير أعلام النبلاء ٢٨٠/١٢ ،

وصفحات من صبر العلماء ص ١٢٤ ، وتاريخ دمشق ٢٧٢/٧٣ .

(٢) طبقات النحويين ص ١٩٦ ، وبهجة المجالس ٥١/١ ، وجامع بيان العلم

ص ٥٧٩ ، وإنباه الرواة ١٢٩/٣ ، ومعجم الأدباء ١٩٥/١٨ ، وشرح المصنوع

ص ٤ ، والفخري ص ٦ ، والجواهر المضية ٢٧٨/١ ، وبغية الوعاة ١٠٦/١ ،

وروضات الجنات ٢٥٩/٧ ، وطرائف الأدباء ص ١٠٨ .

ورود الشعر فقط ودون نسبة في المجلس الصالح ١٦٣/١ ، والبصائر والذخائر

١٦٤/٣ و ١٩٠ ، ومحاضرة الأبرار ٨/١ ، وسراج الملوك ص ٥٨١ ، وربيع

الأبرار ٢٣١/٣ ، والآداب الشرعية ٥٧٠/٣ ، والكثر المدفون ١٢٩ ، والمخلاة =

فَبَعَثَ غُلَامَهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ مُحَمَّدَ بْنَ زِيَادٍ يَسْأَلُهُ الْمَجِيءَ إِلَيْهِ. فَعَادَ إِلَيْهِ الْغُلَامُ فَقَالَ: قَدْ سَأَلْتُهُ ذَلِكَ فَقَالَ لِي: عِنْدِي قَوْمٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَإِذَا قَضَيْتُ أَرْبِي مَعَهُمْ أَتَيْتُ. قَالَ الْغُلَامُ: وَمَا رَأَيْتُ عِنْدَهُ أَحَدًا، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُتُبًا يَنْظُرُ فِيهَا، فَيَنْظُرُ فِي هَذَا مَرَّةً وَفِي هَذَا مَرَّةً.

ثُمَّ مَا شَعَرْنَا حَتَّى جَاءَ، فَقَالَ لَهُ أَيُّوبُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ! تَخَلَّفْتَ عَنَّا، وَحَرَمْتَنَا الْأَنْسَ بِكَ، وَلَقَدْ قَالَ لِي الْغُلَامُ: إِنَّهُ مَا رَأَى عِنْدَكَ أَحَدًا، وَقَدْ قُلْتَ لَهُ: أَنَا مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَإِذَا قَضَيْتُ أَرْبِي مَعَهُمْ أَتَيْتُ!!

فَقَالَ:

لَنَا جُلَسَاءُ مَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ
يَقِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَا مَضَى
بَلَا فِتْنَةٍ تَخْشَى وَلَا سُوءِ عِشْرَةٍ
فَإِنْ قُلْتَ أَمْوَاتٌ فَمَا أَنْتَ كَاذِبٌ
يُفَكِّرُ قَلْبِي دَائِبًا فِي حَدِيثِهِمْ
الْبَاءُ مَا مُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهَدًا
وَعَقْلًا وَتَأْدِييًّا وَرَأْيًا مُسَدَّدًا
وَلَا تَنْتَقِي مِنْهُمْ لِسَانًا وَلَا يَدًا
وَإِنْ قُلْتَ أَحْيَاءُ فَلَسْتَ مُفَنِّدًا
كَأَنَّ فُؤَادِي ضَافَهُ سَمٌّ أَسْوَدًا

* * *

أَبُو الْفَرَجِ الْمَعَاذِيُّ بْنُ زَكَرِيَّا^(١):

قال: وقد كان بعض من كان له في الدنيا صيت ومكانة عاتبني على ملازمتي المنزل، وإغبابي زيارته، وإقلالتي ما عودته من الإلمام به وغشيان

= ص ٢١، ودرّة الحجال ١/٢٥٢، وديوان ابن المبارك ص ٧٧، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩، وقاموس الحكم والأمثال ص ٥٠٩، ونسبت لكلثوم العتابي في الفهرست ص ٣٧، وطرّاز المجالس ص ٢٦٦، وانفرد بزيادة البيت الأخير تقييد العلم ص ١٤٣.

(١) المجلس الصالح الكافي ١/١٦٤.

حضرته، وقال لي : أما تستوحش الوحدة؟ ونحو هذا من المقالة، فقلت له : أنا في منزلي إذا خلوت من جليس يقصد مجالستي، ويؤثر مساجلتي، في أحسن أنس وأجمله، وأعلاه وأنبله، لأنني أنظر في آثار الملائكة والأنبياء والأئمة والعلماء، وخواص الأعلام الحكماء، وإلى غيرهم من الخلفاء والوزراء، والملوك والعظماء، والفلاسفة والأدباء، والكتّاب والبلغاء، والرجّاز والشعراء، وكأنني مجالس لهم، ومستأنس بهم، وغير ناء عن محاضرتهم لوقوفي على أنبائهم، ونظري فيما انتهى إليّ من حكمهم وآرائهم.

* * *

بعض محبي الكتب^(١) :

سئل أحد المتزوين بين الكتب للدراسة والتأليف بين أقوام لا يعملون مثله، ولا يودون من يعمل مثله وأي عمل صالح، سئل : لماذا لا تلتقي بالناس كما يلتقي غيرك؟

فأجاب : أأخرج إلى محب متخاذل، أو مبغض مخاتل، أو منافق مجامل، أو حسود مزامل، أو جاهل متطاول، أو عاقل مباطل، أو لذي برّ غير عاجل، أم لجمع حطام زائل بين متكالب عليه وصائل...؟

يا ترى أنفق الوقت — والوقت من ذهب — ، أنفقه في أجواء تأخذ بالأنفاس؟ أم في أجواء بين جلّاس، أفيد وأستفيد من بينها ما هو خير لي وللناس.

أما إذا ابتغيت لي باللقاء، وغرة المال، فالمال إلى زوال والعلم باق مدى الأجيال.

* * *

(١) الكشكول مهدي ص ١٠٢.

أبو العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب^(١) :

قيل له : توحشت من الناس جدًّا ، فلو تركت لزوم البيت بعض الترك
وبرزت للناس كانوا ينتفعون بك وينفعك الله بهم .

فمكث ساعة ثم أنشأ يقول : وفي رواية : دخل رجل على أبي العباس
ثعلب وهو ينظر في الكتاب فقال : إلى متى هذا ؟ فأنشد :

وَاسْتَخَفُّوا كِبْرًا بِحَقِّ الْجَلِيسِ	إِنْ صَحِبْنَا الْمُلُوكَ تَاهُوا وَعَقُّوا
سَ وَعُدْنَا إِلَى عِدَادِ الْفُلُوسِ	أَوْ صَحِبْنَا التَّجَارَ صِرْنَا إِلَى الْبُؤِ
سَمَ وَنَمَلًا بِهِ بَطُونُ الطُّرُوسِ	فَلَزِمْنَا الْيُّوتَ نَسْتَخْرِجُ الْعِلَـ
أَمْراءَ عَلَى الْمُلُوكِ وَالرُّؤُوسِ	وَقَنَعْنَا بِمَا رَزَقْنَا فَصَرْنَا
مَنْ أَمَانِينَا بَعَلَقَ نَفِيسِ	لَوْ تَرَكْنَا ذَاكَ كُنَّا ظَفَرْنَا
حَسَدُونَا عَلَى حَيَاةِ النُّفُوسِ	غَيْرَ أَنْ الزَّمَانَ أَغْنَى بَيْنَهُ

* * *

أبو حيَّان محمد بن يوسف بن حيَّان^(٢) :

أَرَحْتُ نَفْسِي مِنَ الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ
لَمَّا عَنِتُّ عَنِ الْأَكْيَاسِ بِالْإِيَّاسِ
وَصِرْتُ فِي الْبَيْتِ وَحْدِي لَا أَرَى أَحَدًا
بَنَاتِ فِكْرِي وَكُتُبِي هُنَّ جُلَاسِي

* * *

(١) الأبيات الثلاثة الأولى لثعلب في جامع بيان العلم ص ٥٨٠ ، وبهجة المجالس
٥١/١ ، ودون نسبة في تقييد العلم ص ١٤٥ ، ويزياد البيت الرابع ودون نسبة في
سراج الملوك ص ٥٨٠ ، وكلها ما عدا الرابع في المخلاة ص ٢٥٤ .

(٢) الإحاطة ٥٧/٣ ، والكتيبة الكامنة ص ٨٤ ، ووجيز الكلام ٩/١ ، والمقاصد
الحسنة ص ٢٤٣ ، ونفع الطيب ٥٦٤/٢ ، وكشف الخفاء ٥٥٢/١ .

أبو عيسى ابن لبّون^(١):

وهو من قواد المأمون بن ذي النون.

قال في زهده وإقلاعه والتزامه بيته عند انخلاءه:

نَفَضْتُ كَفِّي عَنِ الدُّنْيَا وَقُلْتُ لَهَا	إِلَيْكَ عَنِّي فَمَا فِي الْحَقِّ أَغْتَبُنُ
مِنْ كِسْرِ بَيْتِي لِي رَوْضٌ وَمَنْ كُتِبِي	جَلِيسٌ صِدْقٍ عَلَى الْأَسْرَارِ مُؤْتَمَنُ
أُذْرِي بِهِ مَا جَرَى فِي الدَّهْرِ مِنْ خَبَرٍ	فَعِنْدَهُ الْحَقُّ مَسْطُورٌ وَمُخْتَزَنُ
وَمَا مُصَابِي سِوَى مَوْتِي وَيَذْفُنِي	قَوْمٌ وَمَا لَهُمْ عِلْمٌ بِمَنْ دَفَنُوا

* * *

مجير الدّين أحمد بن الحسن الخياط^(٢):

ومصاحب الأيام لم يترك له	كر اللّياالي والخطوب صحابا
والمرء يحقر معدماً فإذا بدا	إثراؤه للناس كان مهابا
والدهر ما برحت هموم صروفه	تعشى العيون وتشغل الألبابا
وإذا نبت بالأكرمين مواطن	سكنوا السروج وحرّكوا الأقتابا
وإذا قست كبد الزمان فلن	يمكره نهاب كل غنيمة وهابا
وممارس الدنيا الدنيّة لم يهب	منها طعان حوادث وضرابا
حامى الحقيقة ليس يُخفر ذمّة	ومتى دعاه الصارخون أجابا
إن قال أودع في المسامع حكمة	أو صال ودعت الرؤوس رقابا

(١) قلائد العقيان ٢٩٦/١، والذخيرة ١٠٨/٥، وخريدة القصر (المغرب) ٣/٣٧٩،
والحلة السراء ١٧١/٢، والمغرب في حلي المغرب ٣٧٦/٢، ونفح الطيب
٥٩٧/٣.

(٢) تذكرة النبيه ٢٥٢/٢ من قصيدة. وقال المحقق: وردت بعض هذه الأبيات في درة
الأسلاك.

فاهجر بني الدنيا وسالمهم تفز وبمحض نصحي لا تكون مرتابا
وإذا أردت مجالساً ومؤانساً فاجعل جليسك والأئيس كتابا

* * *

عمر بن المظفر ابن الوردى^(١) :

مُجَالِسٌ مُؤْتَمَنٌ يحملُ عني الكَلْفا
يأتي إذا جالسي بالكبرا والخلفا
أراه لي في خلوتي عن كلِّ خلٍّ خلفا

* * *

أحمد الصافي النجفي^(٢) :

أهوى الهدوء، وبلدتي فيها الضجيج مخيمٌ
فأفر للصحرا فتزعجني الوحوش تهمهم
فأؤمُّ بستاناً فأسمع طيره يترنم
فأزور مقبرة لأن بها الأهالي نُوم
لكن من الأرواح يزعجني صراخ مؤلم
فأجالس الكتب التي لي بالإشارة تُفهم

* * *

سعيد بن المسيب^(٣) :

قال: إنَّ في العزلة لسلامة؛ فأنبل أن تُرى في مجالس السُّفهاء، فإذا
اغتممتَ وحدك؛ فادرس كتاباً من فعل الفقهاء.

* * *

(١) ديوان ابن الوردى ص ٣٩٠.

(٢) الأغوار ص ١٠٧، قصيدة بعنوان «الضجيج».

(٣) العزلة والانفراد ص ٧٢، وانظر تخريجه في الحاشية.

شاعر^(١):

عائش في وحدتي والله قربي
يا لهما من رفقة صادقة
أنا أهواها وأهوى قريبها
كشموع ومنارات لمن
لا أنيس مثل كتبي في الحمى
لا رفيق ههنا يرفق بي
وندماي قوافي وكتبي
لم تخن عهدي ولا فاهت بكذب
من قديم ولها يخفق قلبي
سهروا الليل وناجوا بعض شهب
لا جليس مثلها يعرف حبي
فرفاقي كتبي من بعد أبي

* * *

عبد الكريم القيسي^(٢):

ولمّا رأيتُ البَغِيّ في الناس ظاهراً
وكنْتُ خَصَصْتُ البعضَ منهم بخُلّةٍ
رغبتُ بنفسِي عن مُراعاةِ وُدِّهم
ولم أرَ منهم جَانِحاً لِمَثَابِي
عتبتُ عليها النفسَ أيّ عِتَابِ
وأصبحتُ عنهم أُمّةً بكتابِ

* * *

لسان الدين ابن الخطيب^(٣):

قال: أَنشَدْتُ مَنْ اسْتَفْهَمَنِي عَنْ حَالِي:

أَمَلِي مِنَ الدُّنْيَا تَأْتِي خُلُوةٌ
أُذَكِّي بِهِ زَنْدَ الْقِرَاءَةِ وَالْفِرَى
حَتَّى الْأَقْيِ اللَّهَ لَمْ تَضْرِفْنِي أَلْ-
فِي مَنْزِلِ بَادٍ خَصِيبِ الْجَانِبِ
رَحْبُ الْجَنَابِ لِطَارِقِي أَوْ طَالِبِ
أَوْهَامٍ عَنْهُ بِشَاغِلٍ أَوْ شَاغِبِ

* * *

(١) أنيس الجليس ص ١٣ .

(٢) ديوان عبد الكريم القيسي ص ٢٣١ .

(٣) ديوان لسان الدين ابن الخطيب ص ١ ، ص ١٤٥ .

أحمد بن أبي سليمان الصّواف^(١) :

رأيت حليم القوم فيهم مقدّماً
ويحيا من الزلفى غداً في معاده
أراني بحمد الله في المال زاهداً
فخليت من دنياي إلا ثلاثة
غنيت بها عن كل شيء حويته
وقد ذم قوم ما فعلت جهالةً
ولو فهموا أمري ورأيي لأبصروا

* * *

أبو الفتح علي بن محمد البستي^(٢) :

لما رأوني فريداً جالس زاوية
قالوا وضيع سلا عن حظّه ورأى
لو أنصفوني أصاخوا للنداء وهل
أتى يكون وضيع النفس ذا همم
ما عابني غير أنني عبت شهوته
رضيت نفسي لنفسي مؤنساً حديباً
ففي بلاغات أهل العلم لي بُلغٌ
وليس يزري بنفسي فقد مؤنسها
ما أشبهوني فعادوني لنقصهم

مستوحشاً في أناس حلمهم سفه
أن النبیه هو المستحقر النبیه
ترجى إصاخة قوم بعدما انتبهوا
له بإبلاغها أقصى العلا وله
إليه ظناً بأن الهمة الشره
إن ظنّ بي وله أو ظنّ بي وره
وفي رياض الرياضات لي نزه
وهل يضر بعين الأكحل المره
وليس يشبه تبرا خالصاً شبهه

* * *

(١) ترتيب المدارك ٢/٢٤٥ من قصيدة.

(٢) أبو الفتح البستي حياته، شعره ص ٣٢٧.

عمر بن شبة^(١) :

حدّث أبو علي العنزي، قال: امتحن عمر بن شبة بسرّاً من رأى بحضرتي فقال: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، فقالوا له: فتقول من وقف فهو كافر؟ فقال: لا أكفر أحداً، فقالوا له: أنت كافر. ومزقوا كتبه، فلزم بيته وحلف أن لا يحدث شهراً، وكان ذلك حدثان قدومه من بغداد بعد الفتنة، فكنت ألزمه أكتب عنه، وما امتنع مني من جميع ما أسأله، فأنشدني قصيدة له أنشدها في محنته:

لَمَّا رَأَيْتَ الْعِلْمَ وَلَّى وَدَثِرَ	وَقَامَ بِالْجَهْلِ خَطِيبٌ فَهَمِرَ
لَزِمْتَ بَيْتِي مَعْلَناً وَمُسْتَرِ	مَخَاطِباً خَيْرَ الْوَرَى لِمَنْ غَبِرَ
أَعْنِي النَّبِيَّ الْمُصْطَفَى عَلَى الْبَشَرِ	وَالثَّانِيَ الصَّدِيقَ وَالتَّالِيَّ عَمْرَ

* * *

عمر بن خلف ابن مكي^(٢) :

اجْعَلْ صَدِيقَكَ نَفْسَكَ	وَجَوِّفْ بَيْتَكَ حِلْسَكَ
وَاقْنَعْ بِخُبْزٍ وَمِلْحٍ	وَاجْعَلْ كِتَابَكَ أَنْسَكَ
وَاقْطَعْ رَجَاءَكَ إِلَّا	مِمَّنْ يُصَرِّفُ نَفْسَكَ
تَعِشْ سَلِيماً كَرِيماً	حَتَّى تُؤَافِيَ رَمْسَكَ

* * *

محمد بن إبراهيم المفضل^(٣) :

وجدت في صحبة كتبي غنى عن حال من أن تصفه الود حال

(١) تاريخ بغداد ٢٠٨/١١، وسير أعلام النبلاء ٣٧٠/١٢.

(٢) خريدة القصر (المغرب) ١٢٧/١، والدرّة الخطيرة ص ١٥٠.

(٣) طيب السمر ص ٥٨، والأدب اليمني ص ٣٨٠.

صَامِتَةً لَكِنَهَا دَائِمًا تخبر عن ماضٍ وآتٍ وحال
وصرّت في حضرة أنسي بها أحمد منها الجبر في الاعتزال

* * *

عمر بن مظفر ابن الوردی^(١) :

إني تركت عقودهم وفسوخهم وفروضهم والحكم بين اثنين
ولزمت بيتي قانعاً ومطالعاً كتب العلوم وذاك زين الزين
أهوى من الفقه الفروق دقيقة فيها يصح تفرز النصين
وأحب في الإعراب ما هو غامض عن نصف نحوي وعابر عين
وأقول في علم البديع معانياً مقسومة بين البيان وبينني
وتركت نظم الشعر إلا نادراً كالبيت في سنة أو البيتين
ما الشعر كالعلم الشريف نباهة فالعلم فيه سعادة الدارين

* * *

أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم^(٢) :

رغيفُ خبزِ يابس تأكله في زاوية
وكوزُ ماءٍ باردٍ تشربه من ساقيه
وغرفةٌ ضيقةٌ نفسك فيها خاليه
أو مسجدٌ بمعزل عن الوري في ناحية
تدرسُ فيه دفتراً مستنداً بساريه

(١) ديوان ابن الوردی ص ٣٥٧، والأبيات ١ و ٢ في الدرر الكامنة ٣/ ٢٧٤، وما عدا

الرابع في وجيز الكلام ١/ ٣٩، والأول فقط في المقاصد الحسنة ص ٣٩١،
وكشف الخفاء ط ٥٥٢، والأولان في أعلام النبلاء ٥/ ٨.

(٢) أبو العتاهية أشعاره ص ٤٤١، ونزهة الجليس ١/ ٤٢٤.

معتبراً بمن مضى	من القرون الخاليه
خيراً من الساحات في	فنيء قصور عاليه
تعقبها عقوبة	تصلي بنار حاميه
فهذه وصيتي	مخبرة بحاليه
طوبى لمن يسمعها	تلك لعمري كافيه
فاسمع لنصح مُشفق	يُدعى أبا العتاهيه

* * *

سعيد فياض^(١):

لا يَسْلَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ كَارِهِ	حَتَّى وَلَوْ عَاشَ الْهُدَى وَالصَّوَابُ
وَلَا يَرَى السَّرَّاءَ فِي عُمْرِهِ	إِلَّا وَمِضَاءً خَادِعاً كَالسَّرَابِ
فَاضْبِرْ وَلَا تَجْزَعْ إِذَا أَمْطَرَتْ	دُنْيَاكَ هَمًّا عَاصِفاً فِي الْعَذَابِ
وَاقْتَعْ مِنَ التُّعْمَى بِسَدِّ الطَّوَى	فَكُلُّ شَيْءٍ آيِلٌ لِلثَّرَابِ
وَادْفَعْ هَوَى النَّفْسِ وَطُغْيَانَهُ	تَنْعَمَ بِعَيْشٍ هَانِيٍّ مُسْتَطَابِ
وَابْعُدْ عَنِ النَّاسِ وَضَوْضَائِهِمْ	وَاسْتَبْدِلِ اللَّغْوَ بِصَمْتِ الْكِتَابِ
فَفِي الْكِتَابِ الْعَقْلُ مُخْضَوِّضٌ	تُبْصِرُ فِيهِ مَا تَبْدَى وَغَابِ
يُعْطِيكَ كُلَّ الْحَقِّ فِي حَمْلِهِ	أَوْ تَرْكِهِ، لَا لَوْمَةً أَوْ عِتَابِ
صَوْتُ النَّهْيِ فِي صَمْتِهِ نَاطِقٌ	وَفِي حَدِيثِ النَّاسِ ظَفَرٌ وَنَابِ!

* * *

محمد الأسمر^(٢):

مجالسُ الناسِ صارت لا حديثَ بها	إِلَّا فلانٌ به كَيْتٌ، وفيه كذا!!
---------------------------------	------------------------------------

(١) هتاف الوجدان ص ٣٢٣، قصيدة بعنوان: «قناعة».

(٢) ديوان الأسمر ص ٤٦٢، قصيدة بعنوان: «مجالسُ الناس».

كمن يداعبُ صيداً بعد ما أُخذَا
فلو أتيتَ بقرآنٍ لقليلَ هذا
فلا تثرثرْ به، بل ألقه نُبْذا
في كُلِّ شيءٍ، وعن تعليقك العودَا
وأن تَظْلَ بعُقر الدار مُتَبْذا
وعاطِهم وتعاطِ الودَّ وهو أذى!!
فالبسْ لديهم دروعَ الحرب والخودَا
مُقَلَّد صَغْدَة، أو صارماً شُحْدا
فلا تَكْنُهُ وَكُنْ أَخْذاً من أَخْدا!!

* * *

حتى إذا جاءَهُمْ هَشُوا لمقدمه
فاحسِ لسانَكَ إن وافيتَ مجلسَهُمْ
وإن نطقتَ فخيرُ القولِ أوجزُهُ
وليس يُغْنِيكَ هذا عن حذارِهِمْ
خيرٌ من الناسِ كُتِبَ الناسَ تَقْرؤُها
أو صاحبِ الناسِ وانهلْ من مناهِلِهِمْ
واعلَمْ بأنَّهُمْ حَزَبٌ مُسْعَرَةٌ
واشحذْ سلاحَكَ واعلمْ أَنَّ كُلَّهُمْ
كَمْ من أَخِيذٍ لديهم، وهو صاحبُهُمْ

جمال الملاح^(١):

وعدت لنفسي وديني معي
أسير إلى المنصب الأرفع
من الأدب الغض لم تنزع
به لم أغر ولم أخدع
وكم في العشيرة من مدع
هي الأنس يملأ لي مخدعي
ولا الأذن تسمع ما لا تعي
يحاط بكل فتى ألمعي
نطل على السفر من مطلع
تضاف إلى شرف أوسع

تخلت للقوم عن موضعي
تركت المناصب مستغنياً
أرى الفضل ينسج لي حلة
وأعرضت عن شرف كاذب
تركت السياسة للمدعين
وفضلت في عزلتي وحشة
فلا العين تنظر ما لا تحب
وما استوحش المرء في كتبه
لدى مجلس حافل بالبدور
محاسن من أدب واسع

(١) المركب الثائه ص ١٤، قصيدة بعنوان: «العزلة والسياسة».

فيعلو سناه على البرقع
ومن يرفع الله لا يوضع
حياة الفتى الباسل الأروع
طويت على جها أضلعي

وفضل أهِم بكتمانه
سناه على رغم أنف الحسود
أحب حياة تعودتها
وأحفظ للنفس حريّة

* * *

عامر البحيري^(١):

وعن الباطل واللغو اعتزل
ماله من صحبة العمر ملل
لا ييالي بغذاها من أكل
لقراءاتٍ، ودرس، وشغل
سادة الرأي، وأرياب النحل
أرشد الحُلم لصاح ما غفل
حين يرضى فكرة خير نُزُل
فهو منها في سرور وجذل
وتطيلوا منه للدهر الأجل!

جلس العالم في منزله
يطلب الكتب ويُعلي قدرها
ينفق المال لكي يتاعها
كلّ يوم منه شطر صالح
صحبه الأدنون هم أصحابها
الغزالي وابن رشدٍ عنده
وسماءُ العبقريات له
هذه الكتب غدت أبناءه
أنشروها تنشروا أفكاره

* * *

إسماعيل أبو شقرة^(٢):

وفقدي لأيام الصَّبابةِ والهوى
هي الجنةُ الخضراءُ تَرْقُصُ في الهوا
هَزارٌ إلى وَكْرٍ لَهُ أَبٌ أَوْ أوى

تَأَسَّيْتُ عَنْ هَجَرِ الْأَحِبَّةِ وَالْوَرَى
بعوذي إلى دارٍ أَحْسَنُ بَأْنِهَا
وأشعرُ أَتَى حينَ عُدْتُ لِحَصْنِهَا

(١) ديوان عامر البحيري ص ٣١٠، من قصيدة «العقاد».

(٢) أغاريد الطيور ص ٧٠، قصيدة بعنوان: «العودة إلى الفردوس».

ولا أنا بالباكي على جُنُبِ خوى
إلى هَسٍّ أوصالي، مزِيداً من القوى
حنيناً إلى الماضي يَضِجُ مِنَ الجوى
تَلَبِّي لها زَوْجِي السَّكِينَةَ بِالنَّوى
أعزَّ على جُرْحِي البليغ من الدَّوا
أطيرُ بها عَن عَالَمِ اللَّغْوِ والهوى
إلى أَقْرَبِ اللَّذَاتِ نَوَلاً لِمَنْ نَوَى
تُرِينِي بني الإنسانِ كَالثَّمَلِ فِي الكوى
فهذا سُلُوكُ النَّاسِ مُذْ خُلِقَتْ طوى
وَلَا تَشْكُ مِنَ الْغَدْرِ سِيمَ أَوْ اِكْتَوَى
يُخَالِطُ أَقْوَاماً تَعِيشُ عَلَى الْغَوَى

فَلَا أَنَا بِالْأَسَى عَلَى فَقْدِ صَحْبِي
أَلَاعِبُ أَطْفَالِي، فَيَرْجِعُ ضَحْكُهُمْ
وَأَهْفُو إِلَى زَوْجِي، فَتَشْعِلُ فِي دَمِي
وَأِنْ طَلَبْتَ نَفْسِي السَّكِينَةَ أَسْرَعَتْ
فَأَسْتَلُّ مِنْ رُكْنِ الْخَزَانَةِ (دَارِساً)
فَفِي الْكُتُبِ الصَّفَرَاءِ أَحْطَى بِمُنْتَعَةٍ
وَأَسْمُو بِهَا عَنْ كُلِّ أَرْضٍ تَشُدُّنِي
وَفِي كُتُبِ الْأَشْعَارِ أَسْمُو لِرُبَّةٍ
فَلَا تَبْتَسِ إِنْ عَقَّكَ النَّاسُ سَاعَةً
تَعَوِّذُ عَلَى نَارِ الْقَطِيعَةِ وَالْأَسَى
فَلَمْ أَرِ أَغْبَى أَوْ أَجَنٍّ مِنَ الَّذِي

* * *

أحمد الصافي النجفي^(١):

أطالع ما استطعت وجوه كتب فراراً من مطالعة الوجوه

* * *

عباس محمود العقاد^(٢):

كل بيت من البيوت التي تعاقب عليها السكان لو أقيت عليه طُلُسمَ
الخيال وأمرته بالكلام فتكلم لانطلقت منه أسرار وأشباح يزدهم بها فضاء
المكان، ولسمعت عجباً لا تسمع الآذان أعجب منه، وليس الذي يتحدث به
«البيت» في القصيدة التالية إلا قليلاً من كثيره:

(١) هواجس ص ٦.

(٢) ديوان العقاد ٥٥٣/٢، من قصيدة «بيت يتكلم».

فَذُو عِلْمٍ وَتَبَيَّانِ	وَأَمَّا رَابِعُ الْقَوْمِ
بَسْ وَالْأَخْضَرُ حِيشَانِي	حِشَا بِالْوَرَقِ الْيَا
رَضُ أَوْ مِنْ فَوْقَ عَمْدَانِ	فَمَا لِي مَوْضِعٌ فِي الْأَ
عِ أَوْ بِهِ وَضَيْفَانِ	وَمَا لِي مَطْبَخٌ أَوْ مَخْدِ
وَفِيهَا الْكُتُبُ تَلْقَانِي	وَلَا زَاوِيَةً إِلَّا
وَلَمْ يَسْمَعْ لَجْثَمَانِ	أَبَى لِلنَّفْسِ دَعْوَاهَا
وَلَا جَلْسَةَ نَدْمَانِ	فَلَا سَهْرَةَ أَحْبَابِ
ذَاكَ الْعَالَمِ الْعَانِي!	فَمَا أَجْهَلُهُ بِالْخَلْقِ
جِ إِلَى عِلْمٍ وَبِرْهَانِ؟	أَبَيْنَ النَّاسِ يَحْتَا
سَرَوْا فِي إِثْرِ عَمِيَانِ؟	وَهُمْ عَمِيَانُ ظَلَمَاءِ
نَ فِي دُنْيَاكَ عَيْنَانِ!!	كَثِيرُ لَكَ يَا إِنْسَا

* * *

أَبُو الْقَاسِمِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبُلُويُّ الْإِسْبِيلِيُّ^(١):

وَلَا أَلْقَى سَوَى رَجُلٍ مُصَابٍ	لَمَنْ أَشْكُو مُصَابِي مِنَ الْبَرَايَا
لِعَاشِ مَدَى الزَّمَانِ أَخَا أَكْتَثَابِ	أُمُورٍ لَوْ تَدَبَّرَهَا حَكِيمٌ
بِأَسْرَارِي فَيُؤَنِّسُ بِالْجَوَابِ	أَمَّا فِي الدَّهْرِ مِنْ أَفْضَى إِلَيْهِ
سَرَى عَنِّي الْهُمُومُ سَوَى كِتَابِي	يُسْتُ مِنَ الْأَنَامِ فَمَا جَلِيسٌ

* * *

لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُنْفَرِّدًا إِذَا كَانَ بِصُحْبَةِ الْكُتُبِ^(٢).

* * *

(١) اختصار القدر المعلى ص ١٢٠، ونفع الطيب ٣/ ٣٢٥.

(٢) كلمات من ذهب ص ٦٦٠.

جونسون^(١):

الْكُتُبُ مَرَشَدَةٌ فِي الصَّغَرِ، وَتَسْلِيَةٌ فِي الْكِبَرِ، وَرَفِيقٌ فِي الْعُزْلَةِ.

* * *

قال بعض العلماء^(٢):

الكتاب جَلِيسٌ، لا مَوْونة عليك فيه.

* * *

أبو الطيّب المتنبّي^(٣):

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجٌ سَابِحٌ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ

يقول: إن سرج الفرس هو أعز مكان؛ لأنه يمتطي لطلب المعالي أو محاربة الأعداء لدفع شرهم، أو للهرب من الضيم واحتمال الذل. وأن الكتاب هو خير جليس لأنه مأمون الجانب، فلا أذى ولا شر، ولا يحتاج في مجالسته إلى مؤونة، فضلاً أنه يفاد من آدابه وكل ما يحتويه.

* * *

(١) موسوعة روائع الحكمة ص ٥١١.

(٢) المحاسن والمساوىء ص ٦، وتقييد العلم ص ١٢٠.

(٣) شرح ديوان المتنبّي ٣١٩/١، والعزلة ص ٩١، وبتيمة الدهر ٢١٥/١، واللطائف والظرائف ص ٦٧، والتثيل والمحاضرة ص ١١٠، والمناقب والمثالب ص ٢٤٠، وزهر الآداب ١٨٤/١، والعمدة ٤١٦/١، وأحكام صنعة الكلام ص ٥٢، وشرح المضمون ص ٤، والفخري ص ٧، وحسن التوسل ص ٩٠، ونهاية الأرب ١٠٥/٣، وخزانة الأدب ٢٠٦/١، والمخلاة ص ٢٧٤، وأنوار الربيع ٣٨٧/٢، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٨، وكنوز الحكمة ص ١٣، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩، وكلمات من ذهب ٦٦٢.

عامر بن شراحيل الشعبي^(١) :
نعم المحدثُ الدفتر .

* * *

أحمد بن عبد الله ابن زيدون^(٢) :

فَتَحَتِ الْمُتَى مِنْ بَعْدِ إِلَهَامِنَا بِهَا
مَبْدُوثُ ظِلَالِ الْأَمْنِ تَخْضَرُ تَحْتَهَا
حِمَى سَالَمَتْ فِيهِ الْبُغَاثُ جَوَارِحُ
فَلَا زَلَتْ تَسْعَى سَعْيَ مَنْ حَظُّ سَعِيهِ
فَإِنَّكَ لِلدِّينِ الشَّعِيبِ لَمُتِمٌ
إِذَا مَعَشَرَ الْأَهَامُ جُلَسَاوُهُمْ
وَقَدْ ضَاعَ إِقْلِيدُ وَأُبْهِمَ بَابُ
مِنَ الْعَيْشِ فِي أَغْذَى الْبِقَاعِ شِعَابُ
وَكَفَّتْ عَنِ الْبَهْمِ الرِّتَاعِ ذَنَابُ
نَجَاحٌ وَحَظُّ الشَّائِئِيهِ تَبَابُ
وَإِنَّكَ لِلْمُلْكِ الثَّيِّ لَرِثَابُ
فَلَهُوْكَ ذِكْرٌ، وَالْجَلِيسُ كِتَابُ

* * *

أحمد بن أبي الفتوح^(٣) :

إِذَا لَمْ أَجِدْ يَوْمًا جَلِيسًا مَهْدَبًا
يُرِينِي الْوَرَى الْمَاضِينَ : مَنْ كَانَ مِنْهُمْ
يُشَاكِلُنِي فِي النَّجْرِ، جَالَسْتُ دَفْتَرَا
أَلْبَ، وَأَقْوَى فِي الْخُطُوبِ، وَأَصْبَرَا

* * *

وقال غيره^(٤) :

اجعل جليستك مجموعاً تطالعه
لتستفيد من الآداب والحكم

(١) التمثيل والمحاضرة ص ٣٤، وبلا عزو في ربيع الأبرار ٢٣٢/٣، والمخلاة ص ٣٤٥.

(٢) ديوان ابن زيدون ص ٣٧٩، من قصيدة في المدح.

(٣) خريدة القصر (العراق) ٥٥١/٤، من قصيدة.

(٤) الكنز المدفون ص ٤٠٧.

واترك مجالس أقوام تجالسهم فتكسب الإثم من سَمِعٍ ومن كَلِمٍ

أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد الرازي اللغوي^(١):

وَقَالُوا كَيْفَ حَالُكَ؟ قُلْتُ خَيْرٌ تُقْضَى حَاجَةٌ وَتَقُوتُ حَاجٌ
إِذَا ازْدَحَمَتْ هُمُومُ الصَّدْرِ قُلْنَا عَسَى يَوْمًا يَكُونُ لَهَا انْفِرَاجٌ
نَدِيمِي هِرَّتِي وَأَنْيَسُ نَفْسِي دَفَاترُ لِي وَمَعْشُوقِي السَّرَاجُ

شاعر^(٢):

إِذَا اسْتَوْحَشْتَ فَاسْتَأْنِسْ إِلَى أُخْدُوثةٍ تُؤَثِّرُ
وَلَا تَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا فَنِعَمَ الْمُؤْنِسُ الدَّفْثَرُ

محمد بن أحمد العلوي الأصبهاني^(٣):

لَا وَأَنْسِي وَفِرْحَتِي بِكِتَابٍ أَنَا مِنْهُ فِي حَسَنِ أَضْحَى وَفِطْرِ
مَا دَجَا لَيْلٍ وَحَشْتِي قَطٍ إِلَّا كُنْتُ لِي فِيهِ طَالِعًا مِثْلَ بَدْرِ

(١) يتيمة الدهر ٤٦٩/٣، ودمية القصر ١٤٨٠/٣، ونزهة الألباء ص ٢٣٧، والمتنظم ٢٧٤/١٤، وإنباه الرواة ١٢٨/١، ومعجم الأدباء ٨٦/٤، والمستفاد من ذيل بغداد ص ١٦٨، ووفيات الأعيان ١٢٠/١ و ٤٥١، وحياة الحيوان ٣٨٦/٢، والفلاكة والمفلوكين ص ١١٢، وشذرات الذهب ٤٨٢/٤، وروضات الجنات ٢٤٣/١، وموسوعة الكنايات العامية ٨٩/٢ و ١٣٤/٣، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٥٧.

(٢) حماسة الظرفاء ٢٧٩/٢.

(٣) تقييد العلم ص ١٢٩.

بحديث يقيم للأنس شوقاً ولشام يكف لوعة صدري

* * *

أحمد بن عبد المنعم الحكيم البغدادي^(١):

إِذَا لَمْ أَجِدْ لِي فِي الزَّمَانِ مُوَانِساً جَعَلْتُ كِتَابِي مُؤْنِسِي وَجَلِيسِي
وَأَغْلَقْتُ بَابِي دُونَ مَنْ كَانَ ذَا غِنَى وَأَمْلَيْتُ مِنْ مَالِ الْقَنَاعَةِ كَيْسِي

* * *

عبد الله بن المعتز^(٢):

لَا شَيْءَ أَنْفَعُ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُ فِيهِ السَّلَامَةُ وَهُوَ خَلُّ مُؤْنَسِ
رَسْمٍ يَفِيدُ كَمَا يَفِيدُ ذُو النِّهْيِ أَعْمَى أَصَمٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ أَخْرَسُ

* * *

وله أيضاً^(٣):

جَعَلْتُ كِتَابِي أَنْيْسِي مِنْ دُونَ كُلِّ أَنْيَسٍ
لَأَنْنِي لَسْتُ أَرْضَى إِلَّا بِكُلِّ نَفِيسٍ

* * *

أحمد بن محمد بن أحمد السلمي، أبو جعفر المغربي
الأندلسي، يُعرف بابن خولة^(٤):

إِذَا مَا الدَّهْرُ بَيَّنَّنِي بِجَنَاشِ طَلِيعَتُهُ اهْتِمَامٌ وَاكْتِثَابُ

(١) شذرات الذهب ١٩٣/٧.

(٢) تقييد العلم ص ١٢٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٣.

(٤) تراجم مغربية ص ١٧٨، وتاريخ إربل ٣٧٧/١، وتاريخ الإسلام ٣٩٥/٤٤،

وتكملة إكمال الإكمال ص ٩٠، ودون نسبة في معجم الأدباء ٣١/١، ووفيات

الأعيان ١٣٤/٦، وموسوعة الكنايات ٩٠/٢.

شَنَنْتُ عَلَيْهِ مِنْ جَلْدِي كَمِيناً أَمِيرَاهُ الدُّبَالَةُ وَالْكِتَابُ
وَبِئْتُ أَنْصُ مِنْ شِيمِ اللَّيَالِي عَجَائِبَ فِي حَقَائِقِهَا ارْتِيَابُ
أُرِيدُ بِهَا التَّسْلِي مُسْتَرِيحاً وَلَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ بِهَا عِتَابُ

* * *

بعض الحكماء^(١) :

قال : من تفرّد بالعلم لم تُوحِشه خلوةٌ، ومن تسلّى بالكتب لم تفتّه سلوةٌ، ومن آتسّه قراءة القرآن لم توحِشه مفارقة الإخوان .

* * *

بعض الوزراء^(٢) :

قال : يا غلام آتني بأنس الخلوة ومجموع السلوة؟ فظن جلساؤه أنه يستدعي شراباً، فأتاه بسفط فيه كتب .

* * *

عبد الله بن العباس :

قيل له : كم تطلب العلم؟ قال : إذا نَشِطْتُ فهو لذتي ، وإذا اغتيمت فسلوتي^(٣) .

* * *

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٣٣ ، ودون الفقرة الأخيرة في الحكمة الخالدة ص ١٤١ ، ومحاضرات الأدباء ٣٣/١ وعين الأدب والسياسة ص ١٢ .

(٢) تقييد العلم ص ١٢٥ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٩١/٣٧ ، وصفحات من صبر العلماء ص ١١٣ نقلاً من تاريخ حلب .

بعض البصريين^(١) :

العلم أنس صاحب أخلو به في وحدتي
فلذا اهتممت فسلوتي وإذا خلوت فلذتي
ويروى : « وإذا نشطت فلذتي » .

* * *

عمر بن الحاكم^(٢) :

علمي إذا ما نشطت ألهاني وهو متى ما اغتممت أسلاني
ودفترى ، والجليس يخذلني خير جليس وخير ندمان

* * *

آخر^(٣) :

نعم الجليس يعقب قعدة ضجرة للملك والأدباء والكتّاب
ورق تضمن من خطوط أنامل مبرعى من الأخبار والآداب
يخلو به من مل من أصحابه فيقال خلو وهو في الأصحاب

* * *

ابن المأمون :

دخل المأمون يوماً على بعض بنيه وهو ينظر في كتاب فقال : ما هذا؟
قال : كتاب يشخذ الفطنة ، ويؤنس العشرة ، فقال المأمون : الحمد لله الذي
جعل لي ذرية يرى بعين عقله أكثر مما يرى بعين جسمه^(٤) .

* * *

(١) جامع بيان العلم ص ٥٨٣ .

(٢) دمية القصر ١٠٣٢ / ٢ .

(٣) المحاسن والمساوىء ص ١٦ .

(٤) ديوان المعاني ٥٣٤ وبعده : وظل مفكراً في قول ولده الطفل ، وزهر الآداب =

بعض الحكماء^(١):

قال: الحكمة خلة العقل، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة الأرواح، ومزاح الهموم عن النفوس، وأنس المستوحش، وأمن الخائف، ومتجر الرابح، وحظ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والأجل.

وقال بعضهم: الحكمة نور الأبصار، وروضة الأفكار، ومطية الحلم، وكفيل النجاح، وضمين الخير والرشد، والداعية إلى الصواب، والسفير بين العقل والقلوب، لا تدرس آثارها، ولا تعفو ربوعها، ولا يهلك امرؤ بعد عمله بها.

* * *

وخير جليس في الأنام كتاب^(٢):

هو النديم الكريم، والخذن الأمين، البريء من الذنوب، السليم من العيوب، الذي إن أدنيت له لم يباعدك، وأن أقصيت له لم يعاودك، وإن واصلته حمدته، وإن هاجرته أمنت، وإن استنطقته أسمعك، وإن استكفيت أفتك، وإن استكففته كف، وإن استثقلته خف، وإن دعوته لبأك، وإن استعففته أعفأك.

= ١٨٤/١ وفيه: الرشيد مع المأمون، وثمار القلوب ص ٣٢٧، وتقييد العلم ص ١٣٩، ومحاضرات الأدباء ١١٨/١، وفيه: من ينظر إليه بأدبه أكثر ممّا ينظر إليه بحسبه، وربيع الأبرار ٢٣٦/٣، والتذكرة الحمدونية ٤١٢/٥ وفيه اسم ولده الفضل، والأذكياء ص ١٨٩، وأسرار الحكماء ص ١٣٧ وفيه اسم ولده هارون، والمخللة ص ٢١، والأنس ٢٩٤/١.

(١) عين الأدب والسياسة ص ١٢.

(٢) مطالع البدور ١٧٥/٢.

لا يعصي لك أمراً، ولا يحمّلك إصرأً، عرضك معه وافر، وهو لسرك
غير ناشر، أنيق المنظر، طيّب المخبر، جميل المشاهد، كثير المحامد،
يملاً العيون قره، والنفوس مسرّه، يضحك الحزين اللفه، ويلهي الغضبان
الأسف.

يجتلب السرور ويشرح الصدور، يطرد الهموم والأحزان وينفي
بواعث الأشجان، مجاورته أحسن مجاورة، ومسامرته أحلى مسامرة،
ومجالسته أنفع مجالسة، ومؤانسته أمتع مؤانسة.

فيه مدعاة إلى الطرب ومسلاة من الوصب، وتعلّة لذي الغرام،
وتلهية لقلب المستهام، وأنس للمستوحش، وري للمتعطش، وعمارة
للمجالس، وحلية للمؤانس، تلقي القلوب محبتها عليه وتميل النفوس
بكليتها إليه، ليس بينه وبين حبات القلوب حجاب، ولا يغلق بينه وبين
سويداواتها باب.

* * *

عليّ بن الجهم^(١):

لَمَّا سِيرَ عَلِيٌّ بَنُ الْجَهْمِ إِلَى خُرَاسَانَ كَتَبَ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ عَلَى لِسَانِ
غُلامٍ له:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا جَعَلَ لَهُ مِنْ قَضَائِهِ سَبِيًّا يَجْرِي بِعِلْمِهِ،
وَيَنْتَهِي إِلَى قَدَرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عِلْمًا، وَجَعَلَ لِكُلِّ قَدْرٍ.

وَمِنْ أَسْبَابِ قَدَرِهِ أَنْ سَهَّلَ لِي بَعْدَكَ مِنَ الشَّعْرِ مَا أَخَاطَبُ بِهِ الشَّاهِدَ
وَأَكَاتِبُ الْغَائِبَ، وَأَجْتَدِي بِهِ وَأَسْتَزِيدُ، وَأَبْلُغُ مَا أُرِيدُ، وَهُوَ يُؤْنِسُنِي إِذَا

(١) البصائر والذخائر ٨/ ٢٠٤.

أَوْحِشْتُ، وَيُطِيعُنِي إِذَا عَصَيْتُ، وَيَصْدَعُ عَنِّي إِذَا شِيتُ.

بَلِغُ الخُطْبَةِ، جَمِيلُ العِشْرَةِ، كَرِيمُ الصُّخْبَةِ، يَرُدُّ الأَنْدِيَةَ، وَيَلْجُ الأَخْبِيَةَ، سَائِراً فِي البَلَادِ، مَسَافِراً مِنْ غَيْرِ زَادٍ، رَاضِياً إِنْ رَضِيتُ، مُؤْذِياً إِنْ أَوْذِيتُ، جَازِياً بِمَا أُولِيتُ، بَاقِياً إِذَا أُفْنِيتُ، مُعْتَزِضاً فِي الأَسْمَارِ، عَالِماً بِالأَخْبَارِ، وَمُعْزِياً عَنِ الأَوْتَارِ.

يَحْضُرُ إِنْ غَبْتُ، وَيَجْسُرُ إِنْ هَبْتُ، وَلَا يُحْظَرُ بِالحَظَرِ، وَلَا يُوزَعُ بِالزَّجَرِ، إِذَا قُبِدَ رَتَكَ، إِذَا أُعْمِدَ بَتَكَ، وَإِذَا جُرِّدَ فَتَكَ، يَلْقَحُ بِهِ الغَزْلُ، وَيَعْلَلُ بِهِ الثَّمْلُ، وَيَأْنَسُ بِهِ الوجِلُ، وَقَدْ أَتَحَفَّتْكَ مِنْهُ بَعْضُ مَا يُجَدِّدُ عِنْدَكَ ذِكْرَنَا، وَتَعْرِفُ بِهِ خَبْرَنَا.

وَهُوَ شِعْرُ قُلْتُهُ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ لَمْ أَزَلْ أَعْجَبُ مِنْهُ، وَسَأَصِفُ لَكَ المَقَامَ لِتَحْمَدَ اللهَ تَعَالَى عَلَيْهِ :

لَمَّا كَانَ اليَوْمَ الَّذِي وَرَدْنَا نَيْسَابُورَ، وَقَصَدْنَا بَابَ الأَمِيرِ، وَقَدْ احْتَشَدَ لَنَا النَاسُ، وَكَانَ مَنْ قَدَّرَ ذَلِكَ يَتَوَهَّمُ مَعَ الخَبَرِ الشَّاعِ الَّذِي حُمِلْنَا لَهُ أَنَّ الدَّاعِيَ عَلَيْنَا سَيَكْثُرُ، وَأَنَّ الشَّامَتَ بِنَا سَيَظْهَرُ، إِذْ كُنَّا فِي حَالٍ لَمْ يُحْمَلْ عَلَى مِثْلِهَا بِأَبْكَ وَلَا المَازِيَارُ^(١)، وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا قَدْ رَأَيْنَا.

فَبَيْنَا النَّاسُ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ بِهِ فِي مَحْمِلٍ قَلِيلِ الوَطَاءِ، مَسْلُوبِ الغِطَاءِ، فَلَمَّا تَوَسَّطْنَا الجَمَاعَةَ، وَنَظَرُوا إِلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي ظَاهِرِهِ مَا يَسْمُجُ، وَلَا فِي قَدِيمِهِ مَا يُنْكَرُ، وَلَا فِي مَسَاعِيهِ مَا يَنْقَمُ، وَلَا فِي قَدْرِ الذَّنْبِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ فَعَلَهُ مَا يَبْلُغُ بِهِ ذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ، وَجَدَ الْوَلِيَّ إِلَى الدُّعَاءِ لَهُ بِالْخَيْرِ سَبِيلاً،

(١) بابك الخرمي والمازيار من الثوار على الدول العباسية، أما الأول فإنه قتل ومثل به سنة ٢٢٣هـ، (وانظر: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٧٧ - ٤٧٨)، وأما الثاني فكان قدومه على سامراء سنة ٢٢٥هـ، (انظر: المصدر نفسه ٦/ ٥١٠ - ٥١٦).

وساعده مَنْ حضر، وارتجَّ الجميعُ بالدَّعاءِ له، فصار ما نُعيَ عليه مَعُونَةً له،
وأبى الله تعالى، المحسنُ إلينا، أن يسلبه السُّتْرَ الجميل، إذ سلبه الآدميُونَ
الغطاء، وألاً يزيلَ نعمه إذ زال كلُّ ما كان فيه وألاً يجعلَ لأعدائه إلى السَّماتِ
به سبيلاً، والسلام.

* * *

أبو هلال العسكري^(١):

لا مونسٌ أنسٌ من دفترٍ وواعظٌ أوعظٌ من قبرٍ
فلا تُردَّ غيرهما صاحباً تفوز في الموقف والحشرِ

* * *

بعض الحكماء^(٢):

قيل لرجل: من يؤنسك؟ فضرب يده إلى كتبه وقال: هذه. فقيل: من
الناس؟ فقال: الذين فيها.

وقيل لبعضهم: أما تستوحش؟ فقال: يستوحش من معه الأنس كله؟
قيل: وما الأنس كله؟ قال: الكتب.

* * *

محمد بن علي النحوي^(٣):

قال: ودَّع رجل صديقاً له فقال له: استعن على وحشة الغربة بقراءة
الكتب، فإنها ألسن ناطقة وعيون راقية.

* * *

(١) ديوان العسكري ص ١٢٨.

(٢) تقييد العلم ص ١٢٥.

(٣) تقييد العلم ص ١٢٤.

بعض الحكماء^(١) :

قيل لبعضهم : لم لا تعاشر فلاناً الشريف؟ فقال : أنا أعاشر أباه وجده ؛ ومعاشرة أبيه وجده أحب إلي من معاشرته ، فقيل : إن أباه وجده قد ماتا ، فكيف تعاشرهما؟ فقال : بأخبارهما وآثارهما في الكتب التي إذا قرأتها ، قد عاشرتهما بها .

وقيل لحكيم من الحكماء : ألا تدعو قوماً يؤنسوك ، فقال : كم جهد ما يمكن مثلي أن يدعو من الناس ليستأنس بهم؟ فقالوا : الاثنين والثلاثة ؛ فقال : قد يؤنسي ألفوف وألوف وعشرات ألوف ، فقيل : أنى لك كل هؤلاء؟ وهل تسع دارك جمعهم؟ فقال : مجمعهم في الكتب المسطورة والأخبار المأثورة .



ملك الهند وولده^(٢) :

قال ملك الهند لولده : وكان له أربعون ولداً : يا بني ، أكثروا من النظر في الكتب ، وازدادوا في كل يوم حرفاً ، فإن ثلاثة ضروب من الناس لا يستوحشون في غربة ولا يقصر بهم عن مكرمة : الشجاع حيثما توجه ، فإن بالناس حاجة إلى شجاعته وبأسه ؛ والعالم ، فإن بالناس حاجة إلى علمه وفهمه ؛ والحلو اللسان الظاهر البيان ، فإن الكلمة تجوز له بحلاوة لسانه ولين كلامه .

فإن لم تعطوا في أنفسكم رباطة الجأش وجرأة الصدر ، فلا يفوتنكم

(١) تقييد العلم ص ١٢٦ .

(٢) العقد الفريد ٢/ ٢١٠ ، والحكمة الخالدة ص ١٨ ، وعين الأدب والسياسة ص ١٥٨ .

العلم وقراءة الكتب، فإنه أدب وعلم قد قيده لكم من مضى من قبلكم،
تزدادون به عقلاً.

* * *

رجل بطرسوس، والقشيري^(١):

قيل لرجل بطرسوس: ما هنا أحدٌ تستأنسُ إليه؟ قال: نعم.

قلت: فمن؟ فمدَّ يده إلى المصحفِ ووضعهُ في حجره، وقال: هذا.

وقال القشيري في «رسالته»، وفي معناه أنشدوا:

وَكُتِبَكَ حَوْلِي لَا تُفَارِقْ مُضْجَعِي وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

* * *

أحمد بن الحسين الصنعاني^(٢):

وكان أقام بالحصين بحضرة المتوكل أياماً حتى ملَّ وضجر فقال:

ما في الدنى من مؤنس غير اللطيف من الكتب

فكمصحف أنا بالحصين — وكل من فيه جُنُب

وفيه تشكُّ لطيف من جفاء الإخوان وذمُّ لهم لأن الجُنُب نجس حُكماً.

* * *

محمد بن معقل بن محمد الأزدي^(٣):

ليس شيء ألدَّ عندي ولا آ نسُّ لي من تأمل في كتابِ

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٤، والعزلة والانفراد ص ٧٦.

(٢) نسمة السحر ص ١ وص ٢١٥.

(٣) تقييد العلم ص ١٤٤.

من حبيب من بعد طول اجتناب
 فس وإن غاب آمن الاغتياب
 ثم مثوباً بلذة الآداب
 وحيبي من سائر الأحباب
 طواه عني ظريف احتجاب
 هي قصر لهم بلا بواب
 ظ جلس يديه للأصحاب
 آمناً أن يعينني بمعاب
 فس لها ريقة الذ شراب
 أخرس ناطق بغير خطاب
 س على رأسه أتى بالعُجاب
 غني بديلاً بهم وهم أترابي

* * *

هو أشهى من ارتشاف رضاب
 فأنا مع حضوره حاضر الآن
 أجتني من ثماره بارع العد
 ذاك أنسي من دون كل أنيس
 فإذا ما مللت من نظرف
 سلة تحتوي ضروباً كثيراً
 لا يعيد الحديث إن خيف من لف
 فإذا ما فارقتك كنت منه
 ولنا ثالث به يكمل الآن
 يغتدي دزها أصم سميع
 فإذا ما جرى بميدان أطرا
 فهم مألفي وأنسي لا أب

عتاب بن ورقا^(١) :

لأيقنوا أنه هو الطرب
 ولم يعرفوه ما نصبوا
 فالعلم لهوي وأنسي الكتب
 ما عجبوا من مقالتي العجب

* * *

لو علم الجاهلون ما الأدب
 لو يعلم العاشقون ما لذة العلم
 من كان يلهو وكان ذا أنس
 إن عجبوا من مقالتي فهم

(١) تقييد العلم ص ١٢٩ .

محمد بن أحمد بن رجاء^(١) :

هو من أهل شرق الأندلس؛ كان أديباً كاتباً محسناً ذا حظ من قرض الشعر يجيد في بعضه، كتب قديماً عن بعض رؤساء عصره ثم تخلى عن التلبس بالكتابة وآثر العزلة والانفراد، ومن قوله في ذلك :

ولما رأيتُ الخيرَ قد قلَّ أهلُه ولم يبقَ إلَّا ناقصٌ وخسيسُ
تفردتُ بالآدابِ حتَّى ألفتُها فما لي سوى أخبارهنَّ أنيسُ
وما الخيرُ إلَّا في التفردِ للفتى وما الشرُّ إلَّا صاحبٌ وجليسُ

* * *

محمد بن إبراهيم ابن الوزير^(٢) :

لامني الأهلُ والأحِبَّةُ طُرّاً في اغتِزالي مَجَالِسَ التَّدْرِيسِ
قلتُ لا تَعْذِلُوا فما ذاكَ مِنِّي رَغْبَةً عَن عُلُومِ تِلْكَ الدُّرُوسِ
هِيَ رِياضُ الجَنَانِ مِن غَيْرِ شَكٍّ وَسَنَاهَا يُزْرِي بَنُورِ الشُّمُوسِ
غَيْرَ أَنَّ الرِّياضَ تُؤْوِي الأفاعِي وَجِوَارُ الحَيَّاتِ غَيْرُ أَنيسِ
حَبَّذَا العِلْمُ لو أَمِنْتُ وصاحبُ تِ إِمَاماً في العُلُومِ كالقَامُوسِ
غَيْرَ أَني خَبَرْتُ كُلَّ جَليسٍ فَوَجَدْتُ الكِتَابَ خَيْرَ جَليسِ
وَرَضِيتُ المَرْوِيَّ عَن جَدِّي القا سِمِ مِن جَامِعِ عُلُومِ الرُّسُوسِ
فَدَعَوَنِي فَقَدْ رَضِيتُ كِتَابِي عِوَضاً عَن أَنسِ كُلِّ أَنيسِ

* * *

(١) الذيل والتكملة ٥/٢/٦٣٧.

(٢) العزلة والانفراد ص ٣٨.

عمر بن محمد بن عمر^(١) :

قال : قرأت في كتاب جدّي عمر بن صالح الأنصاري بخطه وأظنه له :

إِنْ مَلَّتِ النَّفْسُ مِنَ الْهَوَاجِسِ وَأَذْبَرَ الْقَلْبُ مِنَ الْوَسَاوِسِ
خُذْ لَهُمَا أَخْذَ أَدِيبٍ قَابِسٍ طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ مِنْ مُوَانِسِ

* * *

محمد بن مروان الدمشقي ، أو غيره^(٢) :

لَمِخْبَرَةٌ تَجَالِسُنِي نَهَاراً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْسِ الرَفِيقِ
وَرُزْمَةٌ كَاغِدٌ فِي الْبَيْتِ عِنْدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِذْلِ الدَّقِيقِ
وَلَطْمَةٌ عَالِمٌ فِي الْخَدِّ مِنْي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شُرْبِ الرَحِيقِ
وَأَثَرُ الْجَبْرِ فِي ثَوْبِي وَكَفِّي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَثَرِ الْخُلُوقِ

* * *

الأمير مجير الدين عمر ابن اللّمطي^(٣) :

أُعِيدُكَ إِنِّي بَيْنَ أَهْلِي وَجِيرْتِي وَحِيداً عَادَمَ وَدٌّ مُشْفِقِ
أَقْلَبُ طَرْفِي لَا أَرَى لِي مَوْئِلاً لَعَمْرُكَ فِيهِمْ غَيْرَ طَرْسٍ مَنَمَقِ
يَحْدِثُنِي عَنْ حُسْنِ أَحْوَالٍ مِنْ مَضَى وَيَخْبِرُنِي عَنْ قُبْحِ أَحْوَالٍ مِنْ بَقِي

* * *

(١) معجم السفر ص ٣٨٣ .

(٢) تاريخ دمشق ص ٥٥ / ٢٤٤ من إنشاد محمد بن مروان الدمشقي ، وجامع بيان

العلم ص ٥٨١ ، ٥٨٣ محمد بن هارون الدمشقي له أو لغيره ، ودرة الحجال

١٨٣ / ٢ من إنشاد محمد بن الكفيف بزيادة البيت الرابع .

(٣) الطالع السعيد ص ٤٥٢ .

أبو الحسن هاشم بن قاسم بن هاشم الحجازي^(١) :

قال : قرأت في كتاب قديم :

لَوْلَا التَّعَلُّلُ بِالْقِرْطَاسِ وَالْقَلَمِ مَا كَانَ لِي رَاحَةٌ فِي الْخَلْقِ مِنْ أَلَمِ
إِنَّ الْحَكِيمَ إِذَا مَا لَمْ يَجِدْ أَنْسَاءً فَلَيْسَ يُؤْنِسُهُ شَيْءٌ سِوَى الْحِكَمِ

* * *

علي بن عبد الله بن وزياش بن المبارك الوهراني^(٢) :

أَصْبَحْتُ - وَالْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ - مُنْفَرِدًا

عَنْ كُلِّ وَغْدٍ مِنَ الْأَقْوَامِ شَتَّامِ
مَا لِي أُنِيسُ سِوَى أَنِّي أَمْرُؤُ عَكَفْتُ نَفْسِي عَلَى الْكُتُبِ أَيَّامِي وَأَعْوَامِي
أُومِي إِلَيْهَا بِطَرْفِي، وَهِيَ تُخْبِرُنِي عَمَّنْ تَقَدَّمَ مِنْ سَامٍ وَمِنْ حَامِ

* * *

جورج صاند^(٣) :

الكتاب هو المؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمعين عند
الضراء، والسلاح على الأعداء.

* * *

شيشارون^(٤) :

الكتب غذاء الشباب وعزاء الشيخوخة. وهي في النعمة زينة، وفي

(١) معجم السفر ص ٤٢٣ .

(٢) تراجم مغربية ص ٥٦ .

(٣) كلمات من ذهب ص ٦٥٩ .

(٤) أنيس الجليس ص ١٧ ، وأقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٤٦ .

البؤس راحة . وهي في وحدة الليل أنس ، وفي السفر رفقة ، وفي عزلة الريف
صحبة .

* * *

جميل صدقي الزهاوي^(١) :

يا جهل أنت برغم العلم والأدب	ممتع بعلو الجاه والرتب
يا جهل يأتيك عفواً ما تحاوله	يا جهل من غير سعي منك أو تعب
لا شيء في الشرق أعلى منك منزلة	يا جهل حسبك هذا العز من حسب
العلم يعجز عن إدراك بغيته	وأنت تبلغ ما ترجوه من كذب
تأتي المحافل محفوفاً بتكرمة	والعلم يرجع مطروداً إلى العقب
من أين للعلم أردان مزخرفة	من أين للعلم أطواق من الذهب

*

قد أصبح الوطن المحبوب تربته	ألعوبة في يد الأحداث والثوب
الحلم ثبطه عن ثأر وائره	وما الحليم بمأمون على الغضب
ما أنقذ القوم نصحي من غوايتهم	ولا أفادهم شعري ولا خطبي
إذا أقمتهم فإن المال متزع	وإن رحلتهم فإن النار في الطلب

*

يا باذلاً لولاة السوء ما ملكت	يداه من كل موروث ومكتسب
من ذا يعولك والأيام محوجة	إذا بقيت بلا مال ولا نشب
لا يرحم القوم من بانت مفارقة	فبات في القوم مطوياً على سغب

*

(١) ديوان الزهاوي ص ٢٩٩ ، من قصيدة بعنوان «يا جهل» ، قالها قبل صدور الدستور
العثماني .

وصارخ قد دعا بالويل والحرب
يرد عن ذي حقوق كف مغتصب
فبعدك العيش لم يحسن ولم يطب

*

ما الجاه في دولة الأوغاد من إربي
تهدى لمنغمس في الإثم منتهب
وإنما المجد كل المجد في الأدب
في متن أبيض ماضي الغرب ذي شطب
فإن مكروبها أعدى من الجرب

*

محبوبة السهل والوديان والكثب
وأهلها بين نفاخ ومحتطب
إلا يثن من الأرزاء والنوب
لو ساعدتني الليالي سرت من وطني

يا عدل من لمروع بات مرتجفاً
من ذا إذا ما استجار الخائفون به
يا عدل هل أنت في يوم معاودنا

وقائل قد حرمت الجاه قلت له
والجاه ليس بألقاب مفخمة
بل إنما الجاه في مجد تطول به
وإنما العز مشروح خلاصته
لا تقربن كثيراً من حكومتهم

ألا رعى الله أوطاناً لنا امتهنت
قد أضرم الجور ناراً في مساكنها
واعصو صب الشرح حتى لا ترى أحداً
لو ساعدتني الليالي سرت من وطني

إلى مكان بعيد منه منشعب

فكل ذي رهب يأوي إلى هرب
ما إن بها من أنيس لي سوى كتبي

لا غرو إن فرّ حرّ خوف محنته
إنني على الرغم مني ساكن بلداً

أبو بكر الشيطان صاحب أبي بكر بن دُرَيْد^(١):

فيها نزاهة الحاظي وتزييني
مالت إليّ تعزيني وتسلييني

إذ اعتللتُ فكتب العلم تشفيني
إذا اشتكيت إليها الهم من حزن

(١) تقييد العلم ص ١٤٣ .

أيدمر بن عبد الله المحيوي^(١) :

حللت نفسي من عقال الهموم بعقدي الطرف بكتب العلوم
لما رأيت الحظ بي قاعداً قعدت أستاذيه حتى يقوم

* * *

الحسن بن عبد الله ابن أبي السرور^(٢) :

قال ابن أبي مخرمة : وجدت بخط بعض العلماء الفضلاء الموثوق
بهم : أن الفقيه الحسن بن عبد الله بن أبي السرور صاحب الحلبوبي ،
شرب يوماً شربة إسهال ثم تهيأ للخروج وقد أحس بحركة الباطن .

فأخبره عبده إن الأمير ورعية لَحَج وصلوا ، فخرج إليهم الفقيه ولم
يَدْخُلْهُم البيت لثلاً بطول وقوفهم ، من أجل ما يُحَسُّه من حركة الباطن ،
فوقف معهم واستغرق الكلام فيما جاءوا بصَّده حتى كادت الشمس تزول ،
ورفع الله منه تلك الحركة في الباطن ثم انصرفوا عنه . ودخل الفقيه فسمع
قائلاً يقول : هذا والله المستريح دخل بيته وترك الناس ، فوقع عند هذه
الكلمة موقعاً ، فأخذ القلم وكتب هذه الأبيات على وفق حاله :

حُصِدْتُ عَلَى حَالِي وَإِنِّي لَضَائِقُ بِمَا أَنَا مَحْسُودٌ بِهِ جَرِيحُ الصَّدْرِ
وَمَا أَنَا بِالرَّاضِي وَلَوْ مَلَكَتْ يَدِي مِمَّا لَكَ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
إِذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسِي عَلَى كُلِّ حَالَةٍ مُطَاوَعَةً لِلَّهِ فِي النَّهْيِ وَالْأَمْرِ
وَخِذْنِي كِتَابٌ لَا يَزَالُ مَضَاجِعِي مَنَازِلُهُ مَا بَيْنَ حَجْرِي إِلَى صَدْرِي
وَبَيْنَ بَنَانِي أَسْمَرُ اللَّوْنِ أَعْجَمُ فَصِيحٌ إِذَا لَمْظَتُهُ بَدَمُ الْجَبْرِ

(١) المقفى ٣٥٧/٢ .

(٢) تاريخ ثغر عدن ص ٥١ .

لَهُ فِي حَوَاشِي الْكُتُبِ مَا شِئْتُ مِنْ هَوَى
وَمَا شِئْتُ مِنْ عِلْمٍ وَمَا شِئْتُ مِنْ سِحْرِ

* * *

شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكنعاني
العسقلاني^(١):

قال عنه شهاب الدين البوتيجي الكتبي: كان جمّاعة للكتب، خلف
ثمانية عشر خزانة كتباً نفائس أدبية، وكانت زوجته تعرف ثمن كل كتاب،
وبقيت تباع منها إلى أن خرجت من القاهرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة.
وكان إذا لمس الكتاب وجسّه قال: هذا الكتاب الفلاني وهو لي ملكته في
الوقت الفلاني. وكان إذا أراد أيّ مجلّد كان قام إلى خزانة وتناوله منها كأنه
الآن وضعه هناك بيده.

وله وقد ليم على الاستكثار من شراء الكتب:

وما شغفي بالكتب إلّا لأنّها تسامرنني من غير غيٍّ ولا ضجر
وأحسن من ذا أنّها في صحابتي تجنّب تكليفي وتقنع بالنظر

* * *

أبو مروان عبد الملك بن زهر الطّبري^(٢):

أنشد ابن أبي مروان الطّبري لأبيه عبد الملك بن زيادة الله، يذكر كتاب
العين، وبغلة له سماها النعمامة:

حَسْبِي كِتَابُ الْعَيْنِ عَلِقَ مِصْنَتُهُ وَمِنَ النَّعْمَةِ لَا أَرِيدُ بَدِيلًا

(١) تاريخ حوادث الزمان ١/٤٢٨، والوافي ١٦/٧٨، ومطالع البدور ٢/١٧٣.

(٢) المكتبة الأندلسية ٢/٥٢٩.

هَٰذِي تَقَرَّبْ كُلَّ بَعْدٍ شَاسِعٍ وَالْعَيْنُ يُهْدِي لِلْعُقُولِ عُقُولًا

* * *

ابن قلاقس^(١) :

أُنشِدْ يَصِفُ كِتَابًا مُجَلِّدًا وَقَدْ سئِلَ فِي ذَلِكَ ارْتِجَالًا :
وَمَسَامِرٍ تُسْلِيكَ عَنْ سِنَةِ الْكُرَى أَلْفَاظُهُ فَالْلَيْلُ مِنْهُ نَهَارُ
تُثْنِي الْمَسَامِعَ عَنْ سَمَاعِ حَدِيثِهِ صُمًّا فَتَسْمَعُ ذَلِكَ الْأَبْصَارُ
وَيَهْزُ أَغْصَانُ الْقُدُودِ كَأَنَّهُ كَأْسٌ عَلَيْهَا لِلْمُدَامِ تُدَارُ
إِنْ أَشْكَلْتُ يَوْمًا عَلَيْكَ قَضِيَّةً فَاسْأَلْهُ تَحْظُ فَعِنْدَهُ الْأَخْبَارُ
لَا شَيْءَ أَنْصَفُ مِنْهُ تُظْهِرُ سِرَّهُ أَبْدَأُ وَتَخْفَى عَنْدَهُ الْأَسْرَارُ

* * *

صاحب منتخب تاريخ ابن خلكان^(٢) :

نقل عنه أنه قال — بعدما ذكر كيفية تلخيصه لعباراته الرائقة — : ليكون ذلك كالمسلي في أسفاري، وكالمحدث إذا مل سماري، وكالمذكر بي في تنزهاتي، وكالواعظ لي في خلواتي بالنظر إلى ما جرى للقرون السالفات، وكالقهوة أديرها على سقاتي، وأستغني بها عن باسقاتي، والله دري إذ قلت في ذلك :

لله درّ سمير يأتٍ يُنشِدُنِي شِعَرَ الْأَوَائِلِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ
بِلا لِسَانٍ وَلَا آذَانَ تَسْمَعُهُ حَتَّى جَعَلْتُ مَقَامَ الْأُذُنِ لِلْبَصَرِ

* * *

(١) ديوان ابن قلاقس ص ٤٣٨ .

(٢) روضات الجنات ١/ ١٣ .

عبد الله الطيّب^(١) :

وَرُخْتُ أَطْلُبُ فِي الْمَاضِينَ تَسْلِيَةً تُرِيحُ سَرْحَ مُنَى أُغْزِبْنَ إِعْزَابَا
أَتَلُو سَبِيلَهُمْ فِي كُلِّ مُسْتَطَرٍّ لَا يَمْلِكُ الْمَرْءُ عَنْهُ الطَّرْفَ إِعْجَابَا
كَأَنَّ فِيهِ جَنَانًا بَيْنَهَا سُعْدٌ يَسْتَنُّ فِيهَا رَحِيقَ الْخُلْدِ مَنَسَابَا

* * *

شاعر^(٢) :

لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا تَسْرِبُهُ إِلَّا الدَّفَاتِرَ فِيهَا الشَّعْرَ وَالسَّمَرُ
مَاتَ الَّذِينَ لَهُمْ فَضْلٌ وَمَكْرَمَةٌ وَفِي الدَّفَاتِرِ مِنْ إِحْسَانِهِمْ أَثَرُ

* * *

توماس أ. كيمبس^(٣) :

لَقَدْ نَشَدْتَ الرَّاحَةَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَمْ أَجِدْهَا إِلَّا فِي الْجُلُوسِ بَعِيداً فِي
رُكْنٍ مَعَ كِتَابٍ صَغِيرٍ .

* * *

أنطوني ترولوب^(٤) :

عَادَةُ الْمَطَالَعَةِ هِيَ الْمَتْعَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي لَا زَيْفَ فِيهَا . إِنَّهَا تَدُومُ عِنْدَمَا
تَتَلَاشَى كُلَّ الْمَتَعِ الْآخَرَى .

* * *

(١) أصداء النيل ص ١٨٧ .

(٢) عين الأدب والسياسة ص ٢٤٨ ، والأول في الغيث المسجم ١٢/١ .

(٣) أفلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٥٢ .

(٤) من حصاد الفكر العالمي ص ٦٦ .

جيمس شيزلي^(١) :

لَمْ أَعْرِفْ فِي حَيَاتِي سَاعَاتٍ أَخْلَى وَأَسْعَدَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي قَضَيْتُهَا بَيْنَ
كُتُبِي .

* * *

جوس مارتني^(٢) :

الكتب تضمّد الجراح التي تحفرها السيوف .

* * *

الشاعر ملتون^(٣) :

كنت أجدب إلى المطالعة حتى إن تسليّة أخرى لم تكن تجد لدي
ترحيباً أفضل .

* * *

مونتسكيو^(٤) :

حُبُّ الْمُطَالَعَةِ هُوَ اسْتِبْدَالُ سَاعَاتِ السَّامِ بِسَاعَاتِ مِنَ الْمُتَنَعَةِ .

* * *

مونتسكيو^(٥) :

ما أصابني ألم أو نزلت بي ضائقة إلا خففت من هذا وفرجت من هذه
بقراءة ساعة في كتاب طيّب .

* * *

(١) كنوز الحكمة ص ٤٦٠ .

(٢) أنيس الجليس ص ١٨ .

(٣) من حصاد الفكر العالمي ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) من حصاد الفكر العالمي ص ٦٥ ، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥١٠ .

(٥) أنيس الجليس ص ١٧ .

سير آرثر كيت^(١) :

عندما أكون في ضائقة من الحياة، أنا أنشد الراحة في الكتب، وأفتش
عن لمحة للبشرية على أحسن تقدير.

* * *

محمد بن أبي محمد الزبيدي^(٢) :

نعمَ المحدثُ والنديمُ كتابُ تلهو به إن ملكَ الأحبابُ
لا مفشياً سراً إذا استودعتهُ ولَدَيْهِ ما تُحيى به الألبابُ
لا عيبَ فيه غير أن ندامه لا أكلَ فيه وليس ثمَّ شرابُ

* * *

جعفر بن محمد الخُلدي^(٣) :

نعم النديم إذا خلوتَ كتاب إن خانك الندماء والأصحاب
فأبحه سرك قد أمنت لسانه أو أن يغيبك عنده مغتاب
وإذا هفوت أمنت غرب لسانه إن العتاب من النديم عذاب

* * *

عبد الرحمن العطوي^(٤) :

أخطب لكأسك ندماناً تُسرُّ به أو لا فنادم عليها حكمةَ الكتبِ

(١) أفلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٥٤ .

(٢) شعر الزبيديين ص ٩٦ ، ونور القبس ص ٨٩ ، وبدون نسبة ، وبرواية عجز البيت الثاني «وَنُفَاد مِنْهُ حِكْمَةٌ وَصَوَابٌ» في العقد الفريد ٢/٢١٠ و ٤/٢٠١ ، والمحاسن والمساوىء ص ١٦ ، والجلس الصالح ١/١٦٣ ، وتقييد العلم ص ١٢٠ ، وجامع بيان العلم ص ٥٨٢ ، والحماسة الشجرية ٢/٨٠٠ .

(٣) تقييد العلم ص ١٢١ .

(٤) نهاية الأرب ٤/١٢٤ و ١٥١ ، والبيت الأول في المختار من قطب السرور =

أخطبه حرّاً كريماً إذا محافظة ترى مودّته من أقرب النسب

* * *

شاعر^(١):

إذا جفاني مألوف ومصطحب نادمت كتبي فنادمتُ الألى ذهبوا

* * *

الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الغفور^(٢):

تَرَكْتُ التَّصَابِي لِلصَّوَابِ وَأَهْلِهِ وَبَيْضُ الطُّلَى لِلْبَيْضِ، وَالسُّمُرُ لِلسُّمْرِ
مِدَادِي مُدَامِي؛ وَالْكُؤُوسُ مَحَابِرِي وَنَدْمَايَ أَقْلَامِي وَمَنْقَلَتِي سَفْرِي
وَمُسْمِعَتِي وَزَقَاءُ ضَنْتٍ بِحُسْنِهَا فَأَسْدَلْتُ الْأَسْتَارَ مِنْ وَرَقٍ خُضِرِ

* * *

من كتاب بستان الحكماء^(٣):

قيل: إن المودة أوكد الأسباب، والعلم أشرف الأنساب، وحسن
الخلق خير قرين، والكتاب نعم النديم.

* * *

أبو محمد عبد الحميد بن عبد الرحيم التوزي^(٤):

قال: الكتاب نديم، عهد وفائه قديم.

= ص ٣٥٧، ومحاضرات الأدباء ١/٦٩٧، وقطب السرور ص ٢٩٧، ودون نسبة
في فصول التماثيل ص ٣٠.

(١) فصول التماثيل ص ٣١.

(٢) فلائد العقيان ١/٤٨٤، ومطمح الأنفس ص ٢٢٠، وخريدة القصر (المغرب)

٣/٤٣٧، والوافي ٣/٢٦٦، ونفح الطيب ٣/٥٥٢.

(٣) فصول التماثيل ص ٣٠.

(٤) تقييد العلم ص ١٢٥.

الكتاب منادم، ليس من نادمه بنادم.

الكتاب حميم، خيره عميم.

الكتاب أخ غير خوآن، فتفرد به عن الإخوان.

الكتاب سمير، سليم الظاهر والضمير.

* * *

بعض الرؤساء^(١):

تأخر عن بعض الرؤساء نديم له فقال: يا غلام! عليّ بالنديم الذي لا يتغير ولا يتغيب، قال: من هو؟ قال: الكتاب.

وقيل لآخر: ألا تنادم فلاناً؟ فقال: قد نادمت من لا يتكلف لي، ولا أتكلف له، قيل: ومن هو؟ قال: الكتاب.

* * *

أبو زيد الدبوسي^(٢):

بزهـر النّدامى وعز الصّحاب	إذا ما خلا الناس في دورهم
وتّم السّرور بخود كعاب	وأكل الطّعام وشرب المّدام
فكان الأنيس لقلبي كتابي	خلوت وصحبى كتب العلوم
فطوفوا عليّ بذاك الشّراب	ودرس العلوم شراب العقول
سوى العلم جمعه للذهاب	ومن كان في دهره جامعاً

* * *

(١) تقييد العلم ص ١٢٥.

(٢) مطالع البدور ١٧٢/٢، وفي سراج الملوك ص ٥٧٩ هي لبعض الأعاجم واختلاف في الألفاظ.

عبدُ الله بن علي الهُتاري^(١) :

أنا في عيشٍ هنيٍّ خاملٌ قط لا أذكر فيمن قد ذُكر
ونديمي من كتابي حاضرٌ أتمشى منه في روضٍ مُطر
قط لا أسال عن هذا وذا إذ نهى هذا وهذا قد أمر
فالتزم من مذهبي سمتاً به ركن لذاتي جميعاً قد عُمر
وأطرح صفقة مغبونٍ له متجرٌ فيه له الويل حسر
قد بذلت النصح فاقبله فمن قبل النصح فبالخير ظفر

* * *

أبو محمد الجابري^(٢) :

نعم المسامر والنديم الدفتر إن ضاق صدرك أو علاك تفكر
يلهي ويونس، وهو خل، كلما أبدي بحضرته فغيب مُضمر

* * *

أنشد أبو الحسن علي بن هارون بن يحيى النديم،
رحمه الله^(٣) :

إذا مَا خَلَوْتُ مِنَ الْمُؤَنِّسِينَ جَعَلْتُ الْمُحَدَّثَ لِي دَفْتَرِي
فَلَمْ أَخْلُ مِنْ شَاعِرٍ مُحْسِنٍ وَمِنْ مُضْحِكٍ طَيِّبٍ مُنْدِرٍ
وَمِنْ حَكَمٍ بَيْنَ أَثْنَائِهَا فَوَائِدُ لِلنَّاطِرِ الْمُفَكِّرِ

(١) طيب السمر ص ٣٦٨، ونشر العرف ١٢٨/٢ .

(٢) تقييد العلم ص ١٢٩ .

(٣) المحاسن والمساوىء ص ١٦، وبلا عزو في تقييد العلم ص ١٢٨، وسراج

الملوك ص ٥٧٩، وغرر الخصائص ص ٤٦٦، ومعجم الحكم والأمثال
ص ٤٣٠ .

وَأَوْدَعْتُهُ السَّرَّ لَمْ يُظْهِرِ
لَمَّا اخْتَشَيْتُ وَلَمْ أَخْصِرِ
وَلَوْ فِي الْخَلِيفَةِ لَمْ أَخْذِرِ
لِنَدْمَانِهِ طَيْبَ الْمَخْضِرِ
عَلَيْهِ نَدِيمًا إِلَى الْمَخْشِرِ

وَأَنْ ضَاقَ صَدْرِي بِأَسْرَارِهِ
وَأَنْ صَرَخَ الشَّعْرُ بِاسْمِ الْحَبِيبِ
وَأَنْ عُذْتُ مِنْ ضُجْرَةٍ بِالْهَجَاءِ
فَتَادَيْتُ مِنْهُ كَرِيمَ الْمَغِيبِ
فَلَسْتُ أَرَى مُؤَثِّرًا مَا حَيْثُ

* * *

قال أبو هفان^(١):

أَنِسْتُ بِمَا يَجْمَعُ الدَّفْتَرُ
عَلَى الْكَأْسِ وَالْكَأْسُ لَا تَحْضُرُ
لَهَا الْمَوْرِدُ الْخِرْقُ وَالْمَصْدَرُ
كَشْمَسِ الضُّحَى طَرْفُهُ أَخَوْرُ
وَعِنْدَهُمُ الْوَرْدُ وَالْعَبْهَرُ
فَتِلْكَ الصَّنَاعَةُ وَالْمَتَجَرُّ

إِذَا أَنْسَ النَّاسَ مَا يَجْمَعُونَ
لَهُ وَطَرِي وَلَهُ لَذَتِي
تَدَوَّرُ عَلَى الشَّرْبِ مَحْمُودَةٌ
يُغْنِيهِمْ سَاحِرُ الْمُقْلَتَيْنِ
وَرِيحَانُهُمْ طِيبُ أَخْلَاقِهِمْ
عَلَى أَنْ هَمَّتْنَا فِي الْحُرُوبِ

قال: لما قلتها عرضتها على ابن دِهقان فقال: إذا سمع بها الخليفة
استغنى عن الندماء.

* * *

شاعر^(٢):

فَمَا لِي فِي الْبَرِيَّةِ مِنْ أَنْيَسٍ
وَأَنْسِي دَفْتَرِي بِدَلِ الْجَلِيسِ
إِذَا سَافَرْتُ، أَوْ بَغْلٍ كَبُوسِ

أَنِسْتُ إِلَى التَّفَرَّدِ طَوْلَ عَمْرِي
جَعَلْتَ مُحَادَثِي وَنَدِيمَ نَفْسِي
قَدْ اسْتَغْنَيْتُ عَنْ فَرَسٍ بِرَجْلِي

(١) المحاسن والمساوىء ص ١٦.

(٢) تقييد العلم ص ١٤٤، وسراج الملوك ص ٥٨٠، والمخلاة ص ١٠١.

بطرح الهم في أمر العروس
وهنياني فمي أبداً وكيسي
وأهلي كل ذي عقل نفيس

ولي عرسٌ جديد كل يوم
فبطني سُفرتي والخرج جسمي
وبيتي حين يُدركني مسائي

* * *

عبد الصمد بن علي الطبري^(١):

حُلَل الغنى إلف القَطَا أَفْخُوصَا
نحو اللثام ولا زَجَرْتُ قَلُوصَا
من نَسَجَ دِنِّي جُبَّةً وَقَمِيصَا
إِلَّا عَلَى غَرِّ الْعُلُومِ حَرِيصَا
سَمَعِي فُصُولًا تَبْتَغِي وَفُصُوصَا
جَهَم اللَّقَاءِ وَلَا عَلَيَّ خَرُوصَا

وَلَقَدْ أَلِفْتُ فَنَاءَ بَيْتِي لَا بَسَا
لَمْ أَذَرِ طَمَعًا وَلَا أَمْدُودًا
أَجْتَابُ إِنْ خَصَرْتُ أَنَا مَلُ رَاحَتِي
وَإِذَا أَرَدْتُ مَنَادِمًا لَمْ تَلْفَنِي
فَتَرَى الْكِتَابَ مُجَالِسًا لِي مُودَعًا
لَا مَفْشِيًا سَرِّي وَلَا مَتَمَرًا

أبو النصر الهزيمي المعافى بن هزيم الأبوردي^(٢):

لَمَّا رَأَيْتُ الزَّمَانَ نَكْسًا وليس في الصبحة انتفاع

(١) يتيمة الدهر ١٩١/٥، وما عدا البيت الأخير في خاص الخاص ص ٢١٧، وتقييد العلم ص ١٤٤.

(٢) الأبيات للهزيمي في العزلة ص ٩١، ويتيمة الدهر ١٥١/٤، وخاص الخاص ص ١٨٠، والإعجاز والإيجاز ص ٤٢٩، ولباب الآداب ص ٢١٠، وحماسة الظرفاء ٢٩٨/١، والذخيرة ٧١٣/٤، وأنوار الربيع ١٩١/٤، وعزاها لمحمد الفارابي عيون الأنباء ص ٦٠٧، والوافي ١١٣/١، ومطالع البدور ١٨٤/١ و ١٧٣/٢، وعزاها لعبد الله بن محمد الزوزني في الوافي ٥٣٢/١٧، وفوات الوفيات ٢٣٠/٢، وموسوعة الكنايات ٩٠/٢، ودون نسبة في الذخيرة ٥٦٨/٨، والمنازل والديار ص ٢٥١، والمقاصد الحسنة ص ٣٩١، وكشف الخفاء ٥٥٢/١، والبيت الأخير انفرد به خاص الخاص ص ١٨٠.

وكل رأس به ضداً
وكل حُرٌّ به اتضاعاً
به عن الذلة امتناعاً
لها على راحتى شعاعاً
ومن قرايرها سماعاً
قد أقفرت منهم البقاع
هذا يغوثٌ وذا سِواعٌ

كل رئيس به مَلاطٌ
وكل نذلٍ به ارتفاعٌ
لزمْتُ بيتي وصنْتُ عرضاً
أشربُ مما ادخرتُ راحاً
لي من قواريرها ندامى
وأجتنى من ثمارِ قومٍ
بِشرٍّ وكعبٍ أمامَ عيني

* * *

ابن المعتز^(١) :

نادمت كتبى فشاهدت الألى سلفوا
نعم النديمان صفوا الراح والصحف
والكتب يؤمن منها الزهو والصلف

إذا جفاني نذمان ومؤتلف
وكانت الراح أيضاً لي منادمة
الراح تطرب نفسي حين أشربها

* * *

أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي^(٢) :

من كروبي سوى العليم السميع
ويدي خادمي وحلمي ضجيعي
ودواتي غيشي ودرجي ربيعي
في القوافي لقلبي المصدوع
وفعالٍ أذلّ من يربوع

ليس لي منجدٌ على ما أفاصي
دفترى مؤنسي وفكري سميري
ولساني سبقي وبطشي قريضي
أتعاطى شجاعةً أدّعيتها
بمقالٍ أعزّ من ليث غاب

(١) تقييد العلم ص ١٢٤ .

(٢) يتيمة الدهر ٣٤٦/٢ ، والأبيات ٢ و ٣ في معاهد التنصيص ٧٤/٢ من قصيدة في الاستتار .

كلما هَرَّ في جِواري هَرٌّ كاد يقضي إلى فؤادي المروع
وإذا اجتاز في السطوح فمن قبل قبوع الجرذان منه قبوعي

* * *

أبو محمد الخازن^(١):

فدفتري رَوْضتي ومجبرتي غديرٌ علمي وصارمي قَلَمي
وراحتي في قَرار صَوْمَعَتِي تُعلمني كيف مَوْقعُ القسم

* * *

كثير العلياوي^(٢):

لَيْسَ المُدَامَةُ مما أَسْتريحُ لهُ ولا مُجَاوَبَةُ الأوتار والنَّغم
وإنما لَدَّتِي كُتِبَ أطلعها وصارمي أبداً في نُصْرَتِي قَلَمي

* * *

محمد بن عمر العرضي^(٣):

دواتي كاسي والكتاب حديقتي وساقِي مدام الفكر قام على قَدَم
صرير يراعي مطربي فكأنما سطورِي أوتار ومضاربها القَلَم

* * *

محمد بن علي عبد الله الصوري^(٤):

قيمة الكتب أَجَلُ القِيم عند من يعرف رَضَعَ الكَلِم

(١) محاضرات الأدباء ١/١١٧، ومعاهد التنصيص ٢/٧٤.

(٢) المغرب في حلي المغرب ١/٣٩٩، واختصار القدح ص ١٨٩، ونفع الطيب

٣/٣٢٥ ونسبتها لأحمد بن رضي المالقي.

(٣) خلاص الأثر ٤/١٠٢، وأعلام النبلاء ٦/٣١٤.

(٤) تقييد العلم ص ١٣١، وتاريخ دمشق ٥٤/٣٧٤.

وغيرب من ضروب الحكم
حاكه كل أديب فهم
زهر الروض عقيب الديم
تركت أفصحنا كالأعجم
ليس بالعي ولا بالمفحم
حكماً فيها لقاح الفهم
هو من جلاسه في مأم
في سويداه ولم يستكتم
مجلساً لم تلفه بالسئم
ندم ما شئت كل الندم

* * *

جمعت من كل فن حسن
بين منظوم بديع نظمه
ثم يتلو النظم نثر مشبه
فإذا ما نطقت في مجلس
فلنا منها جليس ممتع
ناظم طوراً وطوراً نائر
نحن منه في سرور لا كمن
يكتنم السر إذا بحنا به
وإذا الندمان يوماً سئموا
فاحفظ الكتب ففي بذلكها

أبو عبد الله بن عبد الرحمن^(١):

ومنه سمير نفسي والنديم
ويسليني إذا عرت الهموم
كرام الناس إذا فقد الكريم
فلي فيه طريق مستقيم

* * *

كتابي فيه بستان وراحي
يسألني وكل الناس حزب
ويخبي لي تصفح صفحتيه
إذا اعوج علي طريق أمري

صفي الدين الحلّي^(٢):

يقرُّ بها قلبي ويصفو بها ذهني
فأخرج من فنٍّ وأدخل في فنٍّ

وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة
ويأخذني من سورة الفكر نشوة

(١) محاضرة الأبرار ١٠/١.

(٢) ديوان صفي الدين ص ٦٦٧، وبلا عزو في المخلاة ص ٥٩.

ويفهم ما قد قال عقلي تصوّري
وأسمع من نجوى الدفاتر طرفةً
ينادمني قومٌ لديّ حديثهم
فتقلّي عن أذني وسمعي بها منّي
أزِيلُ بها همي وأجلو بها حزني
فما غاب منهم غير شخصهم عني

* * *

القاضي أبو الفتح نصر بن سيار الهروي (١):

ما ترى الدهرَ صانعاً بيّ إن لم
قد رَضِينَا مِنْ قُوتِنَا بِقِفَارِ
سَقْيَانِي كَأْساً وَهَاتَا كِتَاباً
أَسْتَكِنُ لِلثَّامِ فِي ذَا الزَّمَانِ
وَيُشْرِبُ عَلَيَّ كِتَابَ الْأَغَانِي
أَسْأَلُ بِهِ عَنِ النَّذْمَانِ

* * *

أبو عبد الله محمد بن حامد (٢):

غدا دفترِي أنساً وخطِّي روضةً
ولا شدو لي إلّا التحفّظ قارئاً
تجشّم أوصافاً حساناً لعبده
فلولا امتثال الأمر لا زال عالياً
على أنّي إن سرْتُ أو كنت قاطناً
رسائله لي كالطعام وشعره
فلن ظلتِ الآمال تشكر ظلّه
كأنّ إله الخلق قال لجوده
وحبري مداماً وارتهالي ساقياً
ولا سكر إلّا حين أنشد واعياً
فطوّقه عقداً من العزّ حاليّاً
لطار مكان النظم رجلاً حافياً
فغاية جهدي أن أطوّل داعياً
كماء زلالٍ حين أصبح صادياً
فإنّ لسان المال قد ظلّ شاكياً
أفضّ كلّ ما تحويه وارزق عبادياً

* * *

(١) طرائف الطرف ص ٩٢.

(٢) يتيمة الدهر ٤/٢٨٧، والمحمدون من الشعراء ص ٣٢١ من قصيدة في
الصاحب بن عباد.

الشيخ عبد الغني النابلسي^(١) :

تستروا بالثياب	ما الناس إلا ذئاب
للعلم والآداب	فخلهم وتخلى
محفل مستطاب	واجعل نديمك في كل
تهدي به للصواب	كتاب علم نفيس
رأ ولا مضيع خطاب	لا مفشياً لك س
عشت خلة الأحياب	واترك التسلم ما

* * *

عبد القادر شنون^(٢) :

فكم خفت فيه هموم ما بي	كتابي لا أروم سوى كتابي
مخائل حكمة في كل باب	أجيل الطرف فيه فيجتلي لي
أداوي في مباحثه مصابي	إذا غمرت قناة الدهر قلبي
ففيه قد هديت إلى صوابي	لأن أخطأت في فكري ببحث
يسليني بأقوال عذاب	وإن شاهدت من قومي جفاء
	ثم يقول:

بأبلغ ما تريد من الخطاب	تراه أخرساً وتراه يحكي
وإن حايت غيرك لا يحابي	كتم إن بثت إليه سرّاً
فيغنيني عن الخود الكعاب	فكم نادمته بالليل وحدي
فعفت لطيبها طيب الشراب	وكم فيه سكرت من المعاني
حواه لا يؤول إلى ذهاب	تكفل بالعلوم فكل علم

(١) نفحة اليمن ص ٢٤٣ .

(٢) من شعرائنا المنسيين ص ٣٢ .

خبيراً بالدقيق من الحساب
ومن عاداه راح إلى عذاب

فما حاسبته إلا تراه
فمن والاه نال هدى وفضلاً

* * *

عبد الحميد الأزري^(١):

رِ فلا يَمِينُ ولا يُحَابِي
وعايشُونِي فِي لُبَابِي
لَمْ يُخَفِ عَنْكُمْ كُلَّ عَابٍ
كَالدُّرِّ مِنْ سِرِّ الْعُبَابِ
لَوْ كَانَ دَأْبُكُمْ كَدَابِي
تُوحِي لَنَا فَصْلَ الْخِطَابِ
يَدْعُو الْعُقُولَ إِلَى الصَّوَابِ

لَيْتَ ابْنَ آدَمَ كَالثَّمَا
ثَمَرٌ يَقُولُ: دَعُوا الْقُشُورَ
هُوَ بَاطِنِي وَسِرِّي
سِرُّ الثَّمَارِ لُبَابُهَا
كَثَّمْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ
فَكَأَنَّ السُّنَّ حَالِهَا
يَا لِلْعَجَائِبِ صَامِتٌ

*

ثَنِّ وَالْمَجَامِعِ وَالْقِبَابِ
مِنْ الشُّهُولِ إِلَى الْهَضَابِ
بِهَا وَأَمَالِ الشُّبَابِ
بِهَا خَائِباً صِفَرَ الْوِطَابِ
فِيهِ مِنْ قَبْلِ اغْتِرَابِي

طَفْتُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَدَا
وَلَهَا تَجَشَّمْتُ الْمَسِيرَ
وَدَرَسْتُ آلامَ الشُّيُوخِ
وَكَمَا رَحَلْتُ قَفَلْتُ مِنْ
مِنْ كُلِّ مَا عَلَلْتُ نَفْسِي

*

وَالنَّاسُ مِنْ هَذَا الثَّرَابِ
مُسَوِّقَةٌ بِنِظَامِ غَابِ؟
جَرَّدَتْهَا غَيْرُ الثِّيَابِ

مَا فِي الثَّرَابِ فَضِيلَةٌ
أَيُّنَ الْفَضِيلَةِ وَالْحَيَاةِ
وَهِيَ أَكُلُّ لَمْ يَبْقَ لَوْ

(١) ديوان الأزري ص ٤٢ ، قصيدة بعنوان «واحة الإيمان» .

وَجَوَارِحُ مِنَ الْبُشَى
حَكْمُ الْفَرِيضَةِ وَاحِدٌ
بَلْ رَبُّمَا فَاقُوا الذُّنَابَ

*

طَوَيْتُ عَلَى ظَفَرِ وَنَابٍ
فِي وَلَدِ آدَمَ وَالذُّنَابِ
بِمَا جَنُّوا خَلْفَ الْحِجَابِ

أُمْعَلِّلِي بِوَجُودِهَا
دَعْ طُوفَ حَلِيمِكَ لَوْ وَهَى
كَمْ مِنْ سُؤَالٍ فِي الْحَيَاةِ

*

تَعْلِيلَ صَادٍ فِي سَرَابٍ
وَتَعَبْتُ مِنْ نَفْخِ الْجِرَابِ
رَجَعْتُ عَنْهُ بِلا جَوَابِ

فَلِذَاكَ قُلْتُ لِعُزْلَتِي
يَا وَاحِدَةَ الْإِيمَانِ فِي
أَجْدُ السَّكِينَةِ فِيكَ تَغَى
وَأَحْسُ فِيكَ بِرَاحَةِ
يَحُلُّو لِنَفْسِي الصَّبْرُ فِيهِ
أَنْسَى بِكَ الدُّنْيَا وَمَا
وَكَأَنَّ الْوَيْلَةَ السَّلَامَ
وَإِذَا سَأَلْتُ بِكَ الْإِلَهَ
حَسْبِي يَرَاعِي سَاقِيَا
وَأَنَا الَّذِي لَمْ يَبْقَ لِي

فَرَحاً بِهَا بَعْدَ الْإِيَابِ :
صَحْرَاءِ شَكٍّ وَارْتِيَابِ
مُرْنِي فَيَتَعَدُّ اضْطِرَابِي
كُبْرَى إِذَا أَوْصَدْتُ بِأَبِي
كَ عَلَى تَجَرُّعِ كُلِّ صَابِ
عَانَيْتُ فِيهَا مِنْ مُصَابِ
يَحْطُنَ بِي وَسَطَ الْحِرَابِ
شَعَرْتُ فِي رَدِّ الْجَوَابِ
وَمَدَادُ مِحْبَرَتِي شَرَابِي
إِلَّا مَنَادِمُهُ الْكِتَابِ

* * *

محمود بن حسين كشاجم :

قال يصف محبرة وأقلاماً ومقلمة وسكيناً^(١) :

حَسْبِي مِنَ اللَّهْوِ وَالْآلِ الطَّرَبِ وَمِنْ ثَرَاءٍ وَعَتَادٍ وَنَشَبِ

(١) ديوان كشاجم ص ١٣ ، وزهر الآداب ٥٦٣ / ٢ .

وَهَمَّةٌ طَامِحَةٌ إِلَى الرُّتَبِ
مَعْمُورَةٌ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ يُطْلَبُ
شِعْرًا وَأَخْبَارًا وَنَحْوًا يُفْتَضَّبُ
وَفِقْرًا كَالْوَعْدِ فِي قَلْبِ الْمُحِبِّ
نَعَمٌ وَحَسْبِي مِنْ دُويِّ تُنْتَحَبِ
مِخْبَرَةٌ يُزْهِى بِهَا الْحَبْرُ الْأَلْبُ
مِثْلُ شُنُوفِ الْخُرْدِ الْبَيْضِ الْعُرْبِ
أَسْوَدُ يَجْرِي بِمَعَانِ كَالشُّهْبِ
نِيطَتْ إِلَى يُسْرِى يَدَيَّ بِسَبَبِ
تَصَحُّبِهَا وَالْأَخَوَاتُ تُضْطَحَبِ
لَمْ يَغْلُهَا رِيشٌ وَلَمْ تُكْسَ عَقَبُ
تَرْمِي بِهَا يُمْنَايَ أَغْرَاضَ الْكُتُبِ
وَمُدِيَّةٌ كَالْعَضْبِ مَا مَسَّ قَضَبُ
تَسْطُو بِهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَتَثْبُ
فَتِلْكَ آلاَتِي وَآلاَتِي تُحِبُّ
لَا سِيَّمَا مَا كَانَ مِنْهَا لِلْأَدَبِ

وَمِنْ مُدَامٍ وَمَثَانٍ تَضْطَحِبِ
مَجَالِسُ مَصُونَةٍ عَنِ الرَّيْبِ
تَكَادُ مِنْ حَرِّ الْحَدِيثِ تَلْتَهَبِ
وَلُغَةً تَجْمَعُ أَلْفَاظَ الْعَرَبِ
أَوْ كَتَاتِي الرُّزْقِ مِنْ غَيْرِ طَلَبِ
مُحَلِّيَّاتٍ بِلُجَيْنٍ وَذَهَبِ
مَثْقُوبَةٍ أَذَانُهَا وَفِي الثُّقْبِ
تَضْمَنُ قَطْرًا فِيهِ لِلْكَتْبِ عُشْبُ
لَا تَنْضَبُ الْحِكْمَةُ إِلَّا إِنْ نَضَبِ
كَالْقُرْطِ فِي الْجِنْدِ تَدَلَّى وَاضْطَرَبِ
كِتَابَةٌ تُودَعُ نَبْلًا مِنْ قَصَبِ
لَا تَضْحَكُ الْأُورَاقُ حَتَّى تَنْتَحِبِ
رَمِيًا مَتَى أَقْصِدُ بِهِ السَّمْتَ أَصِيبُ
غَضَبِي عَلَى الْأَقْلَامِ مِنْ غَيْرِ سَبَبِ
وَإِنَّمَا تُرْضِيكَ فِي ذَاكَ الْغَضَبِ
وَالظَّرْفُ فِي الْآلَاتِ شَيْءٌ يُسْتَحَبِ

* * *

وله أيضاً^(١):

وَكَفَاهُ اللَّهُ ذِلَّاتِ الطَّلَبِ
بَيْنَ حَالَيْنِ نَعِيمٍ وَأَدَبِ

عَجَبِي مِمَّنْ تَعَالَتْ حَالُهُ
كَيْفَ لَا يَفْسِمُ شَطْرِي عُمْرِهِ

(١) ديوان كشاجم ص ٢١، وزهر الآداب ١/١٩٧، وجمع الجواهر ص ٢، والأول والثاني في يتيمة الدهر ٤/٢٣٨.

سَاعَةً يُنْتَبِعُ فِيهَا نَفْسَهُ
وَدُنُوهُ مِنْ دُمَى هُنَّ لَهُ
فَإِذَا مَا نَالَ مِنْ ذَا حَظِّهِ
مَرَّةً جَدًّا وَأُخْرَى رَاحَةً
فَقَضَى الدُّنْيَا نَهَاراً حَقَّهَا
تِلْكَ أَقْسَامُ مَتَى يَعْمَلُ بِهَا

* * *

علي الجارم^(١):

إِنِّي طَرَحْتُ مِنَ الشَّبَابِ رِذَاءَهُ
وَاخْتَرْتُ مِنْ صُحُفِ الْأَوَائِلِ صَاحِبِي
وَتَيْتُ عَنْ لَهْوِ الصَّبَابَةِ جِيْدِي

وَجَعَلْتُ مَأْثُورَ الْبَيَانِ عَقِيْدِي

وَمَرَزْتُ بِالتَّارِيخِ أَمَلًا نَاطِرِي
كَمْ عَالِمٍ قَابَلْتُ فِي صَفْحَاتِهِ
وَإِذَا التَّمَسْتُ مِنَ الدُّهُورِ رِسَالَةً
أَخْشَوْ إِلَى قَلَمِي كَأَن صَرِيرَهُ
وَأَعِيشُ فِي دُنْيَا الْخِيَالِ لِأَنَّنِي
كَمْ لَيْلَةٍ سَامَرْتُ شَعْرِي لَاهِيًا
حِينَ يُرَاوِغُنِي فَأَنْظُرُ ضَارِعًا
وَلَقَدْ أَغْرَدْتُ بِالْقَرِيضِ فَيَنْشِينِي
طَهَّرْتَهُ مِنْ كُلِّ مَا تَابَى التُّهَى
وَبَعَثْتُ فِيهِ تَجَارِيماً مَذْخُورَةً

مِنْهُ وَأَخْيِي بِالْفَنَاءِ وَجُودِي
وَلَكَمْ ظَفَرْتُ بِفَاتِحِ صَنْدِيدِ
فَصَحَائِفُ التَّارِيخِ خَيْرُ بَرِيدِ
فِي مِسْمَعِي الْمَكْدُودِ رَنَّةُ عُودِ
أَخْطَى بِهَا بِالْفَائِتِ الْمَفْقُودِ
وَالنَّجْمُ يَلْحَظُنَا بَعِينَ حُسُودِ
فَيَكِلُنْ بَعْدَ تَنْكُرٍ وَجُحُودِ
فَأُنَالُ قَادِمَتَيْهِ بِالتَّغْرِيدِ
وَيَعَافُهُ سَمْعُ الْحَسَنِ الْخُودِ
هِيَ كُلُّ أَمْوَالِي وَكُلُّ رَصِيدِي

* * *

(١) ديوان علي الجارم ص ٤٤٥ ، من قصيدة «تهنئة المليك بالعيد» .

أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا^(١) :

لَلَّهِ إِخْوَانُ أَفَادُوا مَفْخَرًا فَبَوَّصَلَهُمْ وَوَفَّائَهُمْ أَتَكْثُرُ
هُمْ نَاطِقُونَ بِغَيْرِ أَلْسِنَةٍ تَرَا هُمْ فَاحْصُونَ عَنِ السَّرَائِرِ تَضْمُرُ
إِنْ أَبْغَى مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ مَعًا عِلْمًا مَضَى فِيهِ الدَّفَاتِرُ تَخْبِرُ
حَتَّى كَأَنِّي شَاهِدٌ لَزَمَانِهَا وَلَقَدْ مَضَتْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ أَعْصُرُ
خُطْبَاءَ إِنْ أَبْغَى الْخُطَابَةُ يَرْتَقُوا كَفَّيْ بِكَفِّي لِلدَّفَاتِرِ مَنِيرُ
كَمْ قَدْ بَلَوْتُ بِهِ الرِّجَالَ وَإِنَّمَا عَقْلُ الْفَتَى بِكِتَابِ عِلْمٍ يَسِيرُ
كَمْ قَدْ هَزَمْتُ بِهِ جَلِيسًا مَبْرَمًا لَا يَسْتَطِيعُ لَهُ الْهَزِيمَةُ عَسْكَرُ

* * *

محيي الدين محمد بن علي^(٢) :

سَمِيرِي لَا يَنَامُ وَلَا يَنُومُ حَفِظَ لِلَّذِي يَلْقَى كِتُومُ

* * *

إسماعيل صبري^(٣) :

إِنَّ الْكِتَابَ إِذَا حَلَا وَأَزْدَانَا نَعَمَ السَّمِيرُ إِذَا أَرَدْتَ بَيَانَا
يُهْدِي إِلَيْكَ فُكَاهَةً وَرِوَايَةً وَيَصُونُ سِرَّكَ إِنْ أَرَدْتَ أَمَانَا
تَخْلُو بِهِ فَتَرَى صَدِيقًا مُخْلِصًا كَالْبَخْرِ يَحْوِي أَلَدَّ الْمَرْجَانَا
وَتَرَى بِهِ رَوْضًا تَمُجُّ غُصُونُهُ رِيًّا وَتَشْدُو طَيْرُهُ الْأَلْحَانَا
وَلِئِنْ بَلَوْتَ مَدَارِكَ الْإِخْوَانِ مَا غَيْرَ الْكِتَابِ يُقَدِّمُ الْبَرْهَانَا
تَتَرَاوَحُ الْأَسْفَارُ بَيْنَ مُحَدَّثٍ عَمَّا جَرَى لِلْأَقْدَمِينَ وَكَانَا

(١) الفهرست ص ٣٨ ، و طراز المجالس ص ٢٦٦ .

(٢) محاضرة الأبرار ٩/١ .

(٣) ديوان إسماعيل صبري ص ١٤٨ ، من قصيدة «تقرير» .

عَقْدَ الدَّرَارِي يُنْعَشُ الْأَبْدَانَا
عَنْ كُنْهِ لَفْظِ حَيْرِ الْأَذْهَانَا

ومخبِرٍ عن رحلةٍ ومنسقٍ
ومنظِّمٍ روضِ العلُومِ وباحثٍ

* * *

جمال عبد اللطيف^(١):

عصيُّ أنا، أم تراني تقيًّا
تعيساً، أعيش حياتي شقيًّا
سويعاتٍ أخلو لنفسي مليًّا
وماذا جَنَيْتُ، وماذا عليًّا
أنا وكتابي نعيشُ سويًّا
يبادلني الرأيَ حقًّا وفيًّا
كريمًا أراه فصيحا ذكيًّا
دواماً يوضِّحُ شيئاً خفيًّا
وأغدو نشيطاً وأحيا هنيئاً
وأمضي نهاري، وليلي نقيًّا
ولي فادع ربَّ العبادِ عليًّا

نشاؤُ أنا، أم تراني غيباً
نشاؤُ أنا، قال عنيَّ صبحي
فأحلى سويعاتِ يومي إليَّ
أفكرُ فيما فعلت بيومي
وبعد الحسابِ أقيم بداري
فخيرُ صديقي أراه كتاباً
يغذي فؤادي، وروحي وعقلي
رفيقاً لطيفاً يُروِّجُ عني
برفقته كلُّ همي يضيغُ
وتصفو حياتي، وأبدو صَبُوحاً
فخذه دواماً صديقاً حميماً

*

عن الشرِّ يسمو ويعلو نبيًّا
صديقاً عزيزاً تقيًّا أبيًّا
ولا يزعمُ القولَ فيك فريًّا
وجدت لديه الوفاء جليًّا
وتلق الحديث، حديثاً شهياً

فإنَّ الكتابَ جليسُ الصفاء
يصاحبُ ركبك طولَ الحياةِ
فإن قد مللت فلا يشتكي
وإن عدتَ في لهفةٍ للقاءِ
كما كان قبلَ الفراقِ تاماً

(١) حماس ونشوة ص ١٩، قصيدة بعنوان «صديقي كتابي».

أردت صديقك جَدًّا قَوِيًّا
حديثي وقولي ما دمت حيًّا

فراع انتقاء الكتاب إذا ما
وبارك خطاي ولا تزدري

* * *

محمد علي السنوسي^(١):

ووضعت بين يديه فكري مطرقا
وهو الصدوق حديثه والمنتقى
عن صفحته محدثاً ومحدثاً
وعشقه كهلاً وزدت تعلقاً
ونما بعينه (حجاي) وأورقا
وأدوب فيه صباة وتشوقاً
طرباً وينشرح الفؤاد تطلقاً
ويطيب لي أن يستريح وأرقاً
وهوأي إن هجر الصديق وضيقاً
مستسلماً في حبه مستغرقاً
من راحته زلالها متدفقاً
و (النابغين) محدثاً ومعلقاً
و (منار) جامعة تشع تألقاً
إلا تدفق في الحديث وأغدقاً
منذ استوى عصر (الجرائد) وارتقى
لا تستساغ تخيلاً أو منطقاً
أن تستطيل على (البحور) تدفقاً

(خِلُّ) وهبت له شبابي رفيقاً
أصغي إليه فما أمل حديثه
طلق فما يلقاك إلا باسمأ
أحبيته طفلاً وهمت به فتى
رفت على يده مناي وأزهرت
أشواقه شوق الخماثل للندى
ألقاه مكتئباً فيسلو خاطري
أستعذب السهر الطويل بقربه
سلواي إن عبس الزمان وضامني
أَمْضِيت بين يديه عمري كله
أمتص من فمه (العلوم) وأحتسي
وأنادم العظماء من (أعلامه)
في كل سطر منه نور (حقيقة)
ريّان من أدب فما حدثته
قالوا لقد فقد (الكتاب) جلاله
فأجبتهم هيهات تلك قضية
من أين (للغدران) وهي ضحاظ

(١) الأعمال الكاملة للشاعر ص ٣٨٦، قصيدة بعنوان «الكتاب».

خِلاً يروك كالكتاب تذوقا
(نور) أضواء بها الوجود وأشرقاً

إن (الكتاب) هو اللباب ولا أرى
لله هاتيك (الرموز) فإنها

*

أعطى الحياة يداً تخط لها البقا

إن الذي اخترع (الكتابة) ملهم

* * *

الشيخ جعفر النقدي^(١) :

لم يرقني من الأنام أنيس
إنما آفة النفوس النفوس
من زمانى المعقول والمحسوس
خطه الكون والليالى دروس
حلّ في دسسته ولا مرؤوس

مؤنسي العلم والكتاب الجليس
يا نفوس الورى دعيني ونفسي
حبذا وحدة بهالى تجلي
علمتني أن الحياة كتاب
نلت فيها ما لم ينله رئيس

*

رغبة وانحنت إليه رؤوس
لم يفدها من غيرها التقديس

يا رئيساً ذلت لديه نفوس
كل نفس ما قدستها المزاي

*

من بني الدهر سائس ومسوس
وأضواء كما تضيء الشموس
قد تجلى ونهجه مأنوس
وألفت الفساد وهو خيس
خالفته أم قيدتك الطقوس

يا عُقولا بالجهل يعث فيها
فيك قد أشرقت أشعة قدس
وجمال الهدى لمن يتغيه
لم تركت الرشاد وهو ثمين
حبستك العادات عن نيل رشد

*

(١) شعراء الغري ٩٠ / ٢ ، قصيدة بعنوان : «إنما آفة النفوس النفوس» .

من شجاها ناراً تشب الطروس
كنت فيه وأفسدتك الكؤوس
كحجاها شيء أتاها نفيس
عن عداها ضلت وحظ تعيس

آه من لوعة بأنفاس قلبي
يا حليف الكؤوس ضيعت رشداً
وأمت الحجا وما نفس حي
ما أضل النفوس إلا نفوس

* * *

حسن عبد الله القرشي^(١):

وأصدقائي من كُتِبِ وأسفار
بالمين ودَّ بليد الحس ثرثار
منقراً يتشكى غربّة الدار
وعدت في مهمه بالياس موار
أن النعيم لغرّار وغدار
كما أرف أمانهم بمزمار!

حسبي من الكون الحاني وقيثاري
حسبي فما أبتغي خلاً يبادلني
أكاد أحسب نفسي حين أصبحه
حسبي فقد عفت أنسامي وأنواري
تكشفت لي أخلاق الألى حسبوا
وما لهم بي لم أعشق مسالكهم

* * *

صقر الشيب^(٢):

يكون بها حولي صديق أحادثه
بغير اختشام أو حبيب أعابته
فسفر جليل النفع تشفي مباحته
وداعي سروري حين آسى وباعته
يخابث فاقصد في الورى من تخابته
له شغل عن رد ما أنت نافته

أرى خير ساعات المسرة ساعة
يبيت كلانا سره لصديقه
وإن لم يكن هذا ولا ذاك حاصلاً
فذلك ریحاني وراحِي وراحتي
فيا قاصدي بالخُبث ما أنا بالذي
فوقتي بكتبي والحبيب وإخوتي

(١) ديوان القرشي ط ١ ص ٤٩١، من قصيدة «سجين الحياة».

(٢) ديوان صقر الشيب ص ١٧٤، من قصيدة «من عاداتي وشيمي».

مِنَ الْجَهْلِ إِنْفَاقِي مِنَ الْوَقْتِ لَحْظَةً بِنَيْثِي ثَرَى أَمْثَالِ مَا أَنْتَ نَابِئُهُ

* * *

عبد الله الطيب^(١) :

أَلَا أَحْبَبَ بِدِفْءِ النَّارِ حِينَ الثَّلَجِ مُنْسَكِبُ
وَكَأْسِ كَضِيَاءِ النَّارِ يَخْبُو فَوْقَهَا الْحَبَبُ
وَحِبُّ كِبْهَاءِ النَّارِ فِي إِسْفَارِهِ الْعَجَبُ
وَرِيْمٌ رِيْمٌ غَيْلَانُ الَّذِي أَفْضَى بِهِ لِبَب
وَسَفَرٌ فِيهِ مَا غَنَّتْ بِهِ فِي يَيْدِهَا الْعَرَبُ
وَهَذَا الْجَدُّ إِذْ نَامَتْ عُيُونُ النَّاسِ وَالذَّأَبُ
وَتُغْنِيكَ عَنِ الْخُلَانِ إِنْ خَالَلتَهَا الْكُتُبُ

* * *

إبراهيم بن هلال الصَّابِي^(٢) :

هَجَرْتُ دَوَاتِي بَعْدَ تَصْرِيفِ حُلَّهَا
وَعَاشَرْتُ مِنْ دُونِ الْأَخْلَاءِ دَفْتَرًا
فَطَوْرًا يَسْلِينِي التَّعَلُّلُ بِالْمُنَى
وَوَاصَلْتُ كَالْوَرَّاقِ قَارُورَةَ الْحَبْرِ
يَحْدُثُ عَمَّا مَرَّ فِي سَالَفِ الدَّهْرِ
وَطَوْرًا يَكُونُ الْمَوْتُ مِنِّي عَلَى ذِكْرِ

* * *

أبو العلاء أحمد المعري^(٣) :

حَادِثُ كِتَابِكَ، فَهُوَ أَمِنْ جَانِبًا
وَفَوَائِدُ الْأَسْفَارِ جَمْعُ السَّفَرِ فِي الذِّ
مِنْ أَهْلِ تَسْيِيدِ وَأَهْلِ وَفَارِ
دُنْيَا، تَفُوقُ فَوَائِدَ الْأَسْفَارِ

* * *

(١) أصداء النبل ص ٥٦ ، قصيدة بعنوان «ألا أحبب» .

(٢) يتيمة الدهر ٣٥١/٢ .

(٣) ديوان لزوم ما لا يلزم ٥٤٩/١ .

أوليفر غولد سميث^(١) :

عِنْدَمَا أَقْرَأُ كِتَاباً لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، فَكَأَنِّي كَسَبْتُ صَدِيقاً جَدِيداً. وَعِنْدَمَا أَقْرَأُ كِتَاباً سَبَقَ لِي أَنْ قَرَأْتُهُ، فَذَلِكَ يُشْبِهُ لِقَائِي صَدِيقاً حَمِيماً.

* * *

الكاتب الإسباني ألونزو دو أراغون^(٢) :

الْحَطَبُ الْقَدِيمُ لِلإِضْطِلَاءِ، وَالْأَصْدِقَاءُ الْعِثَاقُ لِلْإِعْتِمَادِ عَلَى إِخْلَاصِهِمْ، وَالْكِتَابُ الْقَدِيمَةُ لِكُلِّ هَذَا مَعاً.

* * *

بومونت أند فلتشر^(٣) :

كتبي، الرفاق الأفضل، هي بالنسبة لي البلاط الملكي العظيم، حيث أتحدث في كل ساعة مع الحكماء والفلاسفة الكبار؛ وأحياناً على سبيل التنويع، ألتقي وأتداول مع ملوك وأباطرة، وأزن نصائحهم.

* * *

إدوارد بولوير ليتون^(٤) :

قد نعيش بدون شعر، وموسيقى، وفن؛

(١) سنابل الزمن ص ٢٢، وكنوز الحكمة ص ٤٦٠، ومن حصاد الفكر العالمي ص ٦٥، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥١١، وقاموس الحكم والأمثال ص ٥٠٨، وأقلام كتبت عن ص ٥٨.

(٢) كلمات من ذهب ص ٦٦٤، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥١١، ومن حصاد الفكر العالمي ص ٦٤، وسنابل الزمن ص ٢٣.

(٣) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٥٥.

(٤) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٤٤.

قد نعيش بدون ضمير ونعيش بدون قلب؛
قد نعيش بدون أصدقاء؛ وقد نعيش بدون طهارة.
لكن الإنسان المتحضر لا يستطيع العيش بدون كتب.

* * *

كولي^(١):

تَعَالَى يَا كُتُبِي، يَا أَصْدَقَ الْأَصْدِقَاءِ وَأَرْشِدِيْنِي.

* * *

لورد شانغ^(٢):

الكتب هي المفاتيح إلى كنز الحكمة، الكتب هي بوابات إلى أراضى
السرور، الكتب هي الممرات التي تؤدي إلى فوق، الكتب هي أصدقاء،
فتعال، ودعنا نقرأها.

* * *

أحمد شوقي^(٣):

أَنَا مَنْ بَدَّلَ بِالْكَتُبِ الصُّحَابَا	لَمْ أَجِدْ لِي وَفِيًّا إِلَّا الْكِتَابَا
صَاحِبٌ إِنْ عِبْتُهُ أَوْ لَمْ تَعْبْ	لَيْسَ بِالْوَاجِدِ لِلصَّاحِبِ عَابَا
كُلَّمَا أَخْلَقْتُهُ جَدَّدَنِي	وَكَسَانِي مِنْ حِلَى الْفَضْلِ ثِيَابَا
صُخْبَةً لَمْ أَشْكُ مِنْهَا رِيَّةً	وَوَدَادًا لَمْ يُكَلِّفْنِي عِتَابَا

(١) كنوز الحكمة ص ٤٥٩.

(٢) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٥٢، ومن حصاد الفكر العالمي ص ٦٣.

(٣) الموسوعة الشوقية ٣٠٥/٢، وكنوز الحكمة ص ٤٥٧، وسنابل الزمن ص ٢٠،

وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٨، وكلمات

من ذهب ص ٦٦٢، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٩، وأنيس الجليس ص ١٣.

رُبَّ لَيْلٍ لَمْ تُقْصَرْ فِيهِ عَنْ
كَانَ مِنْ هَمِّ نَهَارِي رَاحَتِي
إِنْ يَجِدُنِي يَتَحَدَّثُ أَوْ يَجِدُ
تَجِدُ الْكُتُبَ عَلَى النُّقْدِ كَمَا
فَتَحَيَّرَهَا كَمَا تَخْتَارُهُ
صَالِحُ الْإِخْوَانِ يَنْبَغِيكَ التَّقَى
غَالٍ بِالتَّارِيخِ وَاجْعَلْ صُحْفَهُ
قَلْبَ الْإِنْجِيلِ وَانْظُرْ فِي الْهُدَى
رُبَّ مَنْ سَافَرَ فِي أَسْفَارِهِ
وَاطْلُبِ الْخُلْدَ وَرُمُهُ مَنْزِلًا
عَاشَ خَلَقَ وَمَضَوْا مَا نَقَضُوا
أَخَذَ التَّارِيخُ مِمَّا تَرَكُوا
وَمِنَ الْإِحْسَانِ أَوْ مِنْ ضِدِّهِ
مَثَلُ الْقَوْمِ نَسُوا تَارِيخَهُمْ
أَوْ كَمَغْلُوبٍ عَلَى ذَاكِرَةٍ

* * *

محمد رضا الزين^(١) :

وكل خليل في الزمان موارب
صاف ولكن الأنام عقارب
عن الناس والكتب الأنيقة صاحب
إذا حدثت أو جونت لا تجانب

أصادق دهري والزمان مكاذب
طفت البسيط فلم أجد من وده
فخير حياة للفتى عزل نفسه
فليست تذيب السر وهي صوادق

(١) شعراء الغري ٨ / ٣٦٠ .

تقص أحاديثاً بأفصح منطق بغير لسان فهي عجم عوارب

* * *

علي الجندي^(١):

نَفَضْتُ يَدِي مِنْ كُلِّ خِلٍّ عَرَفْتُهُ وَإِنْ شَاقَنِي خِلٌّ فَيَا حَبَّذَا الْكُتُبُ
سَاحِيَا وَحِيداً كَالطَّرِيدِ، وَرَبِّمَا يُسِّرُ الْفَتَى بِالْبَعْدِ إِنْ سَاءَ الْقُرْبُ

* * *

ابن المقفع^(٢):

قال: كل مصحوب ذو هفوات، والكتاب مأمون العثرات.

* * *

عجاج نويهض^(٣):

الكتاب هو صديق لا يخدع أبداً.

* * *

ديبارو^(٤):

الْكِتَابُ صَدِيقٌ لَا يَخُونُ أَبَداً.

* * *

(١) أغاريد السحر ص ٢٠٧.

(٢) محاضرات الأدباء ١/ ١١٧، والتذكرة الحمدونية ٤/ ٣٧٧.

(٣) كلمات من ذهب ص ٦٦٢.

(٤) موسوعة روائع الحكمة ص ٥١٠، وكنوز الحكمة ص ٤٥٨، وقاموس الحكم والأمثال ص ٥٠٨.

جواد قسام^(١):

عند الدجنة موضع الأسرار
بسواد أحرفها سنا الأبصار
معنى الحياة دراسة الأسفار
ما في الطبيعة ثم من أخبار
من دون هذا العالم الغدار
ما فيك من بؤس ومن أضرار
ولها بأحشائي زناد واري
قد طال فيها مدة إضماري
والعز أمسى سيد الأحرار
نهب القوي الغاشم الجبار
يسعى باسم الدين للدينار
خلاً وفي الأصال والأبكار
لو أنها كانت بلا أسحار
ومتيم بك لا بذكر نوار
ما فيك من وعظ ومن إنذار
للناظرين بدائع الأزهار
حكماً بهن ثقافة الأفكار
نبأ الكرام بسالف الأعصار
كشف الحجاب شامة الأحرار
مذ صان زينتها عن النظر
بحجابها والنقص بالإسفار

يا سفر أنت إذا نادمت سماري
إني درست بك الوجود بأسطر
إني درست بك الحياة وإنما
كم ليلة كنت السмир محدثاً
إني اتخذتك لي خديناً ناصحاً
أرعاك مأمون الخديعة صادقاً
أشكو إليك لواعجاً أخفيها
لم أستطع إظهارهن وإنما
الحر يبخس قدره وحقوقه
والبائس المسكين أمسى حقه
والدين أصبح يشتكي من ناسك
يا سفر إني قد صحبتك في الدجى
فليال وصلك لا تمل وحبذا
نشوان لكن من هواك بخمرة
النفس إن تاقث لغياً عاقها
ما أنت إلا روضة راقث بها
طوراً وأخرى فيلسوفاً بشاً
يا سفر حدثني فإنك عالم
هل كان في عهد العروبة ترتضي
هل كان يزري بالفتاة حجابها
إني أعد إلى الفتاة كمالها

(١) شعراء الغري ٢/٤٦٧ ، قصيدة بعنوان «يا سفر» .

نفس تروم الثَّور بالأوطار
للمجد أكبر وصمة وشنار
ورجالها محجوبة بستر
لنهوضها عن هوة الأقدار

إن التبرج للفتاة متوقفة
إن الحقائق في النفوس تعده
يا من تروم إلى الفتاة سفورها
هلا سعت إلى الرجال محرصاً

*

فالعصر عصر تنور وفخار
الآداب بالإيراد والإصدار
ما لم يكن بالوائب الهدار
تأبى المقام بذلة وصغار
في السير عند مواضع الأخطار
في سيرك الآباء والآثار

هَبِّي بني العليا ولا تتخاملي
ودعي جوادك خائضاً في حلبة
وثبي فلا يحمي الغضنفر غابه
سيرى ولا تترثي فذوو العلى
سيرى على النهج السوي وحاذري
جدي لحفظ كيان مجدك واقتني

* * *

آخر^(١):

فلم تظفر يدي بصديق صدق
بيت منادمي قدحي وزقي
وفضل الله يأتيني برزقي

بلوت الناس من غرب وشرق
فقلت مجاناً للخلق طراً
وفي الآداب لي ألف وأنس

* * *

عبد الله بن خليفة القرطبي المعروف بالمصري^(٢):

إِنَّ الصديقَ مع العنقاء قد طارا
إلاَّ كلاماً بزورِ القولِ قد سارا

قالوا الصديقُ شقيقُ النفسِ قلتُ لهم
اسمٌ لعمري بلا جسمٍ ولا نفسِ

(١) غرر الخصائص ص ٤٦٤ .

(٢) الذخيرة ٣٤٧/٧ .

فما ترى غيرَ من يسقيك من يده أزيأً وفي قلبه قد أضمر النارا
فنادمِ الكتُبَ ما عمَّرتَ إنَّ لها عندي وعيشِكَ أسراراً وأخبارا

* * *

عبد الجبار بن حمديس من قصيدة^(١) :

وفي خُلُقِ الزَّمانِ طباعٌ خُلِفِ تُمرُّ في فمي الثُّغْبَ العذابا
وقد بُدِّلَتْ بعدَ سَرَاةٍ قومي ذئاباً في الصَّحابة لا صحابا
وألفيتُ الجليسَ على خلافي فلستُ مجالِساً إلاَّ كتابا
وما العنقاءُ أعوزُ من صديقي إذا خُبَّتِ الزَّمانُ عليك طابا

محمد بن علي بن عبد الله بن محمد الصُّوري^(٢) :

نعم الأنيس كتاب	إن خانك الأصحاب
يحوي ضروب علوم	تزينها الآداب
تنال منه فنوناً	تحظى بها وتناوب
لا مظهرأ لك سوءاً	ولا عليه حجاب
ولا يصدك عنه	— إن جتته — بواب
ولا يسوءك منه	تغضب وعتاب
ولا يعيبك إن كان	فيك شيء يُعاب
خلاف قوم تراهم	ليست لهم ألباب
لكنهم كذئاب	طلس عليهم ثياب
إذا تقربت منهم	أرضاك منهم خطاب
وإن تباعدت منهم	فكلهم مغتاب

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٥ .

(٢) تقييد العلم ص ١٣٢ ، وتاريخ دمشق ٣٧٣/٥٤ ، والأول والثالث في النجوم الزاهرة ٤٨/٥ .

ما هؤلاء بناس بل لعمرى كلاب
فالبعد منهم ثواب والقرب منهم عقاب

* * *

أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الحكيم^(١):

مارست دهري وجربت الأنام فلم
وكم تمنيت أن ألقى به أحداً
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا
وكان لي سبب قد كنت أحسبني
فما مقلّم أظفاري سوى قلمي

أحمدهم قطّ في جد ولا لعبٍ
يسلي من الهم أو يعدي على الثوبِ
كانت مواعيدهم كالأل في الكذبِ
أحظى به وإذا دائي من السببِ
ولا كتائب أعدائي سوى كتبي

* * *

محمد الصمدي^(٢):

أنت لصديق يصون عهد وفائه
ما أنت ذا الوجهين بيدي وده
وإذا يبست هوى عليّ بفأسه
إن شئت نصحاً كنت من أسرته
ثنى به الإحسان فضل تكتّم
أنت المعلم روض كل دراية
روض يضم من العقول ثمارها
قد نلت منه ما اجتهدت لنيله
لكن جهدي تارة لتشاقل

إن لان دهري أو قسا بجفائه
في ظل كرمي مسرفاً بريائه
ليحيلني خطباً لنار شتائه
شأن الجواد أسرّ أمر عطائه
ما أنت في نصح وفي إسدائه
أيان تثمر فهي من أندائه
ومن الخيال جنى رحاب سمائه
غيض تلازمي منى إغنائه
يؤذي الرغاب وتارة لمضائه

(١) ديوان الحكيم أبي الصلت ص ٢٠ وص ٥٩، ومعجم الأدباء ٦٤/٧، وعيون الأنباء ص ٥١١.

(٢) جذاذة من جريدة الوطن الكويتية.

فتروح للأستاذ تشكوني المنى
فيردها رداً جميلاً إنما
إنني لأدري ما يعاني صاحبي
أعباء عيش بات عيشاً مرهقاً
وأذى الشعور مخصص ومعمم
يا للمعلم شاء غير تحيز
ومسامح خلّى عتاب معاتب
عاد الصديق فأشرق شمس الرضا
مسك الصحائف خبأته بصدرها
هذي السجايا ليته في عصرنا
عصر به المنحى لغير تسامح
ولغير نصح خالص وتناصح
ولغير ما هو في الزهور بنفسج
فالزهو من هذا الزمان لئرجس
ما ذاك إن صدى الغراب بمسمعي
والقول مني ليس نسج تشاؤم
قانا إلى جهد الطبيب وقد مضى
سيان كان الكشف مبعث فرحة
ما ضرني من قال مسعى شاعر
طير عن السرب اغتواه تفرد
البرء في جهد الجميع ولا أرى
هو هدي ما علمتني يا صاحبي

هذا المريد مقصر بأدائه
يأبى عليها الفوز باستعدائه
ولأنت أولى باجتلاء عنائه
وضياع جهد في شرعائه
لينال في الحالين من إيذائه
فنجنا المريد من اتهام رجائه
تسابق الأعذار لاسترضائه
في الروض شاع المسك في أفيائه
لتعطر الأجواء عند لقاءه
سمة السمات تفوز في أنبائه
هو للتناحر ضج في أرجائه
بهما يضيق الزخم من ضوضائه
خد التراب لخد سحر بهائه
يزهيه مرأى ذاته في مائه
وبخاطري وقع اكتئاب سمائه
يلقي على العصر اسوداد غشائه
في كشف داء قبل وصف دوائه
أو أحزن المعلول جاهل دائه
والعصر ما أغناه عن شعرائه
فغدا الغريب بنوحه وغنائه
درب التفرد غير درب التائه
وعلى المدى أنا أهتدي بضياته

* * *

دُنْيَا بَرِمْتُ بِهَا وَبِالْأَصْحَابِ
عِنْدِي عَشِيَّةَ غَاضٍ مَاءِ شَبَابِي
دُنْيَايَ بَيْتِي، وَالصَّدِيقُ كِتَابِي
فَمَتَى يَأْوُبُ لَهُمْ مَعَ الْإِيَّابِ
يَتَصَايِحُونَ هُنَاكَ عِنْدَ الْبَابِ
فِي السَّجْنِ مَعْتَقِلٌ مَعَ الْغِيَّابِ
يَلْهِيهِمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا بِي
أَبْصَرْتُهُمْ يَتَرَقَّبُونَ إِيَّابِي
وَمُدَاعِبَاءَ، وَمُخْلِصاً جَلْبَابِي
لَمَّا تَجْهَمُهُمْ ذُورُ الْأَنْسَابِ
أَطْفَالُهُمْ فِي جَيْئَةٍ وَذَهَابِ

عَاتَبْتُهَا حَتَّى مَلَلْتُ عِتَابِي
حَتَّى هَوَى الْأَحْبَابِ أَصْبَحَ زَاوِيَاً
فَالآنَ بَعْدَ أَنْ انْتَهَى عَهْدُ مَضَى
وَهَوَايَ أَطْفَالُ آبُوهُمْ غَائِبُ
مَا دَقَّ بَابِي زَائِرٌ إِلَّا جَرَوْا
(بَابَا) أَتَى، (بَابَا) أَتَى، وَأَبُوهُمْ
فَأَظْلُ أَخْدَعُهُمْ، وَأَضْحَكُهُمْ بِمَا
إِنْ غَبْتُ عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْتُ إِلَيْهِمْ
أَحْنُو عَلَيْهِمْ ضَاحِكَاً، وَمُقْبِلَاً
وَأَنَا الَّذِي رَبَّى الْيَتَامَى صَابِرَاً
حَتَّى غَدَوْا وَهُمْ كِبَارٌ حَوْلَهُمْ

*

وَتَعَبُّي حَتَّى مَلَلْتُ عِتَابِي؟!
وَأَنَا حَبِيبُهُمْ وَهُمْ أَحْبَابِي؟!
لِلضَّغْطِ أحياناً وَلِلْأَعْصَابِ
تَجْرِي عَلَى خَطَا لَهْ وَصَوَابِ!!
أَحْيَا بِهَا، وَاخْتِمَ بِحَسَنِ مَبَابِ

مَالِي وَلِلدُّنْيَا، وَلِلْأَصْحَابِ
وَهَوَى الْأَحْبَةِ كَيْفَ أَصْبَحَ زَاوِيَاً
سَامٌ وَضِيقٌ بِالْحَيَاةِ مَرْدُهُ
لَكَأَنَّ مَوْجاً لَاعَبَ بِعَوَاطِفِي
يَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رِعَايَةً

* * *

(١) بين الأعاصير ص ١٢٦، قصيدة بعنوان «دنياي».

وَقَلَّتِ الْأَحْبَابُ	إِنْ عَزَّتِ الْأَصْحَابُ
وَأَبْطَأَ الْمُجِيرُ	وَأَعْوَزَ النَّصِيرُ
وَقَلَّتِ الْكَرَامُ	وَكَثُرَ اللَّثَامُ
وَفَاضَ نَكْتُ الْعَهْدِ	وَغَاضَ مَاءُ السُّودِ
وَأَمَحَلَّ الْوَفَاءَ	حَتَّى ذَوَى الْإِخَاءِ
وَلَا أَخَا وَفِيَّا	فَلَا تَسِرَى صَفِيَّا
وَمَغْقَلَ الْإِخْوَانِ	عَوْنًا عَلَى الزَّمَانِ
لَيْسَ بِنَكْسٍ ذُمَّلٍ	إِنْ تَدْعُهُ لَمْ يَأْتِلِ
وَاضْطَحَبَ الْكِتَابَا	فَاتَرَكَ الْأَصْحَابَا
وَهُوَ الصَّدِيقُ النَّاصِحُ	فَهُوَ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ
وَحَبَّاهُ لَا يُمَزَّقُ	وَدَادَهُ لَا يَخْلُقُ
إِنْ قَاطَعَ الْوَصُولُ	وَحَبْلُهُ مَوْصُولُ
وَلَا يَرُدُّ طَالِبَا	لَيْسَ يُرَائِي صَاحِبَا
مَا زِدْتَ فِي سُؤَالِهِ	يَزِيدُ فِي نَوَالِهِ
وَلَيْسَ بِالْمَثَانِ	يُجْزِلُ فِي الْإِحْسَانِ
وَلَا تَرَاهُ مَاطِلَا	لَا يَسْتَعِيدُ سَائِلَا
وَمُخْسِنٌ لَا يَحْفِرُكَ	مُؤَدَّبٌ لَا يُصْغِرُكَ
لَبَّاكَ غَيْرَ مُؤْتَلٍ	إِنْ تَدْعُهُ لِمُعْضَلٍ
وَهُوَ الرِّفِيقُ الْأَخْضَعُ	ذَاكَ الصَّدِيقُ الْأَطْوَعُ
أَحْفَظَ لَلْأَدَابِ	لَمْ أَرَ كَالْكِتَابِ
أَزْهَدَ فِي مُعَاتِبَةٍ	أَبْعَدَ عَنْ مُشَاغَبَةٍ

(١) ديوان أحمد الزين ص ١٧٤ ، قصيدة بعنوان «صحبة الكتب» .

أَكْفَ عَنْ قِتَالِ	أَزْغَبَ عَنْ جِدَالِ
وَطَيَّبِ الْأَنْسَارِ	أَجْمَعَ لِلْأَخْبَارِ
وَأَبْلَغِ الْعِظَمَاتِ	وَحَسَنِ الصَّفَاتِ
وَجَيِّدِ الطَّرِيفَا	تَرَى بِهِ سَخِيفَا
وَشِدَّةَ وَلِينَا	وَالْفَتْ وَالسَّمِينَا
ثُمَّ تَرَاهُ فَاتِكَا	أَمَا تَرَاهُ نَاسِكَا
مِنْ صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ	أَمْنَعُ لِلْأَخْرَارِ
مِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ	أَوْعِظُ لِلْإِنْسَانِ
وَشَاغِلِ عَنِ الْمَنَى	خَيْرُ جَلِيسٍ فِي الدُّنَا
قُصُورُهَا أَطْلَالُ	إِنَّ الْمُنَى ضَلَالُ
وَبَرْقُهَا خَلَابُ	وَمَا وَهِيَ سَرَابُ
مَنْ أَكْثَرَ الْأُمْنِيَّةِ	يَقْنَعُ بِالدُّنْيَا
أَصْحَابُهَا نِيَامُ	فَلِإِنَّهَا أَحْلَامُ
فَلِإِنَّهَا هَبَاءُ	لَيْسَ بِهَا عِلَاءُ
وَحَالُهَا يَحْوُلُ	سَرْعَانَ مَا تَزُولُ
وَسُحْبُهَا جَهَامُ	أَجْبَالُهَا رِمَامُ
تَعْلَلَةُ الْجَبَانِ	وَإِنَّمَا الْأَمَانِي
أَوْ نَالَه مَا يَرْهَبُ	إِنْ فَاتَهُ مَا يَطْلُبُ
وَقَوْلُهُ لَوْ أَنِّي	أَكْثَرَ فِي التَّمْنَى

* * *

مَثَلُ إِنْكَلِيزِي^(١):

الْكِتَابُ الْجَيِّدُ صَدِيقٌ حَمِيمٌ.

(١) موسوعة روائع الحكمة ص ٥١١، وكنوز الحكمة ص ٤٥٩.

تولوستوي^(١) :

إن أفضل ما يجده المرء بعد الصديق الطيب الكتاب الطيب .

* * *

سعيد بن عبد ربّه^(٢) :

افتصد يوماً فبعث إلى عمه أحمد بن محمد بن عبد ربّه الشاعر الأديب
راغباً إليه في أن يحضر عنده مؤانساً له ، فلم يجبه عمه إلى ذلك وأبطأ عنه ،
فكتب إليه :

لما عدمت مؤانساً وجليساً	نادمت بقرطاً وجالينوساً
وجعلت كتبهما شفاء تفرّدي	وهما الشفاء لكل جرح يوسا
ووجدت علمهما إذا حصلته	يذكي ويحيي للجسوم نفوسا

فلما وصل الشعر إلى عمه جاوبه بأبيات منها :

ألفيت بقرطاً وجالينوساً	لا يأكلان ويرزان جليسا
فجعلتهم دون الأقارب جُنة	ورضيت منهم صاحباً وأنيساً
وأظن بخلك لا يرى لك تاركاً	حتى تنادم بعدهم إبليسا



(١) أنيس الجليس ص ١٨ .

(٢) يتيمة الدهر ٧٤/٢ ، وعيون الأنباء ص ٤٩ ، والمغرب في حلي المغرب
١٢٠/١ ، والذيل والتكملة ٢٦/٤ ، وديوان ابن عبد ربّه ص ١٤٩ ، والفكاهة في
الأدب ٣٠/٢ ، وموسوعة الأدب الضاحك ٤٥/١ .

٩- فصل في متنزهات وبساتين الكتب

الأمير عبد الله المأمون^(١) :

لا نزهة ألدّ من النظر في عقول الرجال .

* * *

الحسين بن أبي بكر أحمد بن الخياري^(٢) :

طلبُ العلم فات أولَ عُمرِي في زمانٍ بالكسب كان اشتغالي
فتسليّت بالمجاميع عنه وتنزهت في عقول الرّجال

* * *

أبو الحسن بن طباطبا العلوي^(٣) :

قرأ في بعض الكتب : الكتب معاقل العقلاء إليها يلجؤون ، وبساتينهم
فيها يتنزهون ، فقال :

اجعلْ جليْسَكَ دفتراً في نَشْرِهِ لِلْمَيْتِ مِنْ حَكَمِ الْعُلُومِ نُشُورُ

(١) تاريخ الإسلام ٢٣٨/١٥ ، وعين الأدب والسياسة ص ١٥٨ ، وتاريخ الخلفاء ص ٢٧٣ ، والأذكياء ص ٥ .

(٢) تاريخ إربل ٢٧٧/١ ، وتاريخ الإسلام ٣٣٤/٤٤ .

(٣) اللطائف والظرائف ص ٦٦ ، وشرح المضمون ص ٦ ، وأنوار الربيع ٣٨٧/٢ ، والأول والثالث في التذكرة الحمدونية ٣٧٧/٤ ، وعزاهما للسري الرفاء في محاضرات الأدباء ١١٧/١ ، وديوان السري الرفاء ٨٠٠/٢ ، والخبر دون الشعر في مطالع البدور ١٧٤/٢ ، وكنوز الحكمة ص ٤٦١ ، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٩ ، ودون عزو في كنوز الحكمة ص ٤٥٨ .

فكتاب علم للأديب مؤانس ومفيد آداب ومؤنس وحشة
ومؤدب ومبشر ونذير وإذا انفردت فصاحب وسمير

* * *

عيون متنزهات القلوب :

قَالَ الْأَمِيرُ أَبُو نَضْرٍ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عُيَيْدِ اللَّهِ
ابْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْمِكَالِيِّ: تَذَكَّرْنَا الْمُتَنَزَّهَاتِ يَوْمًا وَأَبْنُ دُرَيْدٍ حَاضِرٌ، فَقَالَ
بَعْضُهُمْ: أَنْزَهُ الْأَمَاكِنِ غُوْطَةَ دِمَشْقَ^(١). وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ نَهْرُ الْأُبُلَّةِ. وَقَالَ
آخَرُونَ: بَلْ سُغْدُ^(٢) سَمَرْقَنْدَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَهْرُوَانُ بَغْدَادَ^(٣). وَقَالَ
بَعْضُهُمْ: شِعْبُ بَوَّانَ^(٤) بِأَرْضِ فَارِسَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نُوبَهَارُ بَلْخَ^(٥).

فَقَالَ: هَذِهِ مُتَنَزَّهَاتُ الْعُيُونِ، فَأَيُّنَ أَنْتُمْ عَنْ عُيُونٍ مُتَنَزَّهَاتِ الْقُلُوبِ؟

قُلْنَا: وَمَا هِيَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟

قَالَ: عُيُونُ الْأَخْبَارِ لِلْقَتَيْبِيِّ، وَالزَّهْرَةُ لِابْنِ دَاوُدَ، وَقَلَقُ الْمُشْتَاكِ
لِابْنِ أَبِي طَاهِرٍ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَمَنْ تَكَ نُزْهَتُهُ قَيْنَةٌ وَكَأْسٌ تُحَسُّ وَأُخْرَى تُصَبِّ

(١) غوطة دمشق: موضع بالشام كثير الماء والشجر.

(٢) السغد بالغين المعجمة: أماكن كثيرة المياه، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطياف
بسمرقند.

(٣) نهروان بغداد: ثلاث قرى بين واسط وبغداد.

(٤) شعب بوان: مرج خصيب في بلاد فارس يوصف بالنضارة حتى يقال: إنه إحدى
الجنات الأربع.

(٥) هو بناء للبرامكة. معجم الأدباء ١٨/١٤٣، والمجتنى ص ١١، وديوان ابن دريد
ص ٨٣، والمنتخب من معجم الشيوخ ١/١٥٥، والخير دون الشعر في مقدمة
الزهرة ١/٢٨، وحاشية نشوار المحاضرة ٢/٢١٠.

فَنَزَهَتْهَا وَاسْتِرَاحَتْهَا تَلَاقِي الْعُيُونِ وَدَرَسُ الْكُتُبِ

* * *

أحمد بن محمد بن أحمد^(١) :

قال يوسف بن عبد البر: أنشدني أحمد بن محمد بن أحمد رحمه الله :
أَلَدُّ مَا طَلَبَ الْفَتَى بَعْدَ التَّقَى عَلِمَ هُنَاكَ يَزِينُهُ طَلِبُهُ
وَلِكُلِّ طَالِبٍ لَذَّةٌ مُتَنَزَّةٌ وَأَلَدُّ نَزْهَةٍ عَالِمٍ كُتُبُهُ

وسألني أن أزيد فيها فزودته بحضرته :

يُسْلِي الْكِتَابُ هَمُومَ قَارِيهِ وَيُبَيِّنُ عَنْهُ إِنْ قَرَأَ نَصَبُهُ
نِعَمَ الْجَلِيسُ إِذَا خَلُوتَ بِهِ لَا مَكْرَهُ يُخْشَى وَلَا شَغْبُهُ

* * *

قالوا^(٢) :

الكتبُ بساتينُ العقلاء .

* * *

وقالوا^(٣) :

روضةُ العلم أزينُ من روضةِ الرياحين .

* * *

(١) جامع بيان العلم ص ٥٨٢ ، والجامع لأخلاق الراوي ١٧٢/٢ ، والبيت الثاني وحده دون نسبة في العقد الفريد ٢١٠/٢ و ٢٠١/٤ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٦ ، والمحاسن والمساوي ص ٦ ، والتمثيل والمحاضرة ص ١٦٠ .

(٣) بهجة المجالس ١٩١/٣ .

بعض العلماء^(١):

قيل لبعض العلماء: ما بلغ من سرورك بأدبك وكُتُبك؟

فقال: هي إن خلّوتُ لذّتي، وإن اهتممتُ سلّوتي. وإن قلت: إنَّ زهرَ البستان، ونورَ الجنان، يجلّوان الأبصار، ويمتّعان بحسنهما الألباظ؛ فإن بستانَ الكتب يجلّو العقل، ويشحذُ الدّهْن، ويحيي القلب، ويقوّي القريحة، ويُعِينُ الطبيعة، ويبيّغُ نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويمتّعُ في الخلوة، ويؤنسُ في الوحشة، ويضحكُ بنوادره، ويسرُّ بغرائبها، ويفيد ولا يستفيد، ويعطي ولا يأخذ، وتصلُّ لذّته إلى القلب، من غير سامة تُدرِكُك، ولا مشقةٍ تعرّض لك.

* * *

المأمون^(٢):

قال الفضل بن سهل للمأمون وهو بدمشق بدير مرّان مشرف على غوطتها: يا أمير المؤمنين، هل رأيت في حسنّها شبيهاً في شيء من ملك العرب؟ — يعني الغوطة — .

قال: بلى والله، كتاب فيه أدب يجلو الأفهام، ويذكّي القلوب، ويؤنس الأنفس، أحسن منها.

* * *

أحمد بن محمد بنّاني:

قال عبد الفتاح أبو غدة^(٣): ولشيخنا العلامة الفقيه الأديب القاضي

(١) زهرة الآداب ١/ ١٨٤.

(٢) المحاسن والمساويء ص ٦.

(٣) صفحات من صبر العلماء ص ٣٢٣.

أحمد بن محمد بنّاني، المغربي الرّباطي، حفظه الله تعالى وأمتع به، أبيات لطيفة في التعلّق بالكتب ومطالعتها، سمعتها منه مراتٍ متعددة في مدينته الرّباط بالمغرب، آخرها في يوم الخميس ٢٥ من شوال سنة ١٤٠٣هـ، وقد بلغ من العمر المئة إلّا سنتين وكُفّ بصره، أحسن الله إليه، قال:

إذا رُمِنتَ الجنانَ وساكنيها	وإمتاع العيون بما يُفِيدُ
فكُتِبَكَ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ فيها	ثمارُ الخُلْدِ تَجْنِي ما تُريدُ
وغدُّ الرُّوحِ منها كلُّ وقتٍ	ولا تشبَعُ فُروحُك لا تحيدُ
وإن فاتَ الزَّمانُ عليكَ جَنياً	فَعُدْ وأقِطْ ثماراً لا تبيدُ
وإياكَ التخلّي عن جناها	فَعَقْلُكَ منَ غِذاها يَسْتَفِيدُ

* * *

أنشد علي بن الجهم^(١):

سميرٌ إذا جالسته كان مسلماً	فؤادك مما فيه من ألم الوجدِ
يفيدك علماً أو يزيدك حكمةً	وغير حسودٍ أو مصر على الحقدِ
ويحفظ ما استودعته غير غافلٍ	ولا خائناً عهداً على قدم العهدِ
زمان ربيع في الزمان بأسره	يبيحك روضاً غير ذاوٍ ولا جعدِ
ينور أحياناً بورد بدائعٍ	أحقُّ وأولى بالنفوس من الوردِ

* * *

أحمد بن محمد العروضي^(٢):

إن جمع الدفاتر	عدة للبصائر
قد حوت كل فاخر	من صنوف الجواهر

(١) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٩، وسراج الملوك ص ٥٧٩.

(٢) تقييد العلم ص ١٢٩، ودون نسبة في المخلاة ص ٢٦٥ من قصيدة في الدفاتر وفضلها.

وعلوم قد أوضحت	كل ماضٍ وغابر
وعجيب من الأمور	ر بعيدٍ وحاضر
يكتفي كل عالم	بارع اللفظ باهر
برياض مقيمة	في بطون الدفاتر
يتناجون صامتين	بما في الضماير
وهم إن خبرتهم	يبين ناهٍ وزاجر
ومشير بما يراه	وداع وأمـــــر
فتمسك بها تفز	بسني الذخائر

* * *

عبدُ الله بن المظفر بن المسلمة ، أبو جعفر ابن أبي شجاع^(١) :
خير ما جالس اللبيب كتابٌ لا قريناً فيه رياً ونفاقُ
هو مثل الرياض حقاً كما أو راقها بينها لها أوراقُ

* * *

محمود بن عمر الشيباني المعروف بابن رقيقة^(٢) :
لما رأيت ذوي الفضائل والحجا لا ينفقون وكل فدم ينفق
ألزمت نفسي اليأس علماً إن لي رياً يجود بما أروم ويرزق
ولزمت بيتي واتخذت مُسامري سِفرأ بأنواع الفضائل ينطق
لي منه أنى جئتُه متصفحاً عما حوى روض نظير مونق

* * *

(١) خريدة القصر (العراق) ١/١٥٤ ، ومعجم الألقاب ٣/٥٢٤ ، وتاريخ الإسلام

٩٥/٤٢ ، والرافي ١٧/٦٢٧ .

(٢) عيون الأنباء ص ٧٠٩ .

الحسن بن أحمد المخل^(١) :

يبغي التَّنَزَّهَ فِي تِلْكَ الْمِيَادِينِ
سَائِلَ بِذَلِكَ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ
وَالْكَتَبِ وَيَحْكُ شَيْءٌ لَيْسَ بِالذَّوْنِ
أَبْشُرَ فِلَانِكَ مَيْمُونُ الْمِيَامِينِ

يَا مِنْ غَدَا نَحْوِ أَشْجَارِ الْبَسَاتِينِ
الْكَتَبِ عِنْدِي أُسْرَى نَزْهَةٌ خُلِقَتْ
إِنْ الْبَسَاتِينِ فِي وَقْتٍ لَتُعْجِبَنِي
يَا طَالِبَ الْكَتَبِ تَوْعِيهَا وَتَجْمَعَهَا

* * *

عبد الحلیم أخى زاده الحنفی^(٢) :

كتب لبعض الأصدقاء بهذا الاستدعاء :

أَنَا فِي الْبَسْتَانِ وَخُذِي وَالصَّبَافِيهِ تَهَبُ
فِيهِ مَحْبُوبِي كِتَابِي فليكن مَعَهُ الْمَحَبُّ

* * *

السَّري بن أحمد الرَّفَاء^(٣) :

له من قصيدة يَدْعُو أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْمَرَاغِيَّ التَّحَوِّيَّ وَيَصِفُ لَهُ
كُتُبًا عِنْدَهُ وَيُسْتَانًا فِي دَارِهِ . . . وَيُرْغَبُهُ فِي الْمَجْبِيِّ إِلَيْهِ :

عِنْدِي إِذَا مَا الرُّوضُ أَصْبَحَ ذَابِلًا تُحَفُّ أَغْضُفٌ مِنَ الرِّيَاضِ شَمَائِلًا
خُرُسٌ تُحَدِّثُ آخِرًا عَنْ أَوَّلِ بِعَجَائِبِ سَلَفَتْ وَلَسْنَ أَوَائِلًا
سُقِينَتْ بِأَطْرَافِ الْيَرَاعِ ظُهُورُهَا وَيُطُونُهَا طَلًّا أَحَمُّ وَوَائِلًا
تَلْقَاكَ فِي حُمْرِ الثِّيَابِ وَسُودِهَا فَتَخَالُهَا عَرَائِسًا وَثَوَاكِلا

(١) تاريخ دمشق ٧/ ٢٢٨.

(٢) سانحات دمی القصر ١/ ٢١٣.

(٣) ديوان السري الرفاء ٢/ ٥٩٠، والحماسة الشجرية ٢/ ٨٠٠، وتقييد العلم
ص ١٣٠، ونفحة الريحانة ١/ ٢١٣.

حَتَّى تَرَاهُ بِعَيْنٍ فِكْرِكَ مَائِلًا
مَنْحَتَكَ مِنْ صَوْبِ الْعُقُولِ مَنَاهِلًا
يَمَكُثْنَ مَا زُرَّتْ بِهِنَّ حَوَامِلًا
رَقِرَتْ فِيهِنَّ الْخُلُوقُ السَّائِلًا
عَبَقَتْ يَمِينُكَ رَاحَةً وَأَنَامِلًا
حُلَا مَدْبَجَةً وَحَلِيًا كَامِلًا
بَاتَتْ تُزَخْرِفُهَا الْغُيُوثُ هَوَاطِلًا

وَتُرِيكَ مَا قَدْ فَاتَ مِنْ دَهْرٍ مَضَى
وَإِذَا خَلَوْتَ بِهِنَّ ظَمَانَ الْحَشَا
وَلَهَا إِذَا حُلَّتْ نَتَاجُ غَرَائِبِ
يَلْبَسْنَ أَرْدِيَةَ الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا
وَإِذَا مَدَدْتَ لَهَا يَمِينَكَ فَاتِحًا
نَشَرْتَ حَدَائِقُهَا عَلَى أَمْثَالِهَا
رَوْضُ تُزَخْرِفُهُ الْعُقُولُ وَرَوْضَةٌ

* * *

يوسف البديعي ، من قصيدة^(١) :

رِيَاضًا سَقَاهَا الْفَضْلُ طَلًّا وَوَابِلًا
ذُبُولًا وَقَدْ تَلَقَّى الرِّيَاضَ ذَوَابِلًا
فَإِنْ لَاحَ مَا فِيهِنَّ قُلْتُ ثَوَاكِلًا
وَمَنْ ذَا رَأَى خَرَسًا تُجِيبُ الْمُسَائِلًا
مَحَاسِنَ ذِكْرِ تَسْتَقِلُّ الْأَوَائِلًا

وَكَمْ نَمَقْتُ أَفْكَارُهُ غَلَسَ الدُّجَى
حَدَاتُكَ لَمْ يَكُنْ الْهَجِيرُ نَظِيرَهَا
غَرَائِيسُ تَلْقَاهَا بَضَافِي ثِيَابِهَا
تُجِييُكَ عَمَّا رُمْتُ وَهِيَ صَوَامِتُ
بَدَائِعُ فِكْرٍ لَلْوَاحِرِ وَطَّدَتْ

* * *

أبو القاسم بن حسان الإشبيلي^(٢) :

قال ابن سعيد علي بن موسى : ودخلت إليه مع والدي وهو بهذا القصر
في بهو قد ملأه من الكتب ، وحلّ منها بمنزلة البدر من الشهب ، لا بل
الشمس في تكاثف الشحب ؛ فسافرت أبصارنا في تلك الساحة العريضة
الطويلة ، وتقيدت بمحاسن رياضه البديعة الجميلة ؛ ثم جالس والدي بما

(١) نفحة الرّيحانة ١/٢١٣ .

(٢) اختصار القدح المعلّى ص ١٤٨ .

لديه من فنون الآداب فأطنب وما قَصَّر، فلما أَخَذَتِ المحاضرةُ والمؤانسةُ
حَقَّها سألَه والدي أَن يُنشدني شيئاً من شعره أَتَشَرَّفُ بين أقراني بذكره؛
فأنشدنا فيما بين يديه من الأسفار والأزهار عَجَلاً، حتى قلنا: إنه قال ذلك
مُرْتَجِلاً:

إني أطرحت سوى ما تستلذ به	عيني وسمعي من زهر ومن أدب
فلست أبرح والأيام شاغلة	أقسم الطرف بين الروض والكتب
كم رُمْتُ حيث نجوم الأفق مرتبة	فعارضتني خطوب الدهر في الرتب
فحين أعطتني الأيام خبرتها	أرحت نفسي من همٍّ ومن تعب
وإن بليت بشخص دون منزلتي	فالبدر يُبلى على علياه بالذنب

* * *

علي أحمد^(١):

حَسْبِي الْكِتَابُ أَهِيْمُ فِي رَوْضَاتِهِ	لَا مُخْلِفًا وَغَدًا وَلَا يَرْتَابُ
يُعْطِيكَ دُنْيَا بِالْجَمَالِ تَوَشَّحَتْ	وَتَضُوعٌ مِنْ جَنَابَتِهَا الْأَطْيَابُ
وَيُرِيكَ مَنْ غَابُوا بِكُلِّ شَيْأَتِهِمْ	يَتَحَاوَرُونَ كَأَنَّهُمْ مَا غَابُوا



(١) عن الحب ومنى الحلم ص ١٥.

١٠- فصل في عشق الكتب على النساء

الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى :

قال في كتابه «ذم الهوى»: إِنَّ أَرْبابَ الْيَقَظَةِ عَشَقَهُمَ لِلْفَضَائِلِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْعِفَّةِ، وَالصِّيَانَةِ وَالْكَرَمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخِلَالِ الْمَمْدُوحَةِ، أَوْفَى مِنْ مَيْلِهِمْ إِلَى شَهَوَاتِ الْحِسِّ، لِأَنَّ شَهَوَاتِ الْحِسِّ حَظُّ النَّفْسِ، وَتِلْكَ الْخِلَالُ حَظُّ الْعَقْلِ، وَالنَّفْسُ النَّاطِقَةُ إِلَى مَا يُوْثِرُهُ الْعَقْلُ أَمِيلٌ، وَإِنْ جَرَّهَا الطَّبَعُ إِلَى الشَّهَوَاتِ الْحِسِّيَّاتِ.

* * *

الإمام أبو بكر ابن الأنباري محمد بن القاسم النَّحْوِيُّ^(١) :

ومن أعجب ما نقل إلينا من ذلك: خبر الإمام أبي بكر ابن الأنباري .
فقد مضى يوماً إلى النّخاسين - بيّاعي الرقيق من العبيد والإماء - ،
ورأى جارية تُعرضُ حسنة الصُّورةِ كاملة الوصف ، قال : فوقعتُ في قلبي ،
ثم مضيتُ إلى دار أمير المؤمنين الراضي بالله ، فقال لي : أين كنتَ إلى
الساعة؟ فعرفتهُ ، فأمرَ بعضَ أشباهه - أي غلمانِه - فمضى فاشتراها ،

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١٨٤ ، وطبقات الحنابلة ٢/ ٧١ ، ونزهة الألباء ص ٢٠٠ ، وذم الهوى ص ٤٩٤ ، والجامع في الحث على حفظ العلم ص ٣٠١ ، وإنباه الرواة ٣/ ٣٠٤ ، ومعجم الأدباء ٨/ ٣١٦ ، وبغية الوعاة ١/ ٢١٣ ، ومقدمة مجلس من آمالي ابن الأنباري ص ٦ ، والعلماء العزّاب ص ٨٢ ، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٠٠ ، وعنه النقل .

وحملها إلى منزلي، فجنثت فوجدتها، فعلمت الأمر كيف جرى.

فقلت لها: كوني فوق إلى أن أستبرئك - أي أتبين براءة رَحِمِكَ من الحمل، وذلك بحلول الحيض لها -، وكنت أطلب مسألة قد اختلت علي، فاشتغل قلبي عن علمي! فقلت للخادم: خذها وامض بها إلى النخاسين، فليس قدرها أن تشغل قلبي عن علمي، فأخذها الغلام.

فقالت: دعني أكلّمه بحرفين، فقالت: أنت رجل لك محل وعقل، وإذا أخرجتني ولم تبين لي ذنبي، لم آمن أن يظن الناس بي ظناً قبيحاً، فعرفنيهِ قبل أن تُخرجني، فقلت لها: ما لك عندي عيب، غير أنك شغلّني عن علمي، فقالت: هذا أسهل عندي.

قال: فبلغ الراضي بالله أمره، قال: لا ينبغي أن يكون العلم في قلب أحد أحلى منه في صدر هذا الرجل!

* * *

أبو علي الحسن بن أحمد المنطقي^(١):

وفي هذا المعنى قال:

ويروقه روضُ الخدودِ بوَردِهِ	غيري يشوقُ فؤادَهُ حدقُ المَها
ممن يُقدُّ حَشاهُ مُرْهَفُ قَدِّهِ	وإذا تثنى خَوطُ بانٍ لم أكنْ
أنّي صفاً يَبْنُو الهوى عن صِلْدِهِ	لا أنْ طبعي مَسَّهُ طَبْعٌ ولا
عن عَسْفِ قلبي في الحِسانِ وكَدِّهِ	لكنّ كُنْهي للمِساعي عاقِني
للحادثاتِ فصارمٌ في غِمْدِهِ	وإذا ابنُ عَزَمٍ لم يَقمْ متَجَرِداً
لمضائه فيهن لا لِفِرْنِدِهِ	والسيفُ سُمي في النواثِبِ عُدَّةً

* * *

(١) المدهش ص ٤٩٤.

الشافعي والجارية والعلم^(١) :

اشْتَرَى أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ لَهُ جَارِيَةً، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَقْبَلَ عَلَى الدَّرْسِ، وَالْجَارِيَةُ تَنْتَظِرُ اجْتِمَاعَهُ مَعَهَا، فَلَمَّ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَلَمَّا أَضْبَحَتْ صَارَتْ إِلَى النَّحَّاسِ وَقَالَتْ: حَبْسُونِي مَعَ مَجْنُونٍ!! فَبَلَغَ الشَّافِعِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى) قَوْلَهَا، فَقَالَ: الْمَجْنُونُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَ الْعِلْمِ ثُمَّ ضَيَّعَهُ، أَوْ تَوَانَى فِيهِ حَتَّى فَاتَهُ.

ومن الشعر المنسوب إلى الإمام الشافعي في هذا المعنى^(٢) :

سَهْرِي لِتَنْفِيحِ الْعُلُومِ أَلْدُّ لِي	مِنْ وَضَلِ غَانِيَةً وَطِيبَ عِنَاقِ
وَتَمَائِلِي طَرَبًا لِحَلِّ عَوِيصَةٍ	أَشْهَى وَأَخْلَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى أَوْرَاقِهَا	أَخْلَى مِنَ الدُّوْكَاهِ وَالْعُشَاقِ
وَأَلْدُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُفْهَا	نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
يَا مَنْ يُحَاوِلُ بِالْأَمَانِي رُبِّي	كَمْ يَبْنِ مُسْتَقْبَلٍ وَآخِرَ رَاقِي
أَلَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبَيْتُهُ	نَوْمًا وَتَبَغْيِي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي؟!

* * *

(١) البحث على طلب العلم ص ٧٩، ونقل عنه في الجامع في البحث على حفظ العلم ص ٣٠٣.

(٢) ديوان الشافعي ص ١٦٢، وقال المحقق: هي لتاج الدين السبكي في نور الأبصار ص ٤١٤، ومنهاج اليقين، والأبيات الثلاثة الأولى في الفائق في غريب الحديث ٨/١ للزمخشري، وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غده رحمه الله في «صفحات من صبر العلماء» ص ١٣٩: هذه الأبيات وجدتها معزوة للزمخشري، في الترجمة المذكورة له في آخر تفسيره «الكشاف» التي كتبها الشيخ إبراهيم الدسوقي رئيس المصححين بدار الطباعة البولاقية في مصر... وعزاها إلى التاج السبكي الفقيه أحمد الطحطاوي في حاشيته على «الدر المختار» ٢٢/١، وتابعه صاحب «رد المحتار على الدر المختار» ٢٣/١. قال الشيخ عبد الفتاح: وهي بشعر الزمخشري وأسلوبه أشبه، والله تعالى أعلم.

الحافظ الإمام أبو نصر السَّجَزِي^(١) :

قال الحافظ أبو إسحاق الحَبَّال: كُنْتُ يوماً عند أبي نصر السَّجَزِي، فذُقُّ الباب، فَقُمْتُ ففتحته، فدخلت امرأة وأخرجت كيساً فيه ألف دينار، فوضعت بين يدي الشيخ وقالت: أنفقها كما ترى. قال: ما المقصود؟ قالت: تتزوجني، ولا حاجة لي في الزواج ولكن لأخدمك، فأمرها بأخذ الكيس وأن تنصرف.

فلما انصرفت قال: خرجت من سِجستانِ بِنْتِ طلب العلم، ومتى تزوجت سقط عني هذا الاسم، وما أُؤثِرُ على ثواب طلب العلم شيئاً.

* * *

السَّيِّدُ أحمد الحموي^(٢) :

وقائِلَةٌ لِمَ لا تَغْزِلُ في الطُّبَا وطَبْعُكَ مِنْ ماءِ اللُّطَافَةِ قد رَوِي
فقلتُ لها قَدْرِي تَسَامَى عن الذي تَرُومِي لِشُغْلِي بالعلومِ وما رَوِي

* * *

عبد الله بن أبي هاشم مسرور التجيبي^(٣) :

قال أبو بكر بن عبد الرحمن: بلغني أن أهل عبد الله بن أبي هاشم مسرور التجيبي اشتروا له جارية، فزينوها وأدخلوها عليه. فلما كان الليل أخذ الكتاب، وكتب الليل كله، ولم يلتفت إليها، وأقام على ذلك نحواً من

(١) تاريخ الإسلام ٩٧/٣٠، وسير أعلام النبلاء ٦٥٥/١٧، وتذكرة الحفاظ ١١١٩/٣، والعقد الثمين ٣٠٨/٥، وصفحات من صبر العلماء ص ٨٧، والعلماء العزَّاب ص ٦٧.

(٢) نفحة الريحانة ٥٧٤/٤.

(٣) رياض النفوس ٤٢٤/٢، وترتيب المدارك ٣٤١/٢.

شهر . فلما طال على الجارية ذلك قالت : إن كان ليس لك غرض فيّ فبعني .
فقال لها : من أنت؟ قالت : جاريته ، قال : أنا ما اشتريت جارية ، امض إلى
من اشتراك ، يبعك . ففعلت . فأقام على حاله إلى أن مات .

* * *

شاعر^(١) :

كتاب أطلعه مؤنس أحب إليّ من الأنسة
وأدرسه فيريني القرو ن حضوراً وأعظمهم دارة

* * *

عبد الوهّاب بن محمد بن عبد الله التميمي الأحسائي^(٢) :

كَانَ ذَا حِرْصٍ وَأَجْتِهَادٍ إِلَى الْغَايَةِ ، قَلِيلَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ حَتَّى إِنَّهُ
اتَّفَقَ لَهُ سِتْعَ سِنِينَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا إِلَّا لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، وَأَمَّا الْجَمَاعَةُ فَبِهَا
مَسْجِدُهَا ، وَالْأَكْلُ يَأْتِي لَهُ مِنْ بَيْتِ وَالِدِهِ مَعَ الطَّلَبَةِ .

وَأَكْبَ عَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَإِذْمَانِ الْمُطَالَعَةِ وَالْمُرَاجَعَةِ وَالْمُذَاكِرَةِ
وَالْمُبَاحَثَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، لَمْ تَنْصَرَفْ هِمَّتُهُ إِلَى غَيْرِهِ أَصْلًا ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا تَزَوَّجَ
بِأَمْرِ وَالِدِهِ وَالزَّامِيهِ أَخَذَ لَيْلَةَ الدُّخُولِ مَعَهُ الْمَحْفَظَةَ ، فَلَمَّا أَنْصَرَفَ عَنْهُ النَّاسُ
نَزَلَ السَّرَاجَ وَقَعَدَ يُطَالِعُ الدَّرُوسَ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يَقْرَأَهَا فِي غَدٍ ، وَيَقْدِّرُ فِي
نَفْسِهِ أَنَّهُ بَعْدَ اِتِّمَامِ الْمُطَالَعَةِ يُبَاشِرُ أَهْلَهُ ، فَاسْتَغْرَقَ فِي الْمُطَالَعَةِ إِلَى أَنْ أَذِنَ
الصُّبْحُ ، فَتَوَضَّأَ وَخَرَجَ لِلصَّلَاةِ ، وَحَضَرَ دُرُوسَ وَالِدِهِ مِنْ أَوَّلِهَا ، وَلَمْ يَعْلَمْ
وَالِدُهُ بِذَلِكَ لِكَوْنِهِ لَا يُبْصِرُ .

(١) الرّوضتين في أخبار الدولتين ص ٣ ، ونظم العقيان ص ٤ ، وتوشيح الديباج

ص ٤٠ ، والعلماء العزاب ص ٢٧٧ .

(٢) السحب الوابلة ص ٢ وص ٦٨١ .

وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الدُّرُوسِ أَتَى إِلَيْهِ وَلَدُهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَبَارَكَ لَهُ وَبَارَكَ لَهُ
 الْحَاضِرُونَ، وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ فَعَلَ كَفَعْلِهِ بِالْأَمْسِ وَلَمْ يَقْرُبْ أَهْلَهُ مِنْ غَيْرِ
 قَصْدٍ لِلتَّرَكِّ، لَكِنْ لاشتغاله بالمطالعة، فيقول في نفسه: أَطَالَعُ الدَّرْسَ ثُمَّ
 أَلْتَفْتُ إِلَى الْأَهْلِ، فَيَسْتَغْرِقُ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ، فَأَخْبَرَتِ الْمَرْأَةُ وَلِيِّهَا بِذَلِكَ،
 فَذَهَبَ وَأَخْبَرَ وَالِدَهُ بِالْقِصَّةِ، فَدَعَاهُ وَالِدُهُ وَعَاتَبَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ الْمِحْفَظَةَ، وَأكَّدَ
 عَلَيْهِ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا.

* * *

أحد زملاء الشيخ فيض الله الأيُّوبي الكردي :

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة^(١) : سمعتُ من شيخنا علامة المعقول
 الشيخ فيض الله الأيُّوبي الكردي رحمه الله تعالى، أيامَ بدءِ دراستي للعلم في
 بلدنا حلب: أَنَّ أَحَدَ زَمَلَاتِهِ الَّذِينَ كَانُوا يُحَصِّلُونَ الْعِلْمَ مَعَهُ فِي مَدَارِسِ
 الْأَكْرَادِ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ، كَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَطَالِبَ عِلْمٍ مُجِدِّ مُحْتَرِقٍ بِالْعِلْمِ .
 عَرَضَ عَلَيْهِ بَعْضُ الصَّالِحِينَ الْأَثْرِيَاءِ أَنْ يَزُوجَهُ ابْنَتَهُ، رَغْبَةً فِي مَتَانَةِ
 دِينِهِ وَعِلْمِهِ وَصِلَاحِهِ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ وَخَطَبَهُ إِلَيْهَا لِيَتَزَوَّجَهَا، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ
 يَتَكَلَّفُ عَنْهُ كُلَّ تَكَالِيفِ الزَّوْجِ، وَيُكْرِمُهُ مَعَ ذَلِكَ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ وَالْدارِ
 الْوَاسِعَةِ الْجَمِيلَةِ، رَجَاءً أَنْ يَقْبَلَ الزَّوْاجَ مِنْ ابْنَتِهِ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الطَّالِبُ الْعَالِمُ
 الصَّالِحُ: أَرْجُو أَنْ تَسْمَحَ لِي بِأَنْ أَشَاوِرَ نَفْسِي فِي هَذَا الَّذِي تَعْرِضُهُ عَلَيَّ، قَالَ
 الرَّجُلُ: نَعَمْ، لَكَ ذَلِكَ .

قال شيخنا رحمه الله تعالى: فَالَّذِي فَعَلَهُ ذَلِكَ الطَّالِبُ، هُوَ أَنَّهُ كَانَ
 يُشَاوِرُ نَفْسَهُ بِالزَّوْاجِ وَتَرْكِهِ، وَذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ يُدْنِي الْكِتَابَ مِنْ قَلْبِهِ وَصَدْرِهِ،
 فَيَجِدُ ارْتِياحًا عَظِيمًا وَسُرُورًا غَامِرًا، ثُمَّ يُبْعِدُ الْكِتَابَ وَيَفْكَرُ بِالزَّوْجَةِ وَبِهَجَّتِهَا
 وَالْأَنْسِ بِهَا عِنْدَهُ، فَيَجِدُ فِي قَلْبِهِ انْقِبَاضًا وَضِيقًا!

(١) العلماء العزَّاب ص ٢٧٨ .

فلما راجعه والدُ الفتاة قال له : بارك الله لك في ابتكك المؤمنة الصالحة ، وعوّضها غيري خيراً مني ، واعذّرني أن أَبْقَى مع العلم والكتاب .
وآثَرَ العلمَ على الزوجة وبهجتها وتقديمتها له هدية كريمة ، مصحوبةً بالدار والجهازِ والمال .

* * *

خليل جَوَاد الخالدي^(١) :

كان خليل جَوَاد الخالدي من أعلم الناس بالمخطوطات النادرة وأماكنها ، رحالة طَوَّافاً في جنبات الأرض وراء شوقه إلى الوقوف على المخطوطات في المكتبات .

لا يفتأ عن الأسفار من دار إلى دار ، يتطلَّبُ المزيدَ من المعرفة ، ويصبرُ على مشاق الغربة ومتاعب الارتحال ، وكان يستطيع ذلك ويَلْذُّه ويراه أفضلَ المُتَع الطيبة التي يَسْتَمِع بها . وعاش عَزَباً لم يتزوج مع الغنى واليسار .

وفي أواخر عُمره ألَحَّ أهله عليه بأن يتزوَّج ، فتمنَّع كثيراً فأصرُّوا عليه فأظهر لهم الموافقة ونزل على رأيهم ، فاختاروا له زوجة وعقدوا له العقدَ عليها ، وزفُّوها إليه ، فاستقبلها مع من زفَّها إليه من أهله ، ثم استأذنها إلى غرفة كتبه ، ليراجع بعض الكتب ، واستغرق في مراجعته وطال انتظارُ الزوجة له ! فذكَّر بها وأنها على انتظارِ عودته إليها ، فأجاب قائلاً : إني عنها في شُغْل .

ثم طَلَّقها وبقي عَزَباً . وقد دخلت العروسُ بيته ، وصارت تحت كنفه ومرأى عينه وأقربَ إليه من كل قريب ، ولكنه كان تعلقه بالعلم ومسائله

(١) العلماء العزَّاب ص ٢٣٥ .

وإيثارُهُ له أقوى من تعلقه بالعروس وزينتها، وكان تحصيلُ المسألة أحبَّ إليه
وأسرَّ في نفسه من اقتراب الزوجة والأنسِ بها.

فللَّهِ دره ما أغلى العلمَ عنده، فمات عاشقاً للعلم وصادقَ الإيثارِ له،
عوَّضه الله الحُورَ العين، في جنات النعيم.

وتُوفِّي بالقاهرة سنة ١٣٦٠ هـ رحمه الله تعالى.



١١- فصل في الكتاب والزوجة

الزبير بن بكار القرشي^(١):

قال: قالت بنتُ أُختي لزوجتي: خالي خيرُ رجلٍ لأهله، لا يتخذ
ضرةً ولا يشتري جارية.

فقالت المرأة: والله لهذه الكُتُب أشدُّ علي من ثلاثِ ضرائر.

* * *

محمد بن أحمد بن علي ابن مَخْلَد أبو عبد الله البغدادي الجوهري
المحتسب المعروف بابن مُخْرَم الفقيه، أحد تلامذة محمد بن جرير^(٢):
قال: لما تزوجت وحملت إليَّ المرأة، جلست في بعض الأيام أكتب

(١) نثر الدر ١٠٢/٤، وتاريخ بغداد ٤٧١/٨، والجامع لأخلاق الراوي ١٥٠/١،
والمنتظم ١١١/١٢، وروضة المحبين ص ٦٩، وأخبار الظرفاء ص ٢٢٢،
وفيات الأعيان ٣١٢/٢، وتاريخ الإسلام ١٣٩/١٩، وسير أعلام النبلاء
٣١٣/١٢، والعلماء العزّاب ص ٢٥٦، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٥٦،
وظرفاء ولكن حكماء ص ١٧٠، وحاشية معجم الأدباء ١٦١/١١، والجامع في
الحث على حفظ العلم ص ٤٧، وجاء في الوافي ١٨٨/١٤ برواية: قال: تزوّجت
امراًةً وعندي أخرى، فما زالت بي حتى طلّقْتُها وأقبلْتُ على بيت فيه كتب،
فجاءت المرأة فأخذت بعضادتي الباب وقالت: لَكُتُبُكَ شرٌّ عليّ من أربعِ ضرائر.

(٢) تاريخ بغداد ٣٢٠/١، ومرة الزمان (طبعة بغداد) ص ١٥٧، والمنتظم
١٩٢/١٤، وأخبار الظرفاء ص ٢٢، وتاريخ الإسلام ١٦٨/٢٦، والبداية والنهاية
٢٦٦/١١، والعقد المذهب ص ٣٣٨.

شيئاً على العادة، والمحبرة بين يدي، فجاءت أمها فأخذت المحبرة، فضربت بها الأرض فكسرتها. فقلت لها في ذلك.

فقالت: هذه شرٌّ على ابنتي من ثلاث مئة ضرة.

* * *

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القرشي الزهري^(١):

كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوماً: والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر.

* * *

الليث بن رافع بن نصر بن سيّار وزوجته وكتاب العين^(٢):

حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ فِي كِتَابِ الشُّعْرَاءِ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمُهَلَّبِيِّ قَالَ: كَانَ الْخَلِيلُ مُنْقَطِعاً إِلَى اللَّيْثِ بْنِ رَافِعِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، وَكَانَ اللَّيْثُ مِنْ أَكْثَبِ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ، بَارِعَ الْأَدَبِ بَصِيراً بِالشُّعْرِ وَالْغَرِيبِ وَالنَّحْوِ، وَكَانَ كَاتِباً لِلْبَرَامِكَةِ وَكَانُوا مُعْجِبِينَ بِهِ، فَارْتَحَلَ إِلَيْهِ الْخَلِيلُ وَعَاشَرَهُ فَوَجَدَهُ بَخِراً فَأَغْنَاهُ.

(١) مرآة الجنان ١/ ٢٦٠، ووفيات الأعيان ٤/ ١٧٨، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٤٩، وشذرات الذهب ٢/ ١٠٠، ونزهة الجليس ٢/ ٤٠٣، وروضات الجنات ٧/ ٢٣٢، والضاكون ص ٢٤٢.

(٢) طبقات الشعراء ص ٩٧، ومعجم الأدباء ٩/ ٤٥، والوافي ٢٤/ ٤١٥، وبغية الوعاة ١/ ٥٦٠، ونور القبس ص ٥٩، وروضات الجنات ٣/ ٢٧٩، وإنباه الرواة ٣/ ٤٢، وإشارة التعيين ص ٢٧٨، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص ٧١٩.

وَأَحَبَّ الْخَلِيلُ أَنْ يُهْدِيَ إِلَيْهِ هَدِيَّةً تُشْبِهُهُ، فَاجْتَهَدَ الْخَلِيلُ فِي تَصْنِيفِ كِتَابِ الْعَيْنِ فَصَّنَهُ لَهُ، وَخَصَّهُ بِهِ دُونَ النَّاسِ وَحَبْرَهُ وَأَهْدَاهُ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ مِنْهُ مَوْعِعًا عَظِيمًا وَسُرَّ بِهِ، وَعَوَّضَهُ عَنْهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ.

وَأَقْبَلَ اللَّيْثُ يَنْظُرُ فِيهِ لَيْلًا وَنَهَارًا لَا يَمَلُّ النَّظَرَ فِيهِ حَتَّى حَفَظَ نِصْفَهُ، وَكَانَتْ أُنْتُهُ عَمَّهُ تَحْتَهُ، فَاشْتَرَى اللَّيْثُ جَارِيَةً نَفِيسَةً بِمَالِ جَلِيلٍ، فَبَلَغَهَا ذَلِكَ فَغَارَتْ غَيْرَةً شَدِيدَةً فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا غِیْظَنَّهُ وَلَا أُبْقِي غَايَةً، فَقَالَتْ: إِنَّ غِیْظَهُ فِي الْمَالِ فَذَاكَ مَا لَا يُبَالِي بِهِ، وَلَكِنِّي أَرَاهُ مُكِبًّا لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ عَلَى هَذَا الدَّفْتَرِ، وَاللَّهِ لَا أَفْجَعُهُ بِهِ.

فَأَخَذَتْ الْكِتَابَ وَأَضْرَمَتْ نَارًا وَأَلْقَتْهُ فِيهَا، وَأَقْبَلَ اللَّيْثُ إِلَى مَنْزِلِهِ وَدَخَلَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْكِتَابُ فَصَاحَ بِخَدَمِهِ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْكِتَابِ فَقَالُوا: أَخَذَتْهُ الْحُرَّةُ، فَبَادَرَ إِلَيْهَا وَقَدْ عَلِمَ مِنْ أَيْنَ أَتَى.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا ضَحِكَ فِي وَجْهِهَا وَقَالَ لَهَا: رُدِّي الْكِتَابَ فَقَدْ وَهَبْتُ لَكَ الْجَارِيَةَ وَحَرَمْتُهَا عَلَى نَفْسِي، وَكَانَتْ غَضَبِي فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ وَأَدْخَلْتُهُ رَمَادَهُ، فَسُقِطَ فِي يَدِ اللَّيْثِ، فَكَتَبَ نِصْفَهُ مِنْ حِفْظِهِ، وَجَمَعَ عَلَى الْبَاقِي أَدْبَاءَ زَمَانِهِ وَقَالَ لَهُمْ: مَثِّلُوا عَلَيَّ وَاجْتَهِدُوا، فَعَمِلُوا هَذَا النُّصْفَ الَّذِي بَأْيَدِي النَّاسِ، فَهُوَ لَيْسَ مِنْ تَصْنِيفِ الْخَلِيلِ وَلَا يَشُقُّ غُبَارَهُ، وَكَانَ الْخَلِيلُ قَدْ مَاتَ.

* * *

سيبويه (١):

حَدَّثَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ قَالَ: تَزَوَّجَ سَيْبُويه بِالْبَصْرَةِ بِجَارِيَةٍ عَشَقْتَهُ، وَهُوَ قَدْ بَنَى عَقْدَ كِتَابِهِ، وَصَنَّفَ أَوَائِلَ أَبَوَاهِ، وَهِيَ فِي جُرَازَاتٍ وَقُطِعَ جُلُودُ،

وخرق، وأشقاف بيض. فلم يكن يُقبل على الجارية، ولا يشتغل بها، وهي مشغوفة بحبه. ولم يكن يشغله غير النظر والسهر والكتب.

فترصدت خروجه إلى السوق في بعض حوائجه، وأخذت جذوة نار فطرحتها في الكتب حتى أحرقت، فرجع سيبويه، فنظر إلى كتبه وهي هباء، فغشي عليه أسفاً، ثم أفاق فطلقها، ثم ابتنى الكتاب بعد ذلك ثانية.

قال أبو علي: وذهب منه علم كبير أخذه على الخليل فيما احترق له، وإنّا لله على ذلك.

* * *

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري^(١):

صحب يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، لتعلم العلم، على فقر شديد، فكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش، فيعود إلى منزل مختل، وأمر قل، فطال ذلك، وكانت امرأته تحتال له ما يقتاته يوماً بيوم.

فلما طال ذلك عليها، وكان خرج إلى المجلس، وأقام فيه يومه، وعاد ليلاً فطلب ما يأكل، فجاءته بغضارة مغطاة، فكشفها، فإذا فيها دفاتر. قال: ما هذا؟ قالت: هذا ما أنت مشغول به نهارك أجمع، فكل منه ليلاً، قال: فبكي، وبات جائعاً، وتأخر من غد عن المجلس، حتى احتال ما أكلوه. فلما جاء إلى أبي حنيفة، سأله عن سبب تأخره، فصدقه. فقال: ألا عرفتني، فكنت أمدك؟ ولا يجب أن تغتم، فإنه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشور.

قال أبو يوسف: فلما خدمت الرشيد، واختصصت به، قدّمت

(١) نشوار المحاضرة ١/ ٢٥١.

بحضرته يوماً جامعة لوزينج بفستق، فحين أكلت منها، بكيت، وذكرت
أبا حنيفة. فسألني الرشيد عن السبب في ذلك، فأخبرته.

* * *

أبو الحسن علي بن الحسن الضرير المقرئ^(١):

تزوج أبو الحسن علي بن الحسن الضرير المقرئ بجارية محتشمة من
جوازي دار الخلافة وكانت راغبة فيه، فوهبت له تركة مائة ذهباً، فأنفقه كله
في العلم وشراء الكتب النفيسة وتحصيل الأصول الحسنة.

* * *

علاء الدين أبو بكر ابن مسعود بن أحمد الكاساني^(٢):

تفقّه على علاء الدين محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي
وزوّجَهُ ابنتَهُ فاطمة الفقيهة العالمة. قيل: إنّ سببَ تزويجِهِ بابنتِهِ شَيْخِهِ أَنَّهَا
كانت من حِسانِ النِّساء، وكانت حَفِظَت «التحفة» تصنيفَ والدها، وطلبها
جماعة من ملوك بلاد الرُّوم، فامتنع والدها، فجاء الكاساني، ولزِم والدها،
واشتغل عليه وبرّع في عِلْمِي الأصول والفروع، وصنّف كتاب «البدائع»
وهو شرح للتحفة، وعرضه على شَيْخِهِ فازدادَ فرحاً به، وزوّجَهُ ابنتَهُ، وجعل
مَهْرَها منه ذلك، فقال الفقهاء في عصره: شَرَحَ نُحْفَتَهُ وزوّجَهُ ابنتَهُ.

* * *

إسحاق بن راهويه^(٣):

قال أحمد بن سلّمة النيسابوري: تزوّج إسحاق بن راهويه بامرأة رجلٍ

(١) ذيل تاريخ بغداد ٢٥٨/٣.

(٢) الجواهر المضيئة ٢٦/٤، وتاج التراجم ص ٣٢٨، ومعجم الألقاب ٢٩١/٢.

(٣) حلية الأولياء ١٠٣/٩، والانتقاء ص ٧٤، وتاريخ دمشق ٣٦٩/٥١، وتاريخ
الإسلام ٣٣٥/١٤، وسير أعلام النبلاء ٧٠/١٠ (وانظر الحاشية).

مات، كان عنده كُتُبُ الشافعي، لم يتزوّج بها إلاّ للكتُب.

* * *

أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني^(١):

امتَلأت البلادُ بـ «مختصره» في الفقه، وشرّحه عدّةٌ من الكبار، بحيث يُقال: كانت البِكرُ يكون في جهازها نسخةٌ لـ «مختصر» المزني.

* * *

هيوم^(٢):

ماذا أريد أن أنال فوق ما نلت؟ . . . زوجة؟؟! فهذه ليست من ضرورات الحياة. . . أما الكتب فهذه من ضروراتها، وعندي منها فوق ما يكفيني.

* * *

بيرم التونسي^(٣):

لكلّ امرئٍ عُرْسٌ تهدّهُ قَلْبُ	بِهَ وتؤنس مغناه صباحَ مساءَ
وتكفيه — إذ ترعاه — تدبيرَ عيشه	وتملاً عطراً قلبه وضياءَ
وإن جرحته الحربُ تأسُ جراحه	فيُشفَ، كأن لم يلقَ — قبلُ — عناءَ
وهأنذا وحدي، ومالي أنيسَةٌ	سوى الكتبِ، لكن لا تفيدُ شفاءَ

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ٤٩٣/١٢.

(٢) أنيس الجليس ص ١٧.

(٣) رباعيات بيرم التونسي ص ١٠٣، قصيدة بعنوان «متاعب العزوبة».

أطالعه وأترك وجنتيها
وتنكر نظرتي إلا إليها
ولو شمل الحياة وملحقيها
بقية إرثها من والديها
لذلك كان إحدى ضررتيها
حديث عن نظام ذوابتيها
نثار الورد من إحدى يديها
فذا لا ينطلي أبداً عليها
فهل هو رائج في مسمعيها
ولم أفهم بجهدي ما لديها

تغار من الكتاب إذا رأني
تضن بفكرتي في ما عداها
وتنفر من مقال ليس فيها
وتحسب هيكلي ومحيط نفسي
وقد ظفر الكتاب ببعض هذا
فنظم (أبي العلاء) أحب منه
ونثر (ابن المقفع) لا يوازي
وعلم الكون إن لم يرو عنها
ولكن من كتابي لي اعتذار
أطالعه فأفهم ما لديه

* * *

أحمد خير الدين^(٢):

تلهي فتاها عن لذيذ حوارها
صلاً خيلاً دب تحت إزارها
سُلْتُ يمينه كي تفوز بشارها
كاللوة الشرساء وسط وجارها

إن (الصحائف) للفتاة ك (ضرة)
أما (الكتاب) بيتها فتخاله
تدعو على رب^(٣) اليراعة ليته
ولتستقل بحبها في بيتها

* * *

(١) طرائف الشعراء ص ١٣٦ .

(٢) ديوان أحمد خير الدين ص ١٧ ، قصيدة بعنوان «المرأة والصحف» .

(٣) كلمة رب هنا تعني : سيد ، أو صاحب .

لا زوجة بعد الآن :

تزوج أحد عشاق الكتب، فصممت زوجته أن تقلعه عن شراء الكتب .
وفي أحد الأيام دخل عليها متأبطاً حزمة من الكتب الجديدة، فثار ثائرها
وصاحت به : لا كتب بعد الآن !

فأجابها فوراً: إذاً، لا زوجة الآن^(١).

* * *

ليتني كنت كتاباً :

تعود أحد الأساتذة في جامعة أكسفورد أن يقضي في مكتبه كل يوم
خمس ساعات . واتفق ذات مساء أنه تأخر عن موعد العشاء، فذهبت امرأته
إلى المكتبة لتذكره بموعد عشاءه . وهناك، وجدته غارقاً بين أكداس من
الكتب، فقالت: ليتني كنت كتاباً!

فقال لها زوجها: ولماذا؟

فأجابت: لأنني لو كنت كتاباً، لظفرت بوقتك كله .

فقال: ولكنك أفضل لو كنت تقويمان سنوياً .

قالت: وما تعني بهذا؟

أجابها: إذا كنت أحظى بتقويم جديد كل سنة^(٢).



(١) الضاحكون ص ٤٤٢ .

(٢) الضاحكون ص ٣٨٧، وظرفاء فرنسا ص ٦٠ «عن المركيز دو بيفر»، واضحك
مع آدم وحواء ص ١٢ .

١٢- فصل في ما ورد في مقدّمات الكتب في الكتاب

قال أبو الفرج المعافى بن زكريا في مقدمة كتابه الجليس الصالح الكافي^(١):

الكتاب إذا حوى الحكمة وأنواع الفائدة، كان لمقتنيه والناظر فيه بمنزلة جليس كامل وأنيس فاضل، وصاحب أمين عاقل، وقد قيل في الكتاب ما معناه: أنه حاضر نفعه، مأمون ضرّه، ينشط بنشاطك فينبسط إليك، ويملّ بملاكك فينفض عنك، إن أدنيتّه دنا، وإن أنأيتّه نأى، لا يبغيك شراً، ولا يُفشي عليك سرّاً، ولا ينم عليك، ولا يسعى بنميمة إليك.

* * *

وقال محمد بن الحسن بن حمدون في مقدّمة كتابه «التذكرة الحمدونية»^(٢):

هذا كتاب جمعته حين بُدِّل الصفو بالكدر، وغيّرت بني الأيام الغير، وفسد الزمان، وخان الإخوان، وأوحش الأنيس، وخيف الجليس، وصار مكروه العزلة مندوباً، ومأثور الخلطة محظوراً، وأضاءت آثار الوحدة في القلوب فأنارتها، وحكمت العقول بفضيلة التخلّي فاخترتها.

فوجدت الكتاب خيرَ صاحبٍ وقرين، وأفضل رفيقٍ وخدين، لا يخونُ

(١) ١٦٢/١، وتقييد العلم ص ١٢٠.

(٢) ٢٢/١.

ولا يمين، ولا يماكر ولا يناكر، ولا يعصي ولا ينافر، المفضي إليه بسرّه
مستظهر آمن، والمصاحب له وادع ساكن، مأمون الهفوة والزلة، محمود
الخلوة والخلّة.

فهو لمن وفقّ للاعتزال أسلم خليل، وأكرم أخ برّ وصول، ولمن سلب
الإيثار، وحكمت عليه غلبة الاضطرار، تذكرة للناسي، وتبصرة للساهي.

* * *

وقال محمد بن أحمد الوشاء في مقدّمة كتابه «الفاضل في صفة
الأدب الكامل»^(١):

قرأت، متّعك الله بالسّلامة، وحبّاك بالزّلّة والكرامة، ما كتبت تشكوه
إلينا من قلة الثقة بأصحابك، وما تحمل من معاناة تلون الصديق، وسرعة
ملل الرفيق، وأنفة دالة الحميم، وشراسة خلق النديم.

وسألت أن أختار لك نديماً، متأدباً كريماً، تستعين به على طوارق
غمومك، وتنفي به متكاثف همومك، وتفزع إليه من سهرك، وتدعو به عند
ضجرك، وتعتمد عليه في أمورك، وتستعده لسرورك.

فرايت استفراغ المجهود في طلب ذلك عذراً، ووجدان من ارتضى من
خلائقه لمنادمتك عسراً، وأحببت أن أحبوك بنديم يروقك منظره، ويسرك
مخبره، وتطيب مشاهده، وتكثر محامده، وتقل ذنوبه، وتفتقد عيوبه، إذا
دعوته أسرع، وإذا حدثك أمتع، وإذا سألته أجاب، وإذا تكلم أصاب، وإذا
استرفقته رفق، وإذا استنطقته نطق، لا يرهقك عُسراً، ولا يحملك إصراً،
يلقى عنك مؤونة الحشمة، أميناً على المال والحرمة، استدعى به منك دوام
الإخاء، وأوجب به عليك جميل الثناء.

(١) ص ٣٣.

فصنعت لك كتاباً في البلاغة والإيجاز والبراعة، وترجمته بكتاب «الفاضل»، لفضله على كل كتاب كامل، فأرسلت به إليك، لا ممتناً به عليك، لتجعله بدلاً من المجلس، وخلفاً من الأنيس.

* * *

وقال محمد بن داود الأصبهاني في «كتاب الزهرة»^(١):

وَقَدْ عَزَمْتُ لِمَا رَأَيْتُ بِكَ مِنْ غَلَبَاتِ الْاِشْتِيَاقِ، وَمِنْ مِيلِكَ إِلَى تَعْرِفِ
أَحْوَالِ الْمَشَاقِّ، أَنْ أَوْجَّهَ إِلَيْكَ نَدِيمًا يُشَاهِدُ بِكَ أَحْوَالِ الْمُتَقَدِّمِينَ،
وَيُحْضِرُكَ أَخْبَارَ الْغَائِبِينَ، يَنْشِطُ بِنَشَاطِكَ، وَيَمَلُّ بِمَلَالِكَ، إِنْ أَدْنَيْتَهُ دَنَا،
وَإِنْ أَقْصَيْتَهُ نَاءَى، لَا يُزْهِىَ عَلَيْكَ عِنْدَ حَاجَتِكَ إِلَيْهِ، وَلَا يَرْغَبُ عَنْكَ عِنْدَ
رَغْبَتِكَ عَنْهُ وَحَيْفَكَ عَلَيْهِ، لَا يَحْفَظُ أَسْرَارَكَ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقْشِيَهَا، وَلَا تَخْطُرُ
بِبَالِهِ فَيَحْتَاجَ أَنْ يُخْفِيَهَا، وَلَا تَمْنَعُكَ حِشْمَتُهُ مِنْ سُؤَالِهِ، وَلَا يُغْضِبُكَ عِنْدَ
خَوْفِكَ مِنْ قَلَالِهِ.

انْتَزَعْتَهُ لَكَ مِنْ خَوَاطِرِي، وَاخْتَرْتُهُ مِنْ غَرِيبٍ مَا اتَّصَلَ بِمَسَامِعِي، إِنْ
اخْتَصَّصْتَ بِهِ مِنْ تَحِبٍُّّ مِنْ إِخْوَانِكَ لَمْ تَفْتَقِدْهُ مِنْ دِيَوَانِكَ، وَاسْتَبَدَّدْتَ بِهِ
دُونَ أَوْلِيَائِكَ، فَضُلْتَ بِهِ عَلَى نَظَرَائِكَ، وَهُوَ كِتَابُ سَمِّيْتِهِ «كِتَابُ الزَّهْرَةِ».



١٣- فصل في الذكر الحسن من الكتب

شاعر^(١):

إن التشاغل بالدفاتر والمحا بر والكتابة والدراسة
أصل التعبّد والتز هُدِ والرّئاسة والسّياسة

* * *

علي بن محمد بن محمد بن شعيب الأشوني^(٢):
له في التنبيه على طلب الأدب واقتناء الكتب:

عليك بصحبة الأدباء يا مَنْ يحاولُ أن يسودَ على الصحابِ
فما في الناسِ أرفعُ من أديبٍ ولا في الأرضِ أرفعُ من كتابِ

* * *

عبد الملك بن إدريس الوزير المعروف بابن الجزيري
الكاتب^(٣):

واعلم بأن العلم أرفع رتبة وأجل مكتسب وأسنى مفخر
فاسلك سبيل المقتنين له تسد إن السيادة تقتنى بالدفتر

(١) ذيل تاريخ بغداد ٢/٣.

(٢) الذيل والتكملة ١/٥، ٣٨٩.

(٣) تقييد العلم ص ١٣٠ (دون البيت الرابع)، والأربع الأول في جامع بيان العلم
ص ٥٨٣.

سماه باسم الحبر حمل المحبر
ما ليس يبلغ بالجياد الضَّمَر
ما لم يفد عملاً وحسن تبصُّر
لا ترض بالتضييع دون المخسر
عملاً به وصلاة من لم يظهر

والعالم المدعو حبراً إنما
وبضمير الأقلام يبلغ أهلها
والعلم ليس بنافع أربابه
فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها
سيان عندي علم من لم يستفد

* * *

شاعر^(١):

إذا ذكر الناس لم يذكروا
بلفظ ينظم أو ينثر
ويا ربما كسد الجوهر
لمبصره كوكب أزهر

تميز بعلمك عن عصبه
وحيّ الطروس وروّ النفوس
فعلمك ذا جوهر نافع
وذكرك باقي به ما بدا

* * *

محمد العيد^(٢):

أَوْصَالُهُمْ - وَلَهُمْ فِي الْكَوْنِ آثَارُ
وَمَا يُؤَثَّرُ فِي السَّالِينَ تَذْكَارُ
أَنْ أَصْبَحُوا وَهُمْ فِي الْكُتُبِ أَخْبَارُ

مَاتَ الْأَيِّمَةُ أَهْلُ الْعِلْمِ - لَا بَلِيَتْ
هُمْ خَلَفُوا الْعِلْمَ تَذْكَاراً لِأَنْفُسِهِمْ
قَدْ أَفْعَمُوا الْكُتُبَ أَخْبَاراً وَمَا لَبَثُوا

* * *

شاعر^(٣):

وإن أضحووا رفاتاً في القبور

أرى العلماء أطولنا حياة

(١) تقييد العلم ص ١٤٥ .

(٢) ديوان محمد العيد ص ٩ .

(٣) تقييد العلم ص ١١٩ .

بما ابتدعوه من علم خطير
محاسن ذكرهم عند الحضور
فإن ضيائهم ملء الصدور

أناس غيَّبوا وهم شهود
كأنهم حضور حين تجري
لئن ملئت قبورهم ظلاماً

* * *

بعض الشعراء^(١):

أن تصون العلوم والآداب
يُلْقح العقل حكمة وصواباً

صنف الكتب يبق ذكرك واحرص
إن في جوهر الخواطر علماً

* * *

بعض الشعراء^(٢):

ذكراً ولا خبراً من الأخبار
وحديثه المشهور في الأمصار
في الناس من باقي هناك وسار

لولا العلوم لما سمعت لهالك
كم من أديب حاضر في مصره
يُنسى الأنام وذو العلوم مخلد

* * *

السري بن أحمد الكندي^(٣):

سُرُجٌ يزيد على الزمان ضياءها
أحد ويذكر دائماً علماؤها
رئي القلوب من الصدى وشفائها

لا تُخدعن عن العلوم فإنها
تُنسى القرون فلا يشيد بذكرها
فاحرص على جمع العلوم فإنها

* * *

(١) تقييد العلم ص ١١٩ .

(٢) تقييد العلم ص ١٢٦ .

(٣) تقييد العلم ص ١٣٧ . مما يعزى إليه وليست في ديوانه .

وله فيما يقال^(١) :

كن للعلوم مصنفاً أو جامعاً
كم من أديب ذكره بين الورى
وأرى الأديب يهابه أعداؤه
ينسى أو اخرنا الأوائل كلهم

يبقى لك الذكر الجميل مخلدا
غَضٌّ وقد أودى به صرف الردى
ويعذه السادات فيهم سيدا
إلا أخا العلم الذي جاز المدى

* * *

ناصريف اليازجي^(٢) :

لَعَمْرُكَ لَيْسَ فَوْقَ الْأَرْضِ بَاقٍ
وَمَا لِلْمَرْءِ حَظٌّ غَيْرُ قُوتٍ
وَمَا لِلْمَيِّتِ إِلَّا قَيْدُ بَاعٍ
وَكَمْ يَمْضِي الْفِرَاقُ بِلَا لِقَاءٍ
أَضَلُّ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا سَبِيلًا
وَأَخْسَرُ مَا يَضِيعُ الْعُمْرُ فِيهِ
وَأَفْضَلُ مَا اشْتَغَلْتَ بِهِ كِتَابٌ
وَعِشْرَةُ حَازِقٍ فَطِنٍ حَكِيمٍ
هُنَاكَ الْمَجْدُ يَنْهَضُ مِنْ خُمُولٍ
وَيُنْشِي الذِّكْرَ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى

وَلَا مَمَّا قَضَاهُ اللَّهُ وَاقٍ
وَتَوْبٍ فَوْقَهُ عَقْدُ النِّطَاقِ
وَلَوْ كَانَتْ لَهُ أَرْضُ الْعِرَاقِ
وَلَكِنْ لَا لِقَاءَ بِلَا فِرَاقٍ
مُحِبٌّ بَاتَ مِنْهَا فِي وَثَاقٍ
فُضُولُ الْمَالِ تُجْمَعُ لِلْرِفَاقِ
جَلِيلٌ نَفْعُهُ حُلُوُّ الْمَذَاقِ
يُفِيدُكَ مِنْ مَعَانِيهِ الدِّقَاقِ
بِصَاحِبِهِ إِلَى أَعْلَى الطَّبَاقِ
يَقُومُ بِهِ عَلَى قَدَمٍ وَسَاقِ

(١) تقييد العلم ص ١١٩ ، وليست في ديوانه .

(٢) ديوان ناصريف اليازجي ص ٢٤٥ ، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٩ ، وكلمات

من ذهب ص ٦٦٣ ، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٨ ، وموسوعة روائع الحكمة
ص ٥٠٩ .

مَضَى ذِكْرُ الْمُلُوكِ بِكُلِّ عَصْرِ
وَكَمْ عِلْمٍ جَنَى مَالاً وَجَاهاً
وَمَا نَفَعُ الدَّرَاهِمَ مَعَ جَهُولٍ
إِذَا حُمِلَ التُّضَارُّ عَلَى نِيَابٍ
وَأَقْبَحُ مَا يَكُونُ غِنَى بِخِيلٍ
إِذَا مَلَكَتْ يَدَاهُ الْفَلَسَ أَمْسَى
أَلَا يَا جَامِعَ الْأَمْوَالِ هَلَا
رَأَيْتُكَ تَطْلُبُ الْأَبْحَارَ جَهْلًا
إِذَا أَحْرَزْتَ مَالَ الْأَرْضِ طُرًّا
أَتَاكُلُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ كَبْشٍ
فُضُولُ الْمَالِ ذَاهِبَةٌ جُزَافًا
يَقْبِضُ سُدَى وَقَدْ يَسْطُو عَلَيْهَا
مَضَتْ دَوْلُ الْعُلُومِ الزَّهْرُ قَدَمًا
وَأَبْرَزَتْ الْخَلَاعَةُ مِعْصِمَيْهَا
فَأَصْبَحَ يَدَّعِي بِالسَّنْبِقِ جَهْلًا
إِذَا هَلَكَتْ رِجَالُ الْحَيِّ أَضْحَى
أَسْرُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا جَهُولُ
وَأَتَعَبُهُمْ رَيْسُ كُلِّ يَوْمٍ
وَأَيْسَرُ كُلِّ مَوْتٍ مَوْتُ عَبْدٍ
فَلَيْسَ لَهُ عَلَى مَا فَاتَ حُزْنٌ

وَذَكَرُ السُّوقَةِ الْعُلَمَاءِ بَاقٍ
وَكَمْ مَالٍ جَنَى حَرْبَ السِّبَاقِ
يُبَاعُ بِدِرْهِمٍ وَقَتِ التَّفَاقِ
فَأَيُّ الْفَخْرِ يُحَسِّبُ لِلنِّيَابِ
يَغْصُ وَمَاؤُهُ مِلءُ الزُّقَاقِ
رَقِيقًا لَيْسَ يَطْمَعُ فِي الْعَتَاقِ
جَمَعْتَ لَهَا زَمَانًا لَافِتِرَاقٍ
وَأَنْتَ تَكَادُ تَغْرُقُ فِي السَّوَاقِ
فَمَا لَكَ فَوْقَ عَيْشِكَ مِنْ تَرَاقٍ
وَتَلْبَسُ أَلْفَ طَاقٍ فَوْقَ طَاقٍ
كَمَاءٍ صُبَّ فِي كَأْسِ دِهَاقٍ
فَيَقْصُصُ مِلَّاهَا عِنْدَ أَنْدِفَاقٍ
وَقَامَتْ دَوْلَةُ الصُّفْرِ الرِّقَاقِ
وَبَاتَ الْجَهْلُ مَمْدُودَ الرِّوَاقِ
زَعَانِفُ يَعْجِزُونَ عَنِ اللَّحَاقِ
صَبِيُّ الْقَوْمِ يَحْلِفُ بِالطَّلَاقِ
يُفَكِّرُ فِي أَصْطِبَاحٍ وَأَغْتِبَاقِ
يَكُونُ لِكُلِّ مَلْسُوعٍ كِرَاقٍ
فَقِيرٌ زَاهِدٌ حَسَنُ السِّيَاقِ
وَلَيْسَ بِخَائِفٍ مِمَّا يُلَاقِي

* * *

أبو سليمان جليس ثعلب^(١) :

لقد ضلّت حُلوم من أناس يَرَوْنَ العلم إفلاساً وشوما
كسانا علمنا فخراً وجوداً وبالجَهل اكتسبوا عجزاً ولوما
هم الثيران إن فكرت فيهم فكيف بأن ترى ثوراً عليما
فجانبيهم ولا تعتب عليهم وكن للكتب دونهم نديما

* * *

العتابي^(٢) :

كان العتابي جالساً ذات يوم ينظر في كتاب، فمر به بعض جيرانه فقال: أي شيء ينفع العلم والأدب من لا مال له؟! فقال العتابي:

يا قاتل الله أقواماً إذا ثَقُّوا ذا اللب ينظر في الآداب والحكم
قالوا - وليس بهم إلا نفاسته: أنافعُ ذا من الاقتار والعدم؟
وليس يدرون أن الحظ ما حرموا لحاهم الله من علم ومن فهم

* * *

معتمر بن سليمان وأبوه^(٣) :

حدث أحمد بن سعيد قال: قال معتمر بن سليمان: كتب إلي أبي وأنا بالكوفة: يا بني اشتر الكتب واكتب العلم، فإن العلم يبقى والدنانير تذهب.

(١) جامع بيان العلم ص ٩٩ .

(٢) تاريخ بغداد ٤٣٩/١١، والآيات ١ و ٢ في جامع بيان العلم ص ٩٩ بلا عزو .

(٣) جامع بيان العلم ص ٩٩، والخبر دون الشعر في تقييد العلم ص ١١٢، وروضة العقلاء ص ٣٩ .

وقال أحمد: وأنشدني غير واحد في هذا المعنى لبعض المحدثين:

العلم زين وكنز لا نفاذ له	نعم القرين إذا ما عاقلاً صحبا
قد يجمع المرء مالاً ثم يسلبه	عما قليل فيلق الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً	فلا يحاذر فوتاً لا ولا هربا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه	لا تعدلن به دُرّاً ولا ذهباً



١٤- فصل في حسراتهم على الكتب ومصيرها بعد موتهم

عبد الله بن علي الحنبلي^(١) :

نَشِخُ عَلَى الْكُتُبِ مِنْ لَمَسَةٍ وَمِنْ نَظَرَةٍ تُنْظَرُ
وَتُبْصَرُ مَجْهُولَةً بَعْدَنَا بِأَيْدِي الْجَهُولِ وَمَنْ يَخْبُرُ
كَذَا سِيرَةَ الْكُتُبِ، يَا ذَا الَّذِي لَهَا مِنْ جَمِيعِ الْوَرَى يَذْخَرُ

* * *

الحسن بن علي ابن مقله^(٢) :

رَأَيْتُ كِتَابًا بِأَيْدِي النِّسَاءِ فَقُلْتُ عَزِيزٌ عَلَى مَنْ ثَرَى
يَقْلِبُهُ النَّاسُ جَهْلًا بِهِ يُرَادُ بِهِ الْبَيْعُ مَا يُشْتَرَى
فَقُلْتُ كَذَا كُتِبْنَا بَعْدَنَا إِذَا مَا أَهَالُوا عَلَيْنَا الثَّرَى

* * *

عسكر بن القاسم بن محمد المخرمي :

كان إذا حصل له كتاب أنشد^(٣) :

كَمْ مِنْ كِتَابٍ سَهَرْتُ فِي طَلَبِهِ وَكُنْتُ مِنْ أَبْخَلِ الْخَلَائِقِ بِهِ

(١) خريدة القصر (العراق) ٢٧/٣، وملء العيبة ١٩٣/٥ .

(٢) الوافي ١٤٥/١٢ .

(٣) ذيل تاريخ بغداد ٢/٢٥٩، والمخللة ص ٣٠٧، والكتز المدفون ص ٤٠٦ .

حتى إذا متّ وانقضى أجلي صار لغيري وعْدٌ من كتبه

أبو الفضل يوسف بن سلمان القرشي^(١) :

أرى كُتُباً قد طال في جمعها جُهدِي وزادَ إليها قَبْلَ تحصيلها وَجْدِي
تمنيتُ فيها نظرةً فحُرمْتُها وجاءتْ عَقِيبَ المنعِ عَفْواً بلا كَدِّ
فأصبحتُ فيها ناظراً مُتَحَكِّماً جواداً بما فيها على الصادقِ الوُدِّ
أُقلِّبُها من بَعْدِ غيري مُحَكِّماً فيا ليت شعري مَنْ يُقَلِّبُها بَعْدِي

وللفقيه نصر بن عبد الرحمن الإسكندري الفزارى في معناه^(٢) :

أُقلِّبُ كُتُباً طالما قد جَمَعْتُها وَأَفْنَيْتُ فيها العَيْنَ والعَيْنَ واليَدَا
وأصبحتُ ذا ضَنْبٍ بها وتمسكٍ لِعَلِمِي بما قد صُنِفَتْ فيها مُنْضَداً
وأحذرُ جَهْدِي أن تُتَالَ بنائلُ مُبِيرٍ وأن يَغْتَالَها غائلُ الرَدَى
وأعلمُ حقاً أنني لستُ باقياً فيا ليت شعري مَنْ يُقَلِّبُها غداً

درويش محمد بن علي^(٣) :

وذكر البوريني في ترجمة درویش محمّد بن علي وقيل اسمه محمد أبو المعالي الطالوي: أنه كان قبل موته بأيام عمّر في داخل بيته بمحلة التعديل بيتاً صغيراً وكان يقول: هذا البيت بيت الفتاوى وموضع الكتب.

(١) خريدة القصر (مصر) ٢/ ٢٢٥، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٨.

(٢) خريدة القصر (مصر) ٢/ ٢٢٥ (والشام) ٢/ ٨٦، والوافي ٢٧/ ٧١، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٨.

(٣) خلاصة الأثر ٢/ ١٥٥.

ومن العجب أنه نقل كتبه إلى البيت المذكور، فكان يصفُّها ويرتبها وينظر فيها ويقلبها وهو ينشد هذا البيت وأظنه من نظمه ونتائج فهمه وهو:

أقلبها حفظاً لها وصيانة فيا ليت شعري من يقلبها بعدي
مات بعد ذلك بعشرين يوماً رحمه الله تعالى.

* * *

محمد بن سلامة بن الحسين المقرئ^(١):

إِنِّي لِمَا أَنَا فِيهِ مِنْ مُنَافَسَتِي	فِي مَا شُغِفْتُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ
لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْمَوْتَ يُذَرِّكُنِي	مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْقُضِي مِنْ جَمْعِهَا أَرْبِي
وَلَيْسَ يَنْفَعَنِي مِمَّا حَوَتْهُ يَدِي	شَيْءٌ مِنَ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالذَّهَبِ
وَلَا أُؤَمِّلُ زَاداً لِلْمَعَادِ سِوَى	عِلْمٍ عَمِلْتُ بِهِ أَوْ رَأَيْتِي بِأَبِي



(١) تاريخ دمشق ٢٧٧/٤٥، ومعجم الأدباء ٥٩/١، وتاريخ إربل ٣٢١/١، وتاريخ حوادث الزمان ١٢٩/١، ودون نسبة في معجم الألقاب ٢٨٢/٥، ومرآة الزمان ٥٣٢/٢، وتاريخ الإسلام ٨٥/٣٥.

المصادر والمراجع

[أحرف الألف]

- ١ — الآداب الشرعية: محمد بن مفلح المقدسي، (توفي ٧٦٣هـ)، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.
- ٢ — الأجوبة المسكتة: ابن أبي عون إبراهيم بن محمد، (توفي ٣٢٢)، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، مصر — مكتبة النهضة، ١٩٨٥م.
- ٣ — الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب، (توفي ٧٧٦)، تحقيق محمد عبد الله عنان، مصر — مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.
- ٤ — إحكام صناعة الكلام: محمد عبد الغفور الكلاعي، (توفي ٥٤٥ أو ٥٥٠)، تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت — عالم الكتب، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.
- ٥ — أخبار الدولة العباسية: (مؤلف من القرن الثالث الهجري)، تحقيق عبد العزيز الدوّري وعبد الجبار المطلبي، بيروت — دار الطليعة، ١٩٧١م.
- ٦ — أخبار الطراف والمتماجنين: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد أنيس مهرات، دمشق — دار الحكمة، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- ٧ — أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، (توفي ٥٧٦)، تحقيق إحسان عباس، بيروت — دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٦٣م.
- ٨ — اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلى: ابن سعيد علي بن موسى، (توفي ٦٨٥)، تحقيق إبراهيم الأبياري، مصر — دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- ٩ — أدب الإملاء والاستملاء: عبد الكريم بن محمد السمعاني، (توفي ٥٦٢)، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨١م.
- ١٠ — أدب الدنيا والدين: علي بن محمد بن حبيب الماوردي، (توفي ٤٥٠)، تحقيق ياسين محمد السواس، دمشق — دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.
- ١١ — الأدب اليمني: عبد الله محمد الحبشي، الدار اليمنية، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

- ١٢ — الأذكياء: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، بيروت — مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
- ١٣ — أسرار الحكماء: ياقوت بن عبد الله المستعصمي، (توفي ٦٩٨)، تحقيق إبراهيم صالح، دمشق — دار البشائر، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- ١٤ — إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين: عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، (توفي ٧٤٣)، تحقيق عبد المجيد دياب، السعودية — مركز الملك فيصل، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.
- ١٥ — أشعة ملونة (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧م)، بيروت — مكتبة المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.
- ١٦ — أصداء النيل (شعر): عبد الله الطيّب.
- ١٧ — اضحك: مجدي صابر، بيروت — دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- ١٨ — اضحك مع آدم وحواء: نضال وشذى الحميداوي، بغداد — مكتبة النهضة، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
- ١٩ — اضحك مع الحمقى والمجانين: نبيه الداموري، بيروت — العالمية للكتاب، ١٩٨٩م.
- ٢٠ — أبو العتاهية أشعاره وأخباره: إسماعيل بن القاسم، (توفي ٢١١)، تحقيق شكري فيصل، دمشق — دار الملاح، (د. ت).
- ٢١ — الإعجاز والإيجاز: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق محمد التونجي، بيروت — دار النفائس، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- ٢٢ — أعلام مالقة: أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، (توفي ٦٣٦)، تحقيق عبد الله المرباط، بيروت — دار الغرب، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- ٢٣ — إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ، (توفي ١٩٧٠)، تحقيق محمد كمال، حلب — دار الفكر العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.
- ٢٤ — الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم طوقان، (توفي ١٩٤١)، بيروت — دار النهضة العربية، (د. ت).
- ٢٥ — الأعمال الشعرية الكاملة: صالح جودت، (توفي ١٩٧٦)، بيروت — دار العودة، ١٩٨٧م.

- ٢٦ — الأعمال الشعرية الكاملة: محمد حسين آل ياسين، (توفي)، بيروت — دار مكتبة الحياة، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
- ٢٧ — الأعمال الشعرية الكاملة: نزار قباني، (توفي ١٩٩٨)، دمشق — منشورات نزار قباني، الطبعة الثانية عشر ١٩٨٣م.
- ٢٨ — الأعمال الكاملة: للشاعر محمد بن علي السنوسي، (توفي ١٩٨٧)، السعودية — نادي جازان الأدبي، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
- ٢٩ — أعيان العصر وأعوان النصر: خليل بن أيبك الصفدي، (توفي ٦٧٤)، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دمشق — دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
- ٣٠ — أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلّاد — (توفي ٢٨٢)، تحقيق أنور أبو سويلم، الأردن — دار عمّار، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- ٣١ — أغاريد السّحر (شعر): طاهر الزمخشري، (توفي ١٩٨٧)، مصر — مطبعة مصر، ١٩٥٨م.
- ٣٢ — أغاريد الطيور (شعر): إسماعيل أبو شقرة، الكويت — مكتبة شركة كاظمة، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
- ٣٣ — الأغاني: علي بن الحسين الأصبهاني، (توفي ٣٥٦)، مصر — مصوّرّة دار الكتب، (د. ت).
- ٣٤ — الأغوار (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، بيروت — دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٦١م.
- ٣٥ — أبو الفتح البستي حياته وشعره: علي بن محمد بن الحسين، (توفي ٤٠٠)، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت — دار الأندلس، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
- ٣٦ — أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب: حسين عبد الساتر الدّعبي، بيروت — دار الراتب الجامعية، ١٩٩٣م.
- ٣٧ — الأمالي الخميسية: يحيى بن الحسين الشجري، (توفي ٤٩٩)، بيروت — عالم الكتب، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.
- ٣٨ — أمالي القالي: إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، (توفي ٣٥٦)، مصر — مطبعة دار الكتب، الطبعة الثانية ١٩٢٦م.

- ٣٩ — أمالي المرتضى: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، (توفي ٤٣٦)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت — دار الكتاب العربي، (د. ت.).
- ٤٠ — إنباء الغمر بأبناء العمر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (توفي ٨٥٢)، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م.
- ٤١ — إنباء الرواة على أنباء النحاة: علي بن يوسف القفطي، (توفي ٦٢٤)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر — دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.
- ٤٢ — الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: يوسف بن عبد البر القرطبي، (توفي ٤٦٣)، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت.).
- ٤٣ — الأنس: سمير شيخاني، بيروت — مؤسسة عز الدين، الطبعة الثانية ١٩٨٧ م.
- ٤٤ — أنوار الربيع في أنواع البديع: علي صدر الدين بن معصوم، (توفي ١١٢٠)، تحقيق شاكر هادي شكر، النجف — مطبعة النعمان، الطبعة الأولى ١٩٦٨ م.
- ٤٥ — أنيس الجليس: محمود العابدي، الأردن — مطبعة جمعية عمال المطابع (د. ت.).
- ٤٦ — أوراق عمر (شعر): غادة سلهوب.
- ٤٧ — أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، (توفي ٧٩٥)، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع، بيروت — دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٩٩١ م.

[حرف الباء]

- ٤٨ — البخلاء: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق طه الحاجري، مصر — دار المعارف، الطبعة الخامسة ١٩٩٠ م.
- ٤٩ — بدائع البدائ: علي بن ظافر الأزدي، (توفي ٦١٣)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر — مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠ م.
- ٥٠ — البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير، (توفي ٧٧٤)، بيروت — مكتبة المعارف، الطبعة السادسة ١٩٨٥ م.
- ٥١ — البصائر والذخائر: علي بن محمد بن العباس التوحيدي، (توفي ٤١٤)، تحقيق وداد القاضي، بيروت — دار صادر، الطبعة الأولى (د. ت.).
- ٥٢ — بغية الطلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد بن أبي جرادة بن العديم، (توفي ٦٦٠)، تحقيق سهيل زكار، دمشق — مطابع دار البعث، ١٩٨٨ م.

- ٥٣ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت — المكتبة العصرية، (د. ت.).
- ٥٤ — البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (توفي ٨١٧)، تحقيق محمد المصري، الكويت — مركز المخطوطات، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.
- ٥٥ — بهجة المجالس وأنس المجالس: يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، (توفي ٤٦٣)، تحقيق محمد مرسى الخولي، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية (د. ت.).
- ٥٦ — البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة (د. ت.).
- ٥٧ — بين الأعاصير (شعر): محمد الأسمر، (توفي ١٩٥٦)، مصر — دار الفكر العربي، (د. ت.).

[حرف الناء]

- ٥٨ — تاج التراجم: قاسم بن قطلوبغا السوداني، (توفي ٨٧٩)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دمشق — دار القلم، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م.
- ٥٩ — تاريخ ابن الوردي: عمر بن مظفر بن الوردي، (توفي ٧٤٩)، تحقيق محمد مهدي الخرسان، النجف — المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م.
- ٦٠ — تاريخ إربل: المبارك ابن أحمد ابن المستوفي، (توفي ٦٣٧)، تحقيق سامي بن السيد خماس الصقار، العراق — وزارة الثقافة، ١٩٨٠ م.
- ٦١ — تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد الذهبي، (توفي ٧٤٨)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت — دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.
- ٦٢ — تاريخ بغداد: أحمد بن علي بن ثابت بن الخطيب البغدادي، (توفي ٤٦٣)، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت.).
- ٦٣ — تاريخ ثغر عدن: عبد الله الطيب بن أبي مخرمة، (توفي ٩٤٧)، مصر — مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية ١٩٩١ م.
- ٦٤ — تاريخ حوادث الزمان وأبنائه: محمد بن إبراهيم الجزري، (توفي ٦٩٩)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت — المكتبة العصرية، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.

- ٦٥ — تاريخ الخلفاء: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت — المكتبة العصرية، ١٩٨٩ م.
- ٦٦ — تاريخ قضاة الأندلس: علي بن عبد الله بن الحسن النباهي، (توفي بعد ٧٩٢)، بيروت — دار الآفاق الجديدة، الطبعة الخامسة ١٩٨٣ م.
- ٦٧ — تاريخ مدينة دمشق: علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، (توفي ٥٧١)، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي، بيروت — دار الفكر، ١٩٩٥ م.
- ٦٨ — تبصرة الغافل وتذكرة العاقل: محمد الطيب المريني، (توفي ١١٤٥)، تحقيق بسام محمد بارود، الإمارات — المجمع الثقافي، ١٩٩٩ م.
- ٦٩ — تحسين القبيح: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق شاعر العاشور، العراق — وزارة الأوقاف، الطبعة الأولى ١٩٨١ م.
- ٧٠ — تحفة أهل الفكاهة في المنادمة والتزاهة: محمد أفندي سعيد، المطبعة الشرقية، الطبعة الثانية ١٣٢٦ هـ.
- ٧١ — تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب: خليل بن أييك الصفدي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق إحسان خلوصي وزهير حميدان، دمشق — وزارة الثقافة، ١٩٩١ م.
- ٧٢ — تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد الذهبي، (توفي ٧٤٨)، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت.).
- ٧٣ — التذكرة الحمدونية: محمد بن الحسن بن حمدون، (توفي ٥٦٢)، تحقيق إحسان عباس، بيروت — دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٧٤ — تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، (توفي ٧٣٣)، تحقيق السيد محمد هاشم الندوي، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت.).
- ٧٥ — تذكرة النبيه في أيام المنصور ونبيه: الحسن بن عمر بن حبيب، (توفي ٧٧٩)، تحقيق محمد محمد أمين، مصر — دار الكتب، ١٩٧٦.
- ٧٦ — تراجم مغربية من مصادر مشرقية: تحقيق محمد بن شريفة، المغرب — مطبعة النجاح، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٧٧ — ترتيب المدارك في تقريب المسالك: القاضي عياض بن عياض اليحصبي، (توفي ٥٤٤)، تحقيق أحمد بكيه محمود، بيروت — دار مكتبة الحياة، ١٩٦٧ م.

- ٧٨ — تعليم المتعلم في طريق التعلّم: برهان الدين الزرنوجي، (كان حيّاً قبل ٦٠٠)، تحقيق صلاح محمد ونذير حمدان، دمشق — دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.
- ٧٩ — تقييد العلم: أحمد بن علي بن ثابت بن الخطيب البغدادي، (توفي ٤٦٣)، تحقيق يوسف العث، دار إحياء السنة النبوية، الطبعة الثانية ١٩٧٤ م.
- ٨٠ — التكملة لكتاب الصلّة: محمد بن عبد الله بن الأتبار، (توفي ٦٥٨)، تحقيق عبد السلام الهراس، بيروت — دار الفكر، ١٩٩٥ م.
- ٨١ — تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: جمال الدين محمد بن نباتة المصري، (توفي ٧٦٨)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت — المكتبة العصرية، ١٩٨٦ م.
- ٨٢ — التمثيل والمحاضرة: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ليبيا — الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣ م.
- ٨٣ — تهذيب الأسرار: عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الخرکوشي، (توفي ٤٠٧)، تحقيق بسام محمد بارود، أبو ظبي — المجمع الثقافي، ١٩٩٩ م.
- ٨٤ — توشيح الديباج وحلية الابتهاج: بدر الدين محمد بن يحيى القرافي، (توفي ٩٤٦)، تحقيق أحمد الشتيوي، بيروت — دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٨٣ م.
- ٨٥ — التّيار (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، دمشق — مطبعة اليقظة العربية، (د. ت.).

[حرف الثاء]

- ٨٦ — ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر — دار المعارف، (د. ت.).

[حرف الجيم]

- ٨٧ — جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد البر القرطبي، (توفي ٤٦٣)، تحقيق عبد الكريم الخطيب، مصر — دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية ١٩٨٢ م.
- ٨٨ — جامع العلوم والحكم: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، (توفي ٧٩٥)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٩٩٥ م.

- ٨٩ — الجامع في الحث على حفظ العلم: تحقيق محمود بن محمد الحدّاد، مصر — مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- ٩٠ — الجامع لأخلاق الرّواي وأداب السامع: أحمد بن علي بن ثابت بن الخطيب البغدادي، (توفي ٤٦٣)، تحقيق محمد عجّاج الخطيب، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م.
- ٩١ — المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي: معافى بن زكريا النهرواني، (توفي ٣٩٠)، تحقيق محمد مرسي الخولي وإحسان عباس، بيروت — عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨١م.
- ٩٢ — جمع الجواهر في الملح والنوادر: إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، (توفي ٤٥٣)، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت — دار الجيل، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.
- ٩٣ — الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن محمد القرشي، (توفي ٧٧٥)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٩٩٣م.
- ٩٤ — الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد: يوسف بن الحسن بن عبد الهادي، (توفي ٩٠٩)، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مصر — مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- [حرف الحاء]
- ٩٥ — الحث على طلب العلم والاجتهاد في طلبه: الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، (توفي بعد ٣٩٥)، تحقيق يوسف محمد فتحي، مصر — دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- ٩٦ — حسن التوسل إلى صناعة الترسّل: شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي، (توفي ٧٢٥)، تحقيق أكرم عثمان يوسف، العراق — وزارة الثقافة، ١٩٨٠م.
- ٩٧ — الحكمة الخالدة: أحمد بن محمد مسكويه، (توفي ٤٢١)، تحقيق عبد الرحمن بدوي، بيروت — دار الأندلس، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.
- ٩٨ — الحلة السيرة: محمد بن عبد الله ابن الأبار القضاعي، (توفي ٦٥٨)، تحقيق حسين مؤنس، مصر — دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

- ٩٩ — حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصبهاني، (توفي ٤٣٠)، بيروت — دار الكتاب العربي، الطبعة الخامسة ١٩٨٧م.
- ١٠٠ — حماس ونشوة (شعر): جمال عبد اللطيف، مصر — مكتبة الكليات الأزهرية (د. ت).
- ١٠١ — الحماسة الشجرية: هبة الله بن علي بن حمزة العلوي، (توفي ٥٤٢)، تحقيق عبد المعين المويلحي وأسماء الحمصي، دمشق — وزارة الثقافة، ١٩٧٠م.
- ١٠٢ — حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء: عبد الله بن محمد العبدلكاني الزوزني، (توفي ٤٣١)، تحقيق محمد بهي الدين سالم، مصر — دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- ١٠٣ — حياة الحيوان الكبرى: محمد بن موسى الدميري، (توفي ٨٠٨)، بيروت — دار الفكر، (د. ت).
- ١٠٤ — الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت — المجلس العلمي الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٩٦٩م.

[حرف الخاء]

- ١٠٥ — خاص الخاص: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق حسن الأمين، بيروت — دار مكتبة الحياة، (د. ت).
- ١٠٦ — خريدة القصر وجريدة العصر (قسم أصفهان): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق عدنان محمد آل طعمة، إيران — مرآة التراث، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- ١٠٧ — خريدة القصر وجريدة العصر (قسم الشام): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق شكري فيصل، دمشق — المطبعة الهاشمية، ١٩٥٥م.
- ١٠٨ — خريدة القصر وجريدة العصر (قسم مصر): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، (د. ت).
- ١٠٩ — خريدة القصر وجريدة العصر (قسم العراق): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد بهجة الأثري، العراق — المجمع العلمي، ١٩٥٥م.

١١٠ - خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، مصر - دار نهضة مصر، (د. ت).

١١١ - خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العمروسي، الدار التونسية، ١٩٦٦ م.

١١٢ - خزنة الأدب وغاية الأرب: علي بن محمد بن حجة الحموي، (توفي ٨٣٧)، تحقيق عصام شعيتو، بيروت - دار ومكتبة الهلال، الطبعة الثانية ١٩٩١ م.

١١٣ - خطط المقرئزي: أحمد بن علي المقرئزي، (توفي ٨٤٥)، مصر - دار التحرير، (د. ت).

١١٤ - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل فضل الله المحبتي، (توفي ١١١١)، بيروت - دار صادر، (د. ت).

[حرف الدال]

١١٥ - درة الحجال في أسماء الرجال (ذيل وفيات الأعيان): أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، (توفي ١٠٢٥)، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، مصر - دار التراث، الطبعة الأولى ١٩٧٠ م.

١١٦ - الدرّة الخطيرة في شعراء الجزيرة: علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي، (توفي ٥١٥)، تحقيق بشير البكوش، بيروت - دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.

١١٧ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، (توفي ٨٥٢)، تحقيق محمد سيد جاد الحق، مصر - أم القرى للنشر، (د. ت).

١١٨ - ذمية القصر وعصرة أهل العصر: علي بن الحسن بن علي الباخرزي، (توفي ٤٦٧)، تحقيق محمد التونجي، بيروت - دار الجيل، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م.

١١٩ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون المالكي، (توفي ٧٩٩)، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، مصر - دار التراث، ١٩٧٢ م.

- ١٢٠ — ديوان أحمد خير الدين: (ولد سنة ١٩٠٩)، تونس — الدار التونسية، ١٩٧٥ م.
- ١٢١ — ديوان أحمد الزّين: (توفي ١٩٤٧)، مصر — مطبعة لجنة التأليف والنشر، الطبعة الأولى ١٩٥٢ م.
- ١٢٢ — ديوان أزهار الرّبا في شعر الصّبا: علي أحمد باكثير، (توفي ١٩٦٩)، تحقيق محمد أبو بكر حميد، اليمن — الدار اليمنية، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.
- ١٢٣ — ديوان إسماعيل صبري: (توفي ١٩٥٣)، تحقيق محمد القصاص وعامر محمد وأحمد كمال زكي، بيروت — دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- ١٢٤ — ديوان الأسمر: محمد الأسمر، (توفي ١٩٥٦)، مصر — مطبعة البابي الحلبي، (د. ت).
- ١٢٥ — ديوان أشعار الأمير أبي العباس: عبد الله بن محمد المعتر بالله، (توفي ٢٩٦هـ)، تحقيق محمد بديع شريف، مصر — دار المعارف، ١٩٧٧ م.
- ١٢٦ — ديوان الإمام الشافعي: محمد بن إدريس بن العباس الشافعي، (توفي ٢٠٤)، تحقيق إميل بديع يعقوب، بيروت — دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٩١ م.
- ١٢٧ — ديوان الإمام عبد الله بن المبارك: (توفي ١٨١)، تحقيق مجاهد مصطفى بهجت، مصر — دار الوفاء، الطبعة الثانية ١٩٨٩ م.
- ١٢٨ — ديوان بدر شاكر السيّاب: (توفي ١٩٦٤)، بيروت — دار العودة، ١٩٨٦ م.
- ١٢٩ — ديوان جحظة البرمكي: أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي، (توفي ٣٢٤)، تحقيق جان عبد الله توما، بيروت — دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ١٣٠ — ديوان جميل صدقي الزهاوي: (توفي ١٩٣٦)، بيروت — دار العودة، الطبعة الثانية ١٩٧٩ م.
- ١٣١ — ديوان الحاج عبد الحسين الأزري: (توفي ١٩٥٤)، تحقيق مكّي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، بيروت — مؤسسة النعمان، (د. ت).
- ١٣٢ — ديوان حسن عبد الله القرشي: ، (مولود سنة ١٩٢٧)، بيروت — دار العودة، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م.
- ١٣٣ — ديوان الحكيم أبي الصّلت: أمية بن عبد العزيز الدّاني، (توفي ٥٢٩)، تحقيق محمد المرزوقي، تونس — دار بو سلامة، ١٩٧٩ م.

- ١٣٤ — ديوان خليل مردم بك: (توفي ١٩٥٩)، تحقيق عدنان مردم بك، بيروت — دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.
- ١٣٥ — ديوان الرّصافي: معروف الرّصافي، (توفي ١٩٤٥)، بيروت — دار مكتبة الحياة، (د. ت).
- ١٣٦ — ديوان الزّركلي: خير الدين محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، (توفي ١٣٩٦)، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م.
- ١٣٧ — ديوان السّري الرّفاء: السّري بن أحمد بن السّري الكندي الرّفاء، (توفي ٥٢٧)، تحقيق حبيب حسين الحسيني، العراق — وزارة الثقافة، ١٩٨١ م.
- ١٣٨ — ديوان الشريف المرتضى: علي بن الحسين بن موسى المعروف بالمرتضى، (توفي ٤٣٦)، تحقيق رشيد الصفار، مصر — مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٨ م.
- ١٣٩ — ديوان الصّاحب بن عبّاد: إسماعيل بن عبّاد بن العباس، (توفي ٣٨٥)، تحقيق محمد حسن آل ياسين، إيران — مؤسسة قائم آل محمد، الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ.
- ١٤٠ — ديوان صفي الدين الحلّي: عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي، (توفي ٧٥٢)، بيروت — دار صادر، (د. ت).
- ١٤١ — ديوان صقر الشيب: (توفي ١٩٦٣)، تحقيق أحمد البشر الرومي، الكويت — مكتبة الأمل، (د. ت).
- ١٤٢ — ديوان صلاح عبد الصبور: (توفي ١٩٨١)، بيروت — دار العودة، ١٩٨٨ م.
- ١٤٣ — ديوان عامر: عامر البحيري، مصر — الهيئة المصرية، ١٩٨٢ م.
- ١٤٤ — ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي: عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي، (توفي أواخر القرن التاسع)، تحقيق جمعة شنيخة ومحمد الهادي، بيت الحكمة، الطبعة ١٩٨٨ م.
- ١٤٥ — ديوان العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، (توفي بعد ٤٠٠)، تحقيق جورج قنازع، دمشق — مجمع اللغة العربية، ١٩٧٩ م.
- ١٤٦ — ديوان العقاد: عباس محمود العقاد، (توفي ١٩٦٤)، بيروت — المكتبة العصرية، (د. ت).
- ١٤٧ — ديوان علي الجارم: (توفي ١٩٤٩)، مصر — دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٩٠ م.

- ١٤٨ — ديوان علي بن الجهم: (توفي ٢٤٩)، تحقيق خليل مردم بك، بيروت — دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- ١٤٩ — ديوان كشاجم: محمود بن الحسين بن إبراهيم بن السندي بن شاهك، (توفي ٣٦٠)، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، مصر — مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- ١٥٠ — ديوان لزوم ما لا يلزم: أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري، (توفي ٤٤٩)، تحقيق وحيد كباية وحسن حمد، بيروت — دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
- ١٥١ — ديوان لسان الدين ابن الخطيب السلماني: محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، (توفي ٧٧٦)، تحقيق محمد مفتاح، الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.
- ١٥٢ — ديوان مجير الدين ابن تميم: محمد بن يعقوب بن علي الأسعدي، (توفي ٦٨٤)، تحقيق هلال ناجي وناظم رشيد، بيروت — عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- ١٥٣ — ديوان محمد العيد محمد علي خليفة: (توفي ١٩٠٤)، الجزائر — الشركة الوطنية، ١٩٦٧م.
- ١٥٤ — ديوان المعاني: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، (توفي بعد ٤٠٠)، بيروت — دار الأضواء، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.
- ١٥٥ — ديوان ناصيف اليازجي: (توفي ١٨٧١)، بيروت — دار مارون عبود، ١٩٨٣م.
- ١٥٦ — ديوان ولي الدين يكن: (توفي ١٩٢١)، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.
- ١٥٧ — ديوان ابن الحدّاد الأندلسي: محمد بن أحمد بن خلف المعروف بالحدّاد، (توفي ٤٨٠)، تحقيق يوسف علي طويل، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- ١٥٨ — ديوان ابن حمديس: عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصّقلي، (توفي ٥٢٧)، تحقيق إحسان عباس، بيروت — دار صادر (د. ت).
- ١٥٩ — ديوان ابن دريد: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، (توفي ٣٢١)، تحقيق عمر ابن سالم، الدار التونسية، ١٩٧٣م.

- ١٦٠ — ديوان ابن زيدون ورسائله: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، (توفي ٤٦٣هـ)، تحقيق علي عبد العظيم، مصر — نهضة مصر، (د. ت).
- ١٦١ — ديوان ابن عبد ربّه الأندلسي: أحمد بن محمد بن عبد ربّه، (توفي ٣٢٨هـ)، تحقيق محمد التونجي، دمشق — مؤسسة الخافقين، الطبعة الأولى ١٩٧٧م.
- ١٦٢ — ديوان ابن قلاّس: نصر بن عبد الله بن عبد القوي اللّخمي، (توفي ٥٦٧هـ)، تحقيق سهام الفريخ، الكويت — مكتبة المعلاّ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
- ١٦٣ — ديوان ابن نباتة المصري: جمال الدين محمد بن نباتة المصري، (توفي ٧٦٨هـ)، بيروت — دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- ١٦٤ — ديوان ابن الوردي: محمد بن المظفر بن عمر الوردي، (توفي ٧٤٩هـ)، تحقيق أحمد فوزي الهيب، الكويت — دار القلم، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.
- ١٦٥ — ديوان أبي بكر الخوارزمي: محمد بن العباس الخوارزمي، (توفي ٣٨٣هـ)، تحقيق حامد صدقي، إيران — وزارة الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- ١٦٦ — ديوان أبي سلمى: عبد الكريم الكرمي، (توفي ١٩٨٠هـ)، بيروت — دار العودة، ١٩٨٩م.

[حرف الذال]

- ١٦٧ — الذخائر والتحف: القاضي أحمد بن الرشيد بن الزبير، (توفي القرن الخامس)، تحقيق محمد حميد الله، الكويت — وزارة الأعلام، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
- ١٦٨ — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: علي بن بسام الششتري، (توفي ٥٤٢هـ)، تحقيق إحسان عباس، بيروت — دار الثقافة، ١٩٧٩م.
- ١٦٩ — ذم الهوى: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧هـ)، تحقيق أحمد سلام عطا، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- ١٧٠ — ذيل تاريخ بغداد: محمد بن محمود بن الحسن بن النجار البغدادي، (توفي ٦٤٣هـ)، تحقيق قيصر فرح، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت).
- ١٧١ — ذيل ابن عبد الهادي على طبقات ابن رجب: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، (توفي ٩٠٩هـ)، تحقيق محمود بن محمد الحمّاد، الرياض — دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

- ١٧٢ — الذيل على طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، (توفي ٧٩٥)، بيروت — دار المعرفة، (د. ت).
- ١٧٣ — الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، (توفي ٧٠٣)، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة، بيروت — دار الثقافة، (د. ت).
- ١٧٤ — ذيل وفيات الأعيان: (انظر: درّة الحجال في أسماء الرجال).
- [حرف الراء]
- ١٧٥ — ربايعات التونسي: محمد خليفة التونسي، (توفي ١٩٨٨)، مصر — مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى (د. ت).
- ١٧٦ — ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: محمد بن عمر الزمخشري، (توفي ٥٣٨)، تحقيق سليم النعيمي، (د. ت).
- ١٧٧ — رحلة ابن معصوم: علي صدر الدين ابن معصوم المدني، (توفي ١١٢٠)، تحقيق شاكر هادي شكر، بيروت — عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م.
- ١٧٨ — رسائل الجاحظ: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مصر — مكتبة الخانجي، (د. ت).
- ١٧٩ — رسائل ابن المعتز: عبد الله بن محمد المعتز بالله، (توفي ٢٩٦)، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مصر — مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٤٦ م.
- ١٨٠ — رسالة في الحث على طلب العلم: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق عمرو عبد المنعم، مصر — دار السلام، الطبعة الأولى ١٩٩١ م.
- ١٨١ — الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوازن القشيري، (توفي ٤٦٥)، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد، دمشق — دار الخير، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م.
- ١٨٢ — روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: محمد باقر الموسوي الخوانساري، (توفي ١٣١٣)، بيروت — الدار الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٩١ م.
- ١٨٣ — روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: أبو حاتم محمد بن حبان البستي، (توفي ٣٥٤)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت — دار الكتب العلمية، ١٩٧٧ م.

- ١٨٤ — روضة المحبين ونزهة المشتاقين: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (توفي ٧٥١)، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت).
- ١٨٥ — الروضتين في أخبار الدولتين: عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي، (توفي ٦٦٥)، بيروت — دار الجيل، (د. ت).
- ١٨٦ — رياض النفوس: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، (توفي بغد ٤٦٠)، تحقيق بشير البكوش، بيروت — دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣ م.
- ١٨٧ — ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا: أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، (توفي ١٠٦٩)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، مصر — مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م.

[حرف الزاي]

- ١٨٨ — الزهد الكبير: أحمد بن الحسين البيهقي، (توفي ٤٥٨)، تحقيق عامر أحمد حيدر، بيروت — مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.
- ١٨٩ — الزهد والرفائق: عبد الله بن المبارك، (توفي ١٨١)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت).
- ١٩٠ — زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، (توفي ٤٥٣)، تحقيق زكي مبارك، بيروت — دار الجيل، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م.
- ١٩١ — زهر الربيع: نعمة الله الجزائري، (توفي ١١١٢)، بيروت — دار الجنان، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م.
- ١٩٢ — الزهرة: محمد بن داود الأصبهاني، (توفي ٢٩٧)، تحقيق إبراهيم السامرائي، الأردن — مكتبة المنار، الطبعة الثانية ١٩٨٥ م.

[حرف السين]

- ١٩٣ — سائحات دمي القصر في مطارحات بني العصر: درويش محمد بن أحمد الطالوي، (توفي ١٠١٤)، تحقيق محمد مرسى الخولي، بيروت — عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨٣ م.
- ١٩٤ — السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة: محمد بن عبد الله بن حميد، (توفي ١٢٩٥)، تحقيق بكر أبو زيد وعبد الرحمن العثيمين، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.

- ١٩٥ — سراج الملوك: محمد بن الوليد الطرطوشي، (توفي ٥٢٠)، تحقيق جعفر البياتي، لندن — رياض الريس، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م.
- ١٩٦ — سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: جمال الدين بن نباتة المصري، (توفي ٧٦٧)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت — المكتبة العصرية، ١٩٨٦ م.
- ١٩٧ — سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر: علي صدر الدين بن معصوم المدني، (توفي ١١٢٠)، إيران — المكتبة المرتضوية، (د. ت).
- ١٩٨ — سلوة الأحزان: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق شهيد محمد وأمنة محمد، مصر — منشأة المعارف، ١٩٧٠ م.
- ١٩٩ — سمط اللآلئ في شرح آمالي القالي: أبو عبيد عبد العزيز بن محمد البكري، (توفي ٤٨٧)، تحقيق عبد العزيز الميمني، بيروت — دار الحديث، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م.
- ٢٠٠ — سنابل الزمن: محمد قرة علي، بيروت — مؤسسة نوفل، الطبعة الخامسة ١٩٨٠ م.
- ٢٠١ — سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي، (توفي ٧٤٨)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة ١٩٨٦ م.
- [حرف الشين]
- ٢٠٢ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد بن العماد، (توفي ١٠٨٩)، تحقيق محمد الأرنؤوط، دمشق — دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.
- ٢٠٣ — شرح ديوان المتنبي: أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي، (توفي ٣٥٤)، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، بيروت — دار الكتاب العربي، ١٩٨٠ م.
- ٢٠٤ — شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، تحقيق محمد حسن الحمصي، دمشق — دار الرشيد، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م.
- ٢٠٥ — شرح المضمون به على غير أهله: عبد الوهاب بن إبراهيم الخزرجي، (توفي ٦٥٥)، تحقيق عبيد الله بن الكافي العبيدي، بيروت — دار صعب، (د. ت).
- ٢٠٦ — الشرر (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، بيروت — دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٦٣ م.

- ٢٠٧ — شعر عاتكة الخزرجي: (توفيت ١٩٩٧)، الكويت — مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٦ م.
- ٢٠٨ — شعر عبد الحميد السنوسي: تحقيق محمد مفيد ومصطفى عبد اللطيف، مصر — وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤ م.
- ٢٠٩ — شعراء الغري: علي الخاقاني، (توفي ١٩٧٨)، إيران — منشورات دار البيان، ١٩٥٤ م.
- ٢١٠ — شعر اليزيديين: تحقيق محسن غياض، النجف — مطبعة النعمان، ١٩٧٣ م.
- ٢١١ — شمامة العنبر والزهر المعنبر: محمد بن مصطفى الغلامي، (توفي ١١٨٦)، تحقيق سليم النعيمي، العراق — مطبعة المجمع العلمي، ١٩٧٧ م.
- ٢١٢ — الشلال (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، بيروت — دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٦٢ م.

[حرف الصاد]

- ٢١٣ — صفة الصفوة: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد فاخوري، بيروت — دار المعرفة، الطبعة الثالثة ١٩٨٥ م.
- ٢١٤ — صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل: عبد الفتاح أبو غدة، (توفي ١٩٩٧)، حلب — مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٩٩٤ م.
- ٢١٥ — صلة الصلة: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، (توفي ٧٠٨)، تحقيق عبد السلام وسعيد أعراب، المغرب — وزارة الأوقاف، ١٩٩٣ م.
- ٢١٦ — صيد الخاطر: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق عامر علي ياسين، السعودية — دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م.

[حرف الضاد]

- ٢١٧ — الضاحكون: محمد قرة علي، بيروت — مؤسسة نوفل، الطبعة الخامسة ١٩٨٨ م.
- ٢١٨ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، (توفي ٩٠٢)، بيروت — دار مكتبة الحياة، (د. ت.).

[حرف الطاء]

- ٢١٩ — الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد: جعفر بن ثعلب الإدفوي، (توفي ٧٤٨)، تحقيق سعد محمد حسن، مصر — الدار المصرية، ١٩٦٦ م.
- ٢٢٠ — طبقات الأولياء: عمر بن علي بن أحمد ابن المقلن، (توفي ٨٠٤)، تحقيق نور الدين شريعة، مصر — مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٧٣ م.
- ٢٢١ — طبقات الحنابلة: محمد بن أبي يعلى، (توفي ٥٢٦)، بيروت — دار المعرفة، (د. ت).
- ٢٢٢ — طبقات الشافعية: أحمد بن محمد بن قاضي شهبة، (توفي ٨٥١)، تحقيق الحافظ عبد المليم خان، بيروت — دار الندوة الجديدة، ١٩٨٧ م.
- ٢٢٣ — طبقات الشافعية (بذيل طبقات الفقهاء): أبو بكر بن هداية الله الحسيني، (توفي ١٠١٤)، تحقيق خليل الميس، بيروت — دار القلم، (د. ت).
- ٢٢٤ — طبقات النحويين واللغويين: محمد بن الحسن الزبيدي، (توفي ٣٧٩)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر — دار المعارف، ١٩٨٤ م.
- ٢٢٥ — طرائف الأدباء: جميل جبر، بيروت — دار جروس برس، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.
- ٢٢٦ — طرائف الشعراء في مجالس الأدباء: نجيب البعيني، بيروت — دار المناهل، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م.
- ٢٢٧ — طرائف الطرف: الحسين بن محمد البارع البغدادي، (توفي ٥٢٤)، تحقيق هلال ناجي، بيروت — عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.
- ٢٢٨ — طراز المجالس: أحمد بن محمد الخفاجي، (توفي ١٠٦٩)، مصر — المطبعة الشرفية، (د. ت).
- ٢٢٩ — طيب السمر في أوقات السحر: أحمد بن محمد بن الحسن الكوكباني، (توفي ١١٥١)، تحقيق عبد الله الحبشي، صنعاء — مكتبة الإرشاد، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م.

[حرف الظاء]

- ٢٣٠ — ظرفاء الفرنسيين: سمير شيخاني، بيروت — مؤسسة عز الدين، الطبعة الأولى ١٩٨١ م.

٢٣١ — ظرفاء ولكن حكماء: محمد كمال عبد الصمد، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة ١٩٩٥ م.

[حرف العين]

- ٢٣٢ — العبر في خبر من غبر: محمد بن أحمد الذهبي، (توفي ٧٤٨)، تحقيق محمد بسيوني زغلول، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت).
- ٢٣٣ — عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام: محمد خليل المرادي، (توفي ١٢٠٦)، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد، دمشق — دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٩٨٨ م.
- ٢٣٤ — العزلة: حمد بن محمد الخطّابي البستي، (توفي ٣٨٨)، تحقيق ياسين محمد السواس، دمشق — دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.
- ٢٣٥ — العزلة والانفراد: عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، (توفي ٢٨١)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، الرياض — دار الوطن، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م.
- ٢٣٦ — العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: محمد بن أحمد الحسيني الفاسي، (توفي ٨٣٢)، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م.
- ٢٣٧ — عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: بدر الدين محمود العيني، (توفي ٨٥٥)، تحقيق محمد أحمد أمين، مصر — الهيئة المصرية، ١٩٨٧ م.
- ٢٣٨ — العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (توفي ٣٢٧)، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مصر — لجنة التأليف، ١٩٤٨ م.
- ٢٣٩ — العقد المذهب في طبقات حملة المذهب: عمر بن علي بن أحمد بن الملّقن، (توفي ٨٠٤)، تحقيق أيمن نصر وسيد مهنى، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م.
- ٢٤٠ — العلماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزواج: عبد الفتاح أبو غدة، (توفي ١٩٩٧)، حلب — مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٢٤١ — العملة في محاسن الشعر وآدابه: الحسن بن رشيق القيرواني، (توفي ٤٥٦)، تحقيق محمد قرقزان، بيروت — دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م.

- ٢٤٢ — عمري ألف عام (شعر): عبد الله الأخطل، بيروت — دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة ١٩٩٦ م.
- ٢٤٣ — عن الحب ومنى الحلم: (شعر) علي أحمد.
- ٢٤٤ — عود على بدء: (شعر) محمود عماد.
- ٢٤٥ — عين الأدب والسياسة: علي بن عبد الرحمن بن هذيل، (توفي بعد ٧٦٣)، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٩٨٥ م.
- ٢٤٦ — عيون الأخبار: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (توفي ٢٧٦)، مصر — مصوِّرة دار الكتب، (د. ت).
- ٢٤٧ — عيون الأنباء في طبقات الأطباء: أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، (توفي ٦٦٨)، تحقيق نزار رضا، بيروت — دار مكتبة الحياة، (د. ت).
- ٢٤٨ — عيون التواريخ: محمد بن شاعر الكتبي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق نبيلة عبد المنعم وفیصل السامر، العراق — وزارة الثقافة، ١٩٨٤ م.
- ٢٤٩ — عيون التواريخ: محمد بن شاعر الكتبي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق عفيف نايف حاطوم، بيروت — دار الثقافة، ١٩٩٦ م.

[حرف الغين]

- ٢٥٠ — غرر الخصائص الواضحة وغرر النفائس الفاضحة: الوطواط محمد بن إبراهيم بن يحيى، (توفي ٧١٨)، بيروت — دار صعب، (د. ت).
- ٢٥١ — الغيث المسجم: خليل بن أليك الصفدي، (توفي ٧٦٤)، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٩٩٠ م.

[حرف الفاء]

- ٢٥٢ — الفاضل في صفة الأدب الكامل: محمد بن أحمد الوشاء، (توفي ٣٢٥)، تحقيق يحيى الجبوري، بيروت — دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩١ م.
- ٢٥٣ — الفانيد في حلاوة الأسانيد: السوطي، (توفي ٩١١)، من ضمن مجموعة «لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام»، بعناية رمزي دمشقية، بيروت — دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.
- ٢٥٤ — الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، (توفي ٧٠٩)، بيروت — دار صادر، (د. ت).

- ٢٥٥ - الفصوص: صاعد بن الحسن البغدادي، (توفي ٣٣٩ أو ٤١٧)، تحقيق عبد الوهاب التازي سعود، المغرب - مطبعة الفضالة، ١٩٩٣ م.
- ٢٥٦ - فصول التماثيل في تباشير السرور: عبد الله بن المعتز، (توفي ٢٩٦)، تحقيق جورج قنازع وفهد أبو خضرة، دمشق - مجمع اللغة العربية، ١٩٨٩ م.
- ٢٥٧ - الفلاكة والمفلوكين: أحمد بن علي الدلجي، (توفي ٨٣٨)، بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م.
- ٢٥٨ - الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها: أحمد محمد الحوفي، (توفي ١٩٨٢)، مصر - مكتبة نهضة مصر، (د. ت.).
- ٢٥٩ - الفهرست: محمد بن إسحاق النديم، (توفي ٣٨٠)، تحقيق ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.
- ٢٦٠ - فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق إحسان عباس، بيروت - دار صادر، (د. ت.).

[حرف القاف]

- ٢٦١ - قاموس الحكم والأمثال والأقوال المأثورة: سمير شيخاني، بيروت، مؤسسة عز الدين، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م.
- ٢٦٢ - القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي: عمر بن أحمد بن علي الشماع الحلبي، (توفي ٩٣٦)، تحقيق حسن إسماعيل مروة وخلدون حسن مروة، بيروت - دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.
- ٢٦٣ - قطر الغيث المسجم على لامية العجم (بذيل كتاب نفحات الأزهار): عبد الرحمن الشافعي العلواني الطيب، بيروت - عالم الكتب، الطبعة الثالثة ١٩٨٤ م.
- ٢٦٤ - قلائد الجمان في فرائد شعراء أهل الزمان: كمال الدين أبي البركات المبارك بن الشعار، (توفي ٦٥٤)، تحقيق نوري القيسي ومحمد نايف، العراق - جامعة الموصل، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م.
- ٢٦٥ - قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: الفتح بن محمد بن عبيد الله ابن خاقان، (توفي ٥٢٩)، تحقيق حسين يوسف خريوش، الأردن - مكتبة المنار، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م.

٢٦٦ — قيمة الزّمن عند العلماء: عبد الفتاح أبو غدة، (توفي ١٩٩٧)، حلب — مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م.

[حرف الكاف]

٢٦٧ — الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين محمد بن الخطيب، (توفي ٧٧٦)، تحقيق إحسان عباس، بيروت — دار الثقافة، (د. ت.).

٢٦٨ — الكشكول: بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، (توفي ١٠٠٣)، بيروت — دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٢٦٩ — الكشكول: السيد مهدي الوجيه، بيروت — مؤسسة البلاغ، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٢٧٠ — الكشكول: يوسف البحراني، (توفي ١١٨٦)، إيران — منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ.

٢٧١ — كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج: أحمد بن بابا التنبكتي، (توفي ١٠٣٦)، تحقيق محمد مطيع، المغرب — وزارة الأوقاف، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٢٧٢ — كلمات من ذهب: ناديا الجردي نويهض، بيروت — دار الحدّاث، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

٢٧٣ — الكنز المدفون والفلك المشحون: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، مصر — مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩م.

٢٧٤ — كنوز الحكمة: راجي الأسمر، بيروت — دار الجيل، (د. ت.).

[حرف اللام]

٢٧٥ — لباب الآداب: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)،

تحقيق أحمد حسن بسج، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٢٧٦ — لباب الآداب: أسامة بن منقذ، (توفي ٥٨٤)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر — دار الكتب السلفية، ١٩٨٧م.

٢٧٧ — لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل

الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق عدنان كريم الرجب، بيروت — الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

- ٢٧٨ — لطائف اللطف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق عمر الأسعد، بيروت — دار المسيرة، الطبعة الثانية ١٩٨٧ م.
- ٢٧٩ — اللطائف والظرائف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، بيروت — دار المناهل، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م.
- ٢٨٠ — لطف السمر وقطف الثمر: نجم الدين محمد بن محمد الغزي، (توفي ١٠٦١)، تحقيق محمود الشيخ، دمشق — وزارة الثقافة، (د. ت).
- ٢٨١ — اللطف واللطائف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق محمود عبد الله الجادر، الكويت — دار العروبة، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م.
- ٢٨٢ — اللّفحات (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧ م)، بيروت — مكتبة المعارف، الطبعة الثانية ١٩٦٥ م.
- ٢٨٣ — اللهب المقفّى (شعر): حافظ جميل، العراق — وزارة الثقافة ١٩٦٦ م.

[حرف الميم]

- ٢٨٤ — مجالس ثعلب: أحمد بن يحيى ثعلب، (توفي ٢٩١)، تحقيق عبد السلام هارون، مصر — دار المعارف، الطبعة الخامسة ١٩٨٠ م.
- ٢٨٥ — المجالسة وجواهر العلم: أحمد بن مروان بن محمد الدينوري، (توفي ٣٣٣)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، بيروت — دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.
- ٢٨٦ — المجتنى: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، (توفي ٣٢١)، بيروت — دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م.
- ٢٨٧ — مجلة الأحرار المصوّرة (لصاحبها): جبران تويني، (توفي ١٩٤٧)، بيروت — دار النهار للنشر.
- ٢٨٨ — مجلس من أمالي ابن الأتباري: محمد بن القاسم بن بشار، (توفي ٣٢٨)، تحقيق إبراهيم صالح، دمشق — دار البشائر، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م.
- ٢٨٩ — مجلّة الرسالة (لصاحبها): أحمد حسن الزيات، (توفي ١٩٦٨)، مصر.
- ٢٩٠ — مجمع الآداب في معجم الألقاب: عبد الرزاق بن أحمد ابن الغوطي، (توفي ٧٢٣)، تحقيق محمد الكاظم، إيران — وزارة الثقافة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

- ٢٩١ — مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي: أحمد قبش، دمشق — دار الرشيد، الطبعة الثالثة ١٩٨٥ م.
- ٢٩٢ — مجموعة المعاني: لمؤلف مجهول، القسطنطينية — مطبعة الجوائب، الطبعة الأولى ١٣٠١ هـ.
- ٢٩٣ — المحاسن والأضداد: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق فوزي عطوي، بيروت — دار صعب، ١٩٦٩ م.
- ٢٩٤ — المحاسن والمساوي: إبراهيم بن محمد البيهقي (توفي بعد ٣٨٥)، بيروت — دار بيروت، ١٩٧٩ م.
- ٢٩٥ — محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء: حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، (توفي ٥٠٢)، بيروت — مكتبة الحياة، (د. ت).
- ٢٩٦ — المحاضرات في اللغة والأدب: الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي، (توفي ١١٠٢)، تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي، بيروت — دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢ م.
- ٢٩٧ — محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: محيي الدين بن عربي، (توفي ٦٣٨)، بيروت — دار صادر، (د. ت).
- ٢٩٨ — المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: الحسن بن عبد الرحمن الراهمزمي، (توفي ٣٦٠)، تحقيق محمد عجاج الخطيب، دمشق — دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٩٨٤ م.
- ٢٩٩ — محمود أبو الوفا، دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه: (توفي ١٩٧٩)، مصر — الهيئة المصرية، ١٩٧٧ م.
- ٣٠٠ — المحدثون من الشعراء وأشعارهم: علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي، (توفي ٦٤٦)، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، دمشق — دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٩٨٨ م.
- ٣٠١ — المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد الديلمي: محمد بن أحمد الذهبي، (توفي ٧٤٨)، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.
- ٣٠٢ — مختصر طبقات الحنابلة: محمد جميل الشطي، (توفي ١٣٧٩)، تحقيق فواز أحمد زمرلي، بيروت — دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.

- ٣٠٣ — المختار من شعر بشار: محمد وسعيد ابني هاشم الخالدين، (توفي ٣٨٠ و ٣٩٠)، تحقيق إسماعيل بن أحمد التجيبي، بيروت — دار المدينة، (د. ت).
- ٣٠٤ — المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبياء والخمور: إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، (توفي تقريباً ٤٢٥)، تحقيق عبد الحفيظ منصور، تونس — مؤسسة عبد الكريم وعبد الله، ١٩٧٦ م.
- ٣٠٥ — المخلاة: بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، (توفي ١٠٠٣)، تحقيق محمد خليل الباشا، بيروت — عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.
- ٣٠٦ — المدهش: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق مروان قباني، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت).
- ٣٠٧ — مدينة بلا قلب (شعر): أحمد عبد المعطي حجازي، (ولد ١٩٣٥)، بيروت — دار الأدب، الطبعة الأولى ١٩٥٩ م.
- ٣٠٨ — مرآة الجنان وعبرة اليقظان: عبد الله بن أسعد بن علي الياضي، (توفي ٧٦٨)، بيروت — مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثانية ١٩٧٠ م.
- ٣٠٩ — مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي يوسف بن قزاوغلي، (توفي ٦٥٤)، تحقيق مسفر بن سالم الغامدي، السعودية — جامعة أم القرى، ١٩٨٧ م.
- ٣١٠ — مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي يوسف بن قزاوغلي، (توفي ٦٥٤)، تحقيق جنان خليل محمد الهموندي، العراق — وزارة الثقافة، ١٩٩٠ م.
- ٣١١ — المركب التائه (شعر): جمال الملاح، (توفي ١٩٤٩)، (د. ت).
- ٣١٢ — مروج الذهب: علي بن الحسين المسعودي، (توفي ٣٤٦)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دمشق — دار الفكر، الطبعة الخامسة ١٩٧٣ م.
- ٣١٣ — المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: أحمد بن أيك الحسامي الدمياطي، (توفي ٧٤٩)، تحقيق محمد مولود خلف، بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.
- ٣١٤ — المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل: محمد الإفرائي، (مولود سنة ١٠٨٠)، تحقيق محمد العمري، المغرب — وزارة الثقافة، ١٩٩٧ م.

- ٣١٥ — مشاعل الدرب (شعر): محمد سعيد جرادة.
- ٣١٦ — مطالع البدور في منازل السرور: علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي، (توفي ٨٩٥)، مصر — مطبعة إدارة الوطن، الطبعة الأولى ١٢٩٩هـ.
- ٣١٧ — مطمح الأنفس ومسرح التأنس: الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان، (توفي ٥٢٩)، تحقيق محمد علي شوابكة، بيروت — دار عمار ومؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
- ٣١٨ — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: عبد الرحيم بن أحمد العباسي، (توفي ٩٦٣)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر — مطبعة السعادة، ١٩٤٧م.
- ٣١٩ — معجم حكمة العرب: أمل شلق، بيروت — دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
- ٣٢٠ — معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الحموي، (توفي ٦٢٦)، تحقيق مرجليوث، بيروت — دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م.
- ٣٢١ — معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، (توفي ٦٢٦)، بيروت — دار صادر، ١٩٧٧.
- ٣٢٢ — معجم السفر: أحمد بن محمد السلفي، (توفي ٥٧٦)، تحقيق عبد الله عمر البارودي، بيروت — دار الفكر، ١٩٩٣م.
- ٣٢٣ — المغرب في حلي المغرب (قسم مصر): ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي، (توفي ٦٨٥)، تحقيق زكي محمد وشوقي ضيف وسيدة كاشف — مصر، مطبعة جامعة فؤاد، ١٩٥٣م.
- ٣٢٤ — المغرب في حلي المغرب (قسم القاهرة): ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي، (توفي ٦٨٥)، تحقيق حسين نصّار، مصر — مطبعة الكتب المصرية، ١٩٧٠م.
- ٣٢٥ — المغرب في حلي المغرب: ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي (توفي ٦٨٥)، تحقيق شوقي ضيف، مصر — دار المعارف، الطبعة الثالثة (د. ت).
- ٣٢٦ — مفرج الكروب في أخبار أيوب: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، (توفي ٦٩٧)، تحقيق جمال الدين الشّيال، (د. ت).

- ٣٢٧ - المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: إبراهيم بن محمد بن مفلح، (توفي ٨٨٤)، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الرياض - مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- ٣٢٨ - المقفّى الكبير: أحمد بن علي المقرئزي، (توفي ٨٤٥)، تحقيق محمد العلاوي، بيروت - دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
- ٣٢٩ - المكافأة وحسن العقبي: أحمد بن يوسف الكاتب، (توفي ٣٤٠)، تحقيق محمود محمد شاكر، بيروت - دار الكتب العلمية، (د. ت).
- ٣٣٠ - المكتبة الأندلسية: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري اللبناني، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.
- ٣٣١ - ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة: محمد بن عمر بن رشيد الفهري، (توفي ٧٢١)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت - دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، (د. ت).
- ٣٣٢ - من حصاد الفكر العالمي: سمير شيخاني، بيروت - دار الآفاق الجديدة، (د. ت).
- ٣٣٣ - من شعرائنا المنسيين: عبد الله الجبوري، العراق - وزارة الثقافة، ١٩٦٦م.
- ٣٣٤ - من الكويت (شعر): عبد الله النوري، (توفي ١٩٨١).
- ٣٣٥ - المنازل والديار: أسامة بن منقذ، (توفي ٥٨٤)، بيروت - المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٦٥م.
- ٣٣٦ - المناقب والمثالب: ربحان بن عبد الواحد الخوارزمي، (توفي تقريباً سنة ٤٣٠)، تحقيق إبراهيم صالح، دمشق - دار البشائر، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- ٣٣٧ - المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر، بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- ٣٣٨ - المنتخب من كنايات الأدباء: أحمد بن محمد الجرجاني، (توفي ٤٨٢)، بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
- ٣٣٩ - المنتخب من معجم شيوخ الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني: « (توفي ٥٦٢)، تحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٣٤٠ — المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد: عبد الرحمن بن محمد العلمي، (توفي ٩٢٨)، تحقيق محمد الأرناؤوط وآخرون، بيروت — دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٣٤١ — المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: يوسف بن تغري بردي، (توفي ٨٧٤)، تحقيق محمد أمين ونيل محمد، مصر — الهيئة المصرية، ١٩٨٤م.

٣٤٢ — موسوعة الأدب الضاحك: علي مروة، لندن — رياض الريس، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٣٤٣ — موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة: روجي البعلبكي، بيروت — دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

٣٤٤ — الموسوعة الشوقية: أحمد شوقي، (توفي ١٩٣٢)، تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت — دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٣٤٥ — موسوعة الكنايات العامية البغدادية: عبود الشالجي، (توفي ١٩٩٦)، بيروت — دار الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨٢.

[حرف النون]

٣٤٦ — النّبع (شعر): حسن كامل الصيرفي، (توفي ١٩٨٤م)، مصر — دار المعارف ١٩٨٢م.

٣٤٧ — نثر الدرّ: منصور بن الحسين الآبي، (توفي ٤٢١)، تحقيق محمد علي قرنة وآخرون، مصر — الهيئة المصرية، (د. ت).

٣٤٨ — النجوم الزاهرة في ولادة مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردي، (توفي ٨٧٤)، مصر — الهيئة المصرية، ١٩٧٢م.

٣٤٩ — نزّه الألباء في طبقات الأدباء: عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، (توفي ٥٧٧)، تحقيق إبراهيم السامرائي، الأردن — مكتبة المنار، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

٣٥٠ — نزّه الجليس ومنية الأديب الأنيس: العباس بن علي الموسوي، (توفي ١١٨٠)، تحقيق محمد مهدي الخرسان، النجف — المطبعة الحيدرية، ١٩٦٧م.

- ٣٥١ — نزهة النظر في قضاء الأمصار: عمر بن علي بن أحمد بن الملقن، (توفي ٨٠٤)، تحقيق مديحة محمد الشراوي، مصر — مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٦ م.
- ٣٥٢ — نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر: ضياء الدين يوسف بن يحيى الصنعاني، (توفي ١١٢١)، تحقيق كامل سلمان الجبوري، بيروت — دار المؤرخ العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.
- ٣٥٣ — نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: علي المحسن بن علي التنوخي، (توفي ٣٨٤)، تحقيق عبود الشالجي، ١٩٧١ م.
- ٣٥٤ — نظم العقيان في أعيان الأعيان: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، تحقيق فيليب حتي، بيروت — دار الكتب العلمية، (د. ت).
- ٣٥٥ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، (توفي ١٠٤١)، تحقيق إحسان عباس، بيروت — دار صادر، ١٩٦٨ م.
- ٣٥٦ — نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة: محمد أمين بن فضل الله المحبّي، (توفي ١١١١)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، مصر — مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م.
- ٣٥٧ — نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن: أحمد بن محمد الشرواني، (توفي ١٢٥٣)، بيروت — دار آزال، ١٩٨٥ م.
- ٣٥٨ — نكت الهميان في نكت العميان: خليل بن أليك الصفدي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق أحمد زكي باشا، مصر — المطبعة الجمالية ١٩١١ م.
- ٣٥٩ — نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد النويري، (توفي ٧٣٣)، مصر — دار الكتب، (د. ت).
- ٣٦٠ — نور القبس المختصر من المقتبس (تأليف): محمد بن عمران المرزباني (اختصار) يوسف بن أحمد اليعموري، تحقيق رودلف زلهاميم، دار فرانس شتاينر، ١٩٦٤ م.
- ٣٦١ — نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التنكيتي، (توفي ١٠٣٦)، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس — كلية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م.

[حرف الهاء]

- ٣٦٢ — هتاف الوجدان (شعر): سعيد فياض، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
٣٦٣ — هواجس (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، بيروت — المطبعة
العصرية، (د. ت.).

[حرف الواو]

- ٣٦٤ — الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق مجموعة
من المحققين، دار فرانس شتاينر.
٣٦٥ — وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام: محمد بن عبد الرحمن السخاوي،
(توفي ٩٠٢)، تحقيق بشار معروف وعصام فارس وأحمد الخطيمي،
بيروت — مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
٣٦٦ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلكان، (توفي
٦٨١)، تحقيق إحسان عباس، بيروت — دار صادر، (د. ت.).

[حرف الباء]

- ٣٦٧ — يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل
الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت — دار الكتب
العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.



فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

٥	* كلمة شكر
٩	* المقدمة
١٣	١ - فصل في فضيلة علم الأخبار
١٨	٢ - فصل في فضيلة الكتب والكتابة للجاحظ
٥٧	٣ - فصل في عشاق الكتب وما بذلوا من النفيس له
١١٦	٤ - فصل في أخبارهم في الحزن والغم على فقد الكتب والمصاب بها
١٣٨	٥ - فصل في أخبارهم في بيع كتبهم للضرورة والحزن عليها
١٤٦	٦ - فصل في قتلى الكتب والمكفوفين بها
١٥٢	٧ - فصل في تعظيمهم وإجلالهم للكتب
	٨ - فصل في عزلتهم وأنسهم بمجالسة الكتب ومنادمتها
١٥٧	عوضاً عن الأصحاب
٢٣٤	٩ - فصل في متنزهات وبساتين الكتب
٢٤٣	١٠ - فصل في عشق الكتب على النساء
٢٥١	١١ - فصل في الكتاب والزوجة
٢٥٩	١٢ - فصل في مقدمات الكتب في الكتاب
٢٦٢	١٣ - فصل الذكر الحسن من الكتب
٢٦٩	١٤ - فصل في حسراتهم على الكتب بعد موتهم
٢٧٣	* المصادر والمراجع

